مرغريت دوراس

سد على الباسيفيك

رواية

ترجمة: كيتي سالم

مراجعة: غراء مهنا

المركز القومي للترجمة

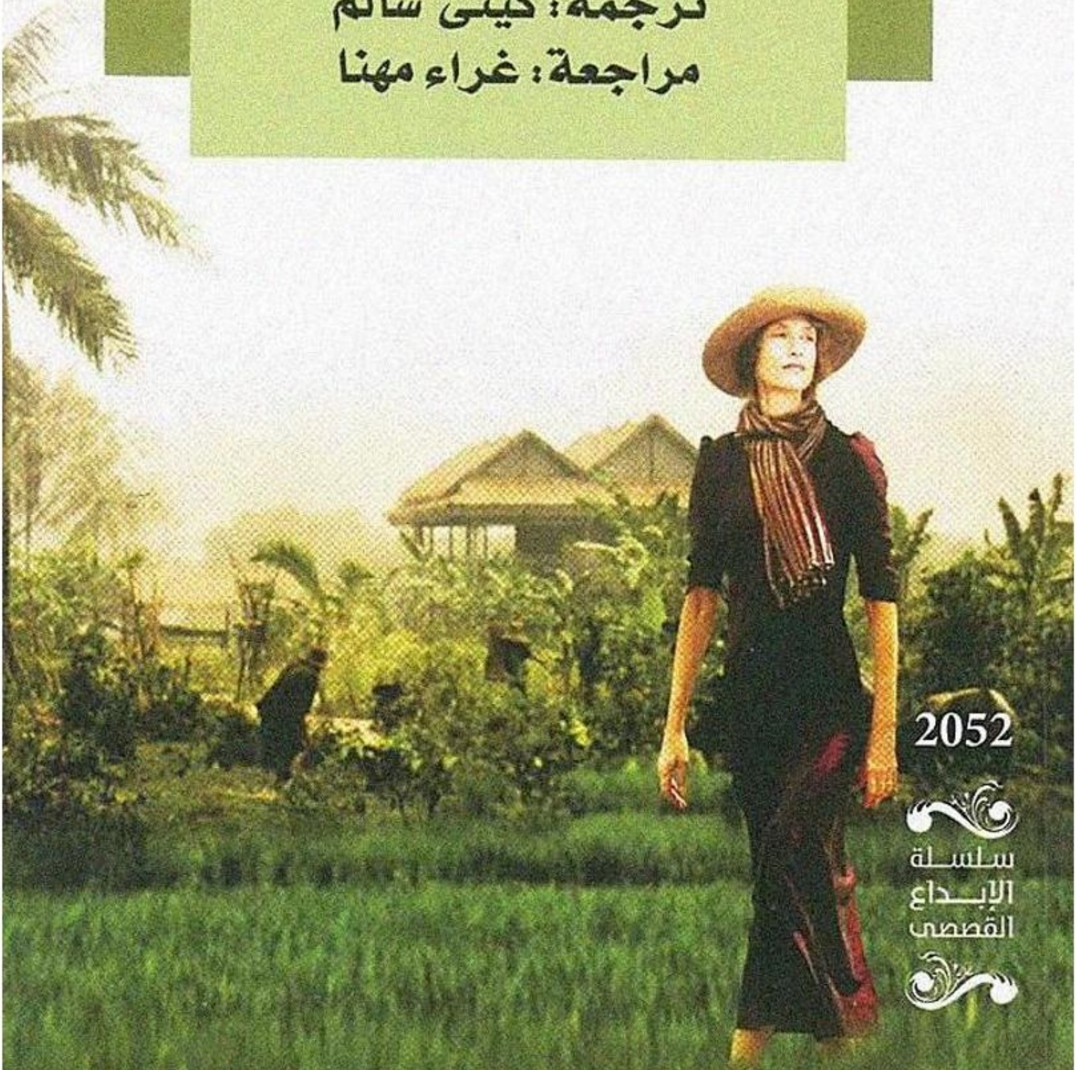

2052

سلسلة الإبداع القصصي

سد على الباسيفيك

(رواية)

تـأليف: **مرغريت دوراس**

ترجمة: **كيتى سالم**

مراجعة: **غراء مهنا**

2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2052
- سد على الباسيفيك
- مرغريت دوراس
- كيتى سالم
- غراء مهنا
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

Un barrage contre le Pacifique
By: Marguerite DURAS
Copyright © Editions Gallimard 1950
Arabic Translation © 2014, National Center for Translation
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دوراس، مرغريت
سد على الباسيفيك (رواية)/ تأليف: مرغريت دوراس، ترجمة:
كيتي سالم ، مراجعة: غراء مهنا
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤
٣٨٠ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الفرنسية
(أ) سالم، كيتي (مُترجمة)
(ب) مهنا، غراء (مراجعة)
(ج) العنوان ٨٤٣

رقم الإيداع: ٢٢١٨٤ /٢٠١١
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 906 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

الأم، وهي مُعلمة قديمة، من شمال فرنسا، تزوجت في الماضي من معلم. وقد استهوتهما اللافتات الدعائية وكذلك قراءة الكاتب بيير لوتي، وكلاهما سعى إلى المغامرة الاستعمارية. بعد عدة سنوات سعيدة نسبيًا، مات الأب وبقيت الأم وحيدة مع طفليها، جوزيف وسوزان. عزفت طوال عشر سنوات على البيانو في سينما تدعى سينما ـ عدن، وادخرت بعض المال، ثم حصلت بعد مساعٍ لانهاية لها، على قطعة أرض من الإدارة العامة لسجل المساحة، التي لم تتلقَ رشوة منها، فأعطتها عمدًا قطعة أرض غير صالحة للزراعة. إن الأم التي لم يكن لها إلاّ هدف واحد وهو أن تترك ملكية صغيرة لطفليها اللذين كانت تعشقهما، قد عاندت وضعها. لقد فكرت في أن تبني سدًا على أمواج الباسيفيك ليحمي أراضيها وأراضي جيرانها. بنى السد مئات الفلاحين الذين استهواهم الأمل نفسه. ثم اجتاح المحيط السدود بأمواج مده،.

تبدأ رواية مرغريت دوراس في تلك الفترة. يعيش كل من الأم وجوزيف البالغ العشرين من عمره وسوزان التي تبلغ السادسة عشرة حياة قاسية في بيتهم الخشبي الخرب، وسط أرضهم المؤقتة، مهددين دائمًا من إدارة المساحة بحرمانهم من تلك الأرض وطردهم. ما العمل؟ لم يفارق النشاط ولا الأمل الأم التي تحسب وتخطط، وقد

تملكها جنون حريص، يمتزج بالحيلة والوعي، مرده خوفها من رحيل ولديها النهائي ــ وهي تعرف أن هذا الرحيل قادم حتمًا. إن حالات الغضب والحب التي تنتاب جوزيف، واستسلام سوزان، وكذلك حيل السيد جو، ابن أحد أثرياء تجار الأراضي الاستغلاليين ، ليغري تلك الشابة، وموت الأم ورحيل الشابين إلى حياة قد تكون أفضل وربما أسوأ، تلك هي مواضيع هذا الكتاب الذي عرَّف مرغريت دوراس. لقد ولدت المؤلفة في الكوشنشين أي الهند الصينية، ووضعت كثيرًا من العناصر الحياتية التي عاشتها في تلك القصة التي تهيمن عليها الشمس والخمر وكذلك بؤس الآسيويين العظيم وتعاستهم المادية والمعنوية والرجال البيض المساكين، الذين تستغلهم إدارة سافلة ونذلة، وهكذا تناوب الضحك المجنون مع الحزن، والشهوانية العنيفة والشبقة.

إلى روبير

الجزء الأول

كان قد بدا لثلاثتهم أن شراء ذاك الحصان فكرة صائبة. حتى لو كان ذلك لمجرد دفع ثمن سجائر جوزيف. لقد بدا ذلك أول الأمر فكرة، وهو يدل على أنه ما زال لديهم بعض الأفكار الجيدة، ثم أحسوا أنهم أقل عزلة، وقد ربطهم ذاك الحصان بالعالم الخارجي، وشعروا بأن في استطاعتهم أن يستخلصوا منه شيئًا من ذاك العالم وإن لم يكن بالشيء الكثير، أو كان هزيلاً، أن يستخلصوا شيئًا لم يكن لهم حتى الآن، وأن يأتوا به حتى زاوية السهل المشبع بالملح، ليصل إلى ثلاثتهم المفعمين بالسأم وبالمرارة. هكذا كانت وسائل النقل: وحتى من صحراء، حيث لا ينبت شيء، يمكن أن يستخرج الإنسان شيئًا ما، وذلك بجعله يَعبُر إلى هؤلاء الذين يعيشون في مكانٍ بعيد، إلى الذين هم من العالم.

استمرت تلك الحال ثمانية أيام. كان الحصان باعتباره حصانًا عجوزًا جدًا أكبر سنًا من الأم. كان شيخًا ذا مائة عام. سعى ذلك الحصان منذ زمن طويل إلى أن يؤدى العمل المطلوب منه بأمانة تفوق مقدرته، ثم مات.

أصابهم القرف والاشمئزاز من ذلك، حتى إنهم، وقد وجدوا أنفسهم بلا حصان في زاوية السهل، وسط العزلة الدائمة والعقم

المستمر، قرروا في المساء عينه أن يذهب الثلاثة في اليوم التالي إلى مدينة رام، ليحاولوا أن يتسلوا برؤيتهم للناس.

وفي اليوم التالي في رام أجروا اللقاء الذي سيغير حياتهم كلهم.

ذلك أن كل فكرة هي دائمًا فكرة جيدة لأنها تُحدث شيئًا ما، حتى وإن أجروا كل شيء بشكل مغلوط، كالأحصنة المشرفة على الموت. إن فكرة من ذاك الضرب هي دائمًا فكرة صائبة، وإن أخفق كل شيء بشكل مؤسف، لأن ما يحدث على الأقل هو أن ينتهي الأمر بنفاد صبرنا وهذا لن يحدث البتة إذا بدأنا في الاعتقاد بأن أفكارنا أفكار سيئة.

حدث ذلك إذن للمرة الأخيرة، ذاك المساء، نحو الخامسة بعد الظهر، إذ سُمِع عن بعد الصوت الخشن لعربة جوزيف، على الطريق السالك من جهة رام.

هزت الأم رأسها.

ـ الوقت باكر، لاشك أنه لم يجد أناسًا كثيرين.

سُمعت بعد ذلك فرقعة السوط وصيحات جوزيف، وظهرت العربة على الدرب. كان جوزيف في المقدمة. على المقعد الخلفي جلست ماليزيتان. كان الحصان يسير بتمهل كبير، ويجرف الدرب بقائمتيه بدلاً من أن يمشي. كان جوزيف يضربه بالسوط ولو ضرب الدرب لما كان الطريق أكثر بلادة. توقف جوزيف عند البيت

الخشبي. نزلت المرأتان وتابعتا طريقهما سيرًا على الأقدام نحو بلدة كام. قفز جوزيف من العربة، وأخذ الحصان من الزمام، ترك الطريق السالك ودار في الطريق الضيقة التي تؤدي إلى البيت الخشبي. كانت الأم تنتظره واقفة على المَسطَح، أمام الشرفة.

قال جوزيف: ــ لم يعد يتقدم على الإطلاق.

كانت سوزان جالسة تحت البيت الخشبي، وقد أسندت ظهرها على وتد. نهضت واقتربت من المُسَطَح، دون أن تخرج مع ذلك من الظل. شرع جوزيف بفك الحصان. كان يعاني كثيرًا من الحر وراحت قطرات من العرق تنزل من تحت قبعته على خديه. وبعد أن فك الزمام، ابتعد قليلاً عن الحصان وراح يتفحصه. لقد خطرت له تلك الفكرة للنقل الأسبوع السابق محاولاً أن يكسب بعض المال. كان قد اشترى كل شيء، الحصان، والعربة، والإسراج بمائتي فرنك. لكن الحصان كان أكثر شيخوخة مما يُظن. فمنذ اليوم الأول على شرائه، ما إن فك زمامه حتى راح ينتصب هناك عند شتلات الزرع أمام البيت الخشبي، ولكنه طوال ساعات، مطأطئ الرأس. كان يأكل العشب بين الفينة والفينة، ولكن وهو شارد، كأنه قد أقسم في الواقع أن يتوقف عن الأكل تمامًا، وأن ينسى قسمه بين حين وآخر. لم يكن أحد يعرف، إذا استثنينا شيخوخته، ماذا ألم به. بالأمس، أحضر له جوزيف خبزًا من الأرز وبعض قطع من السكر محاولاً أن يفتح شهيته، لكن الحصان بعد أن شم الطعام عاد إلى تأمله المذهول لشتلات الأرز الفتية. لاشك أنه طوال حياته التي قضاها وهو يجر

جذوع الأشجار من الغابة حتى السهل، لم يأكل البتة سوى العشب اليابس والمصفر والذي ينبت في الأراضي البور، حتى إنه لم يعد يتذوق أي طعام آخر.

ذهب جوزيف نحوه وداعبه بلمس رقبته.

صرخ جوزيف بصوت عالٍ: ــ كل، كل.

لم يأكل الحصان. بدأ جوزيف يقول إنه ربما مصاب بالسل. كانت الأم تنفي ذلك وتقول إنه مثلها، قد سئم العيش وإنه يفضل أن يستسلم إلى الموت. لكنه حتى ذاك اليوم، لم يقتصر على الذهاب والعودة بين بانتيه والبيت الخشبي، لكنه يتوجه وحده، مساءً بعد أن يُفك زمامه نحو شتلات الزرع، بصعوبة، أجل وحده. أما اليوم فلقد بقي هنا، على المُسَطَّح، أمام جوزيف. وكان يتأرجح قليلاً من وقت إلى آخر.

قال جوزيف: ــ عليه اللعنة، لم يعد يريد أن يذهب إلى هناك.

اقتربت الأم بدورها. كانت حافية القدمين وتلبس قبعة كبيرة من القش تصل إلى علو حاجبيها. كانت تتدلى على ظهرها ضفيرة نحيلة من الشعر الرمادي حبست بحلقة مطاطية. كان ثوبها الرماني اللون، المقصوص من مئزر من هذا البلد، واسعًا، بلا أكمام وباليًا عند الثديين المتهدلين واللذين لم يزالا مكتظين وطليقين تحت الثوب كما يبدوان.

كنت قد قلت لك لا تشتره. مائتا فرنك ثمن هذا الحصان المشرف على الموت وهذه العربة التي لا تثبت واقفة.

قال جوزيف: ــ إن لم تغلقي فمك فسأرحل.

خرجت سوزان من تحت البيت الخشبي واقتربت بدورها من الحصان. كانت تلبس هي أيضا قبعة من القش خرجت منها عدة خصلات كستنائية اللون ضاربة إلى الحمرة. كانت حافية القدمين، شأن جوزيف وأمها، تلبس بنطالاً أسود يصل إلى فوق الركبتين وقميصًا أزرق بلا أكمام.

قالت سوزان: ــ إن ترحل، فأنت على صواب.

أجاب جوزيف: ــ لم أطلب رأيك.

ــ أنا أعطيك إياه.

انطلقت الأم نحو ابنتها وحاولت صفعها. تجنبتها سوزان ورجعت هاربة تحتمي بالظل، تحت البيت الخشبي. أخذت الأم تتأوه. بدا الحصان الآن كأن قائمتيه الخلفيتين شبه مشلولتين. لم يكن يتقدم. ترك جوزيف الرسن الذي كان يحاول أن يجره به وراح يدفعه من مؤخرته. تقدم الحصان بدفعه، وهو يترنح باستمرار، حتى المنحدر. وما إن وصل حتى دس منخريه في خضرة الأرض المزروعة. تجمد جوزيف وأمه وسوزان، وقد استداروا نحوه ملؤهم الأمل. ولكن لا. دس منخريه في خضرة الأرض المزروعة، مرة، وكذلك مرة

أخرى، ثم رفع رأسه قليلاً، وتركه يتدلى، جامدًا، ثقيلاً على طول رقبته الطويلة، وشفتاه الغليظتان تلامسان رأس العشب.

تردد جوزيف، ثم دار حول نفسه، وأشعل سيجارة وعاد نحو العربة. طوى السرج ووضعه على المقعد الأمامي، وجر العربة حتى البيت الخشبي.

اعتاد جوزيف أن يترك العربة بالقرب من السلم، أما ذاك المساء، فلقد صفها في الداخل بين أوتاد البناء الرئيسية.

ثم ظهر بعد ذلك كأنه يفكر فيما يستطيع أن يفعل. التفت مرة أخرى نحو الحصان، ثم توجه نحو العربة. بدا كأنه لمح حينئذٍ أخته التي عادت لتجلس تحت وتدها.

ــ ماذا تفعلين هنا؟

قالت سوزان: ــ الطقس حار.

ــ الطقس حار للجميع.

دخل إلى المستودع، وأخرج شوال الفحم وصب منه بعض الفحم في علبة من التنك. ثم ذهب ليعيد وضع الشوال في المستودع، ورجع إلى العلبة وراح يسحق الفحم بين أصابعه. استنشق الهواء وقال:

ــ إنها الغزلان التي تبعث رائحة كريهة، يجب رميها بعيدًا، لا أفهم كيف تستطيعين البقاء هناك.

ـــ إن رائحتها أقل سوءًا من رائحة فحمك.

نهض ثانية، وتوجه مرة أخرى نحو المستودع، وبيده علبة الفحم. ثم غير رأيه، ورجع إلى العربة وركل عجلاتها بضربة من قدمه. ثم صعد بعد ذلك، بخطى حازمة، سلم البيت الخشبي.

رجعت الأم إلى عملها في عزق العشب. كانت تلك المرة الثالثة التي تزرع فيها خيزرانًا أحمر على التلعة التي تحاذي السطح. كان الجفاف يقتلها بانتظام لكن الأم تصر على أن تزرع. كان العريف أمامها يقوم بحراسة التلعة بعد سقيها. كان يزداد صممًا يومًا بعد يوم وكانت الأم مضطرة أن تصرخ بشكل يزداد علوًا لتملي أوامرها عليه. قبل الجسر بمسافة قصيرة، كانت زوجة العريف وابنته تصطادان في أحد الخلجان. كانتا تجلسان القرفصاء منذ أكثر من ساعة في الوحل تصطادان السمك. منذ ثلاث سنوات وهم يأكلون السمك، دائما ذاته، ذاك السمك الذي تصطادانه كل مساء في المستنقع عينه والذي يقع قبل الجسر.

تحت البيت الخشبي كان الهدوء يعم نسبيًا. ترك جوزيف المستودع مفتوحًا فكان يصل هواء نضر متسم برائحة الغزلان. كان هناك أربعة غزلان وظبي. كان جوزيف قد قتل الظبي وأحد الغزلان قبل يومين والاثنتين الأخيرتين منذ ثلاثة أيام، واللتين لم يعد يقطر منهما قطرة دم. أما البقية فلقد كانت تقطر دماؤها قطرة تلو القطرة من أفكاكها المفتوحة. كثيرًا ما كان جوزيف يذهب إلى الصيد، أحيانًا

كل ليلتين. كانت أمه توبخه لأنه كان يهدر رصاصات لقتل غزلان ترمى في المستنقع في خلال ثلاثة أيام. لكن جوزيف لم يكن يقبل أن يعود من الغابة صفر اليدين. وكان الجميع يبدون كأنهم يأكلون الغزلان التي تعلق تحت البيت الخشبي وينتظر الجميع أن تفسد قبل أن ترمى في المستنقع.كانوا جميعًا يشمئزون من أكلها. يأكلون منذ فترة وهم أكثر رضا طيورًا ذات لحم داكن كان جوزيف يقتلها عند فوهة المستنقع، في الواحات المالحة التي تحيط بأرضهم من جهة البحر.

كانت سوزان تنتظر أن يأتي جوزيف إليها لتذهب للسباحة. لم تكن تريد أن تخرج الأولى من تحت البيت الخشبي. من الأفضل أن تنتظره. فحين تكون معه، ينخفض صراخ الأم.

نزل جوزيف.

ــ تعالي بسرعة. لن أنتظر.

صعدت سوزان وهي تركض لتلبس لباس السباحة. لم تكن قد انتهت من اللبس حين راحت أمها تصرخ وقد رأتها تصعد. لم تكن تصرخ ليسمعا جيدًا أشياء ودت أن يدركاها. كانت تصيح كأنها على خشبة مسرح وهي تقول أشياء لا معنى لها، أشياء لا علاقة لها بما يجري حينذاك. حين نزلت سوزان من البيت الخشبي وجدت جوزيف لا يأبه لصراخ أمه، يصارع من جديد الحصان. كان يضغط بكل

قواه على رأسه، محاولاً أن يدفن منخريه في البذار. كان الحصان لا يقاوم لكنه لا يمس العلف. لحقت سوزان بجوزيف.

ــ هيا، تعالَ.

ــ أظن أن الأمر قد انتهى، قال جوزيف ذلك بحزن، إنه سيموت.

تركه بأسف وذهبا معًا نحو الجسر الخشبي، في أعمق موضع من النهر.

ما إن رآه الأطفال يتجه نحو النهر حتى تركوا الساحة التي كانوا يلعبون فيها، وقفزوا في الماء خلفه. راح أول الواصلين يغوصون مثله، أما الآخرون فلقد استرسلوا في التدحرج في مجموعات في الزبد الرمادي. لقد اعتاد جوزيف أن يلعب معهم. كان يرفعهم على كتفيه، ويجعلهم يثبون، ويترك أحدهم أحيانًا يتعلق برقبته، وينزله هكذا وهو في نشوة، على طول مجرى الماء، حتى مشارف القرية، ما بعد الجسر. أما اليوم فلم تكن لديه رغبة في اللعب. راح في الحيز العميق والضيق يدور ويلتف حول نفسه، كسمكة في حوض. كان الحصان يبدو من الضفة، وكأنه أعلى من سطح الماء، ولا يقوم بأدنى حركة. على الأرض الحجرية، وتحت الشمس، بدا ذا مظهر مغلق على شيء ما.

قال جوزيف: ــ لا أدري ما به، لكنه سيموت، هذا أكيد.

غاص ثانية في الماء يتبعه الأطفال. لم تكن سوزان تسبح بمهارته. كانت تخرج من الماء من وقت إلى آخر، وتجلس على الضفة وتنظر إلى الحلبة التي تشرف من جهة على رام، ومن الجهة الأخرى على كام، وعلى بعد مسافة كبيرة، عن المدينة، التي هي أكبر مدينة في المستعمرة، والتي هي العاصمة، وتقع على بعد ثمانمائة كيلومتر من هنا. قد يأتي يوم تقف فيه أخيرًا سيارة أمام البيت الخشبي. قد ينزل منها. رجل أو امرأة لاستفسار أو لطلب مساعدة ما، من جوزيف أو منها. لم تكن ترى بوضوح ما نوع المعلومات التي قد يطلبونها منها. لم يكن في السهل سوى درب واحد سالك يذهب من رام إلى المدينة مارًا ببلدة كام. لا يمكن لأحد أن يضل الطريق. مع ذلك،لا يمكن توقع كل شيء، وكانت سوزان تأمل. قد يتوقف رجل ذات يوم، لمَ لا؟ لأنه ربما قد لمحها بالقرب من الجسر. من الممكن أن تروق له وأن يقترح عليها أن يصطحبها إلى المدينة. ولكن، إذا استثنينا سيارة النقل الكبيرة، نادرًا ما تمر سيارات على الدرب، ليس أكثر من سيارتين أو ثلاث طوال اليوم. كانت تلك السيارات هي ذاتها التي يملكها الصيادون الذين يذهبون حتى رام، التي تبعد ستين كيلومترًا من هناك، والذين يشاهَدون بعد عدة أيام وهم يمرون في الاتجاه المعاكس. كانت تلك السيارات تمر بسرعة قصوى وهي تطلق نفيرها بلا توقف لتبعد الأطفال عن الدرب. كان يُسمع نفيرها المصم للآذان والمدوي في الغابة فترة طويلة قبل ظهورهم في غيمة من الغبار. كان جوزيف ينتظر هو

أيضًا سيارةٍ قد تقف أمام البيت الخشبي. تقود تلك السيارة امرأة شقراء بلاتينية الشعر تدخن سجائر ٥٥٥ وتكون متبرجة. إنها تستطيع مثلاُ، أن تبدأ بأن تطلب منه أن يساعدها في إصلاح إطار سيارتها.

كانت الأم ترفع رأسها فوق الخيزران كل عشر دقائق تقريبًا، وتقوم بحركات باتجاههما وتصرخ.

لم تكن تقترب منهما ما داما معًا. كانت تكتفي بالصراخ. منذ انهيار السدود، لم تكن تستطيع إلى حد ما أن تقول شيئًا دون أن تشرع في الصراخ، بالنسبة إلى أي شيء كان. لم يكن ولداها في الماضي يأبهان بنوبات غضبها. لكن منذ انهيار السدود، كانت مريضة ومهددة بالموت، حسب رأي الطبيب. لقد ألمت بها ثلاث نوبات، وكانت الثلاث خطرة جدًا، في نظر الطبيب، وقد تؤدي إلى موتها. كان من الممكن تركها تصرخ قليلاً، ولكن ليس لمدة طويلة. قد يسبب الغضب نوبة لها.

لقد أرجع الطبيب أصل نوباتها إلى انهيار السدود. ربما كان مخطئًا. كل ذاك الحقد لم يكن يتراكم إلاَّ ببطء شديد، عامًا تلو العام، ويومًا تلو الآخر. لم يكن هناك سبب واحد. كان هناك ألف سبب، بما فيها انهيار السدود، وظلم العالم، ومنظر أطفالها يسبحون في النهر...

إلاّ أن الأم قد بدأت حياتها بشكل يغاير ما انتهت إليه من البؤس ومن التعاسة، حتى إن الطبيب كان يستطيع أن يتحدث الآن عما يسبب موتها، الموت من البؤس.

كانت ابنة فلاحين، وكانت طالبة نجيبة حتى إن والديها قد تركاها تتابع دراستها حتى الكفاءة العليا. أصبحت بعد ذلك معلمة طوال عامين، في قرية في شمال فرنسا. كان ذلك عام ١٨٩٩. في بعض أيام الآحاد، في دار العمدة، كانت تحلم أمام لوحات المستعمرات الإعلانية. "تطوعوا في الجيش الاستعماري"، "أيها الشباب، اذهبوا إلى المستعمرات، فالثروة تنتظركم هناك." في ظل شجرة موز تنحني تحت ثمارها، كان الزوجان اللذان يعيشان في المستعمرات، وقد اتشحا بالثياب البيضاء، يتأرجحان على كراس هزازة في حين كان المواطنون الأصليون منهمكين في أعمالهم وهم يبتسمون. تزوجت من معلم كان مثلها، يحتضر من نفاد صبره في قرية في الشمال؛ وهو ضحية مثلها لمؤلفات بيير لوتي القاتمة. بعد زواجهما بفترة قصيرة، تقدما معًا بطلب لقبولهما في مجال التعليم في المستعمرات وعينا في تلك المستعمرة الكبيرة التي كانت تدعى حينذاك بالهند الصينية الفرنسية.

ولد سوزان وجوزيف في العامين الأولين لوصولهما إلى المستعمرة. بعد ولادة سوزان، تركت الأم التدريس الرسمي. لم تعد تعطي إلاّ دروسًا خاصة باللغة الفرنسية. كان زوجها قد عُين مديرًا لمدرسة لأهل البلد الأصليين، وعلى حد قولها، كانوا يعيشون

ببحبوحة كبيرة بالرغم من مصاريف طفليهما. كانت تلك الأعوام بلا شك أفضل سنين حياتها، سنوات السعادة. هذا ما كانت تقوله على الأقل. كانت تتذكر ذلك شأن أرض بعيدة يحلم بها المرء، أو جزيرة. راح حديثها عن تلك الأعوام يتضاءل مع تقدمها في السن، لكنها حين كانت تتحدث عنها كان حديثها دائمًا مفعمًا بالحماس. حينئذ كانت تكشف لهما في كل مرة تحسينات جديدة تضيفها إلى ذاك الكمال، كميزة جديدة لزوجها، أو مظهرًا جديدًا للبحبوحة التي كانا يعرفانها حينذاك، والتي بدأت تتحول إلى ثراء كان جوزيف وسوزان يشكان قليلاً بوجوده.

حين مات زوجها، كان كل من سوزان وجوزيف صغيرين جدًا. أما الفترة التي تلت موته فلم تكن تتحدث عنها طوعًا. كانت تقول إنها فترة عصيبة، وما زالت تتساءل كيف استطاعت الخروج منها. طوال عامين، تابعت إعطاء الدروس في اللغة الفرنسية. وبما أن تلك الدروس لم تعد تكفي راحت تعطي دروسًا في الفرنسية ودروسًا في البيانو. ثم لم تعد كل تلك الدروس تكفي لأن الطفلين كانا يكبران لذا التحقت بالعمل في سينما ــ عدن كعازفة على البيانو. بقيت في ذاك العمل عشر سنوات. استطاعت في نهاية السنوات العشر أن تدخر بعض المال الذي يكفي لتقدم طلبًا لشراء قطعة أرض من الإدارة العامة لسجل المساحة في المستعمرة.

إن ترملها، وانتماءها السابق إلى أعضاء هيئة التدريس ومسئولية رعاية طفليها، كل ذلك أعطاها حق الأولوية في الحصول

على الأرض. لكنها بالرغم من ذلك اضطرت إلى الانتظار عامين قبل أن تحصل عليها.

كان قد مضى ستة أعوام على وصولها إلى السهل، بصحبة جوزيف وسوزان، في تلك السيارة (ستروين ب ١٢) التي مازالت لديهم .

منذ العام الأول زرعت نصف الأرض. كانت تأمل أن يغطي أول محصول جزءًا كبيرًا من تكلفة بناء البيت الخشبي. لكن مد تموز حاصر السهل وأغرق المحصول. عاودت الأم الكرة العام التالي، ظنًا منها أنها كانت ضحية مد قوي بشكل خاص، وبالرغم من محاولات الناس في السهل إقناعها أن تعدل عن الزراعة،عاودت الأم الكرة العام التالي. ارتفعت مياه البحر ثانية. حينئذ أدركت الواقع: إن أرضها لا تصلح للزراعة. كان البحر يغمرها سنويًا. صحيح أن البحر لم يكن يعلو بالارتفاع ذاته كل سنة، لكنه كان دائمًا يعلو ما يكفي ليحرق كل شيء، مباشرة أو بالتسرب. ما عدا الهكتارات الخمسة التي تشرف على الساحة، والتي بنت وسطها بيتها الخشبي، لقد رمت مدخراتها طوال عشر سنوات في أمواج الباسيفيك.

لقد أتى شقاؤها من سذاجتها التي لا تصدق. ذلك أن السنوات العشر التي أمضتها، في تفانٍ تام، وهي تعزف على البيانو في سينما_ عدن، وقد حمتها من ضربات جديدة من القدر ومن الناس، مقابل مرتب هزيل، جعلتها تلك السنون في مأمن من النضال ومن

تجارب الظلم الكثيرة. خرجت من ذاك النفق الذي امتد عشر سنوات كما دخلت إليه، نقية، وحيدة، بمنأىً عن كل تآلف لقوى الشر، تجهل إلى حد يدعو إلى اليأس مص الدماء الاستعماري الذي لم يتوقف عن الإحاطة بها. لم تكن الأراضي الصالحة للزراعة تُباع بشكل عام إلا بضعف قيمتها. كان نصف المبلغ يذهب خلسة إلى موظفي المساحة المسؤولين عن توزيع الأراضي المقسمة بين طالبيها. كان هؤلاء الموظفون يمسكون بأيديهم سوق الأراضي كافة وراحوا يزدادون جشعًا. حتى إن الأم، وهي غير قادرة على تلبية النهم المفترس، لهؤلاء الذين لم يكن يدخل في اعتبارهم أية حالة خاصة، وحتى وإن كانت قد أُعلمت مسبقًا بذلك، أو أرادت أن تتجنب شراء أرض لا تصلح للزراعة،وجب عليها أن تعدل عن شراء أية قطعة أرض على الإطلاق.

حين أدركت الأم كل ذلك متأخرة قليلاً، ذهبت لتقابل في كام موظفي المساحة الذين كانوا مسئولين عن تقسيم أراضي السهل. كانت قد بقيت ساذجة لدرجة أنها راحت تشتمهم وتهددهم برفع شكوى إلى السلطات العليا. قالوا لها إنهم لا علاقة لهم بذاك الخطأ. لاشك أن المسئول عن التخصيص كان الموظف السابق الذي رحل منذ ذاك الحين إلى العاصمة. لكن الأم عاودت الكرة بمثابرة كبيرة مما اضطر الموظفين إلى تهديدها، كي يتخلصوا منها. وإذا استمرت في إزعاجهم فإنهم سيستردون قطعة الأرض قبل المهلة المحددة.

كانت تلك الحجة هي الأكثر جدوى ليسكتوا بها ضحاياهم لأن الضحايا كانت بالطبع تفضل دائمًا أن تملك قطعة أرض وإن كانت وهمية على ألا تحصل على شيء. لم تكن تُعطى قطع الأرض مطلقًا إلاّ مقيدة بشروط. إذا انقضت المهلة المعطاة، ولم تزرع الأرض بكاملها، فلسجل المساحة الحق في أن يسترجعها. لم تُعطَ إذن،أية قطعة أرض من السهل بصفة نهائية. كانت تلك الأراضي لسجل المساحة والتي تُعطي تمكنه بسهولة من جني ربح كبير من الأراضي الأخرى الصالحة للزراعة. وبما أنه قد ترك لموظفي المساحة اختيار التخصيص، فلقد حرص هؤلاء على الاحتفاظ بتوزيع، بما يتفق مع مصالحهم، أراض ذات مساحات كبيرة لا تصلح للزراعة والتي تخصص بانتظام وتسترجع بانتظام لا يقل عن سابقه، وتشكل تلك الأراضي، على هذا النحو، رأسمالهم المنتظم.

فعلى الخمس عشرة أرضًا في سهل كام، كانوا قد سمحوا بإقامة ما يقارب مئة أسرة ثم تسببوا في إفلاسها، وطردها، وإعادة إقامتها، ثم هدمها من جديد وطردها ثانية. والمالكين الوحيدين الذين بقوا في السهل كانوا يعيشون هناك من تهريب الخمور أو الأفيون وكان عليهم أن يشتروا ثمن تواطئهم بدفع حصة من مواردهم ، "غير الشرعية "، على حد قول موظفي المساحة.

إن غضب الأم العادل لم يجنبها، بعد سنتين من وصولها، أول تفتيش لموظفي المساحة. كانت تلك الزيارات التفتيشية الشكلية تمامًا

تقتصر على زيارة المالكين الذين كان يتم تذكيرهم بأن المهلة الأولى قد انقضت.

وكان المالك يتوسل قائلاً: ــ لا يمكن لأحد في العالم أن يُنبِت أي شيء على تلك الأرض...

وكان الموظف يجيب بقوله: ــ إنه من المستغرب، أن تكون حكومتنا العليا قد خصصت أرضًا لا تصلح للزراعة.

إن الأم التي بدأت تدرك بوضوح أكبر أسرار الأرض، قد سجلت حق الملكية للبيت الخشبي. لم يكن بناء البيت قد انتهى لكنه كان يمثّل مع ذلك، وبلا جدال، بداية تقييم أدت إلى مهلة أطول. ورضخ موظفو المساحة. وأصبح أمامها سنة إضافية. في تلك السنة، الثالثة منذ وصولها، ارتأت أنه من غير المفيد أن تجدد تجربتها وتركت مطلق الحرية للمحيط الباسيفيكي. حتى ولو أرادت العكس لما وجدت الوسائل اللازمة ثانية. لكي تنهي بناء البيت، كانت قد تقدمت بطلب قرض أو بطلبين من مصارف المستعمرة. لكن المصارف لا تتصرف إلاّ بعد أن تستشير سجل المساحة. وإذا استطاعت الأم أن تقترض بعض المال فإن ذلك لم يتم إلاّ بعد أن رهنت البيت الخشبي الذي لم ينته ولتنهي بناءه اضطرت إلى الاستدانة. كانت تملك ذاك البيت ملكية تامة وكانت تغبط نفسها يوميًا لأنها سعت إلى بنائه. كانت كلما زادت فاقتها، كبر، على العكس، البيت الخشبي في نظرها وزادت قيمته ومتانته.

بعد التفتيش الأول جاء تفتيش آخر. حدث ذلك تلك السنة، في الأسبوع الذي تلا انهيار السدود. لكن جوزيف كان في عمر يسمح له بالتدخل في الأمر. أصبح استعمال البندقية مألوفًا لديه. وضع فوهة بندقيته تحت أنف موظف المساحة الذي لم يلح ورجع من حيث أتى بسيارته الصغيرة التي كان يستعملها في جولاته ، منذ ذاك الحين، اطمأنت الأم إلى حد ما، من تلك الجهة.

إن المهلة التي حصلت عليها الأم بفضل بيتها الخشبي قد أعطتها قوة، مما دفعها إلى أن تطلع موظفي بلدة كام على مشاريعها الجديدة. كانت تقتصر تلك المشاريع على أن تطلب من الفلاحين الذين يعيشون في فقر مدقع في الأراضي المجاورة لأرضها، بالاشتراك معها، أن يساعدوها في بناء سدود للحماية من البحر. ستكون تلك السدود مفيدة للجميع. ستحاذي الباسيفيك وتعلو حتى حد أمواج المد في شهر تموز. إن الموظفين وقد فوجئوا، وجدوا هذا المشروع خياليًا بعض الشيء، لكنهم لم يعارضوه. إن بإمكانها دائمًا أن تكتبه وترسله إليهم. لقد ادعوا أن تجفيف السهل لا يمكن أن يكون مبدئيًا، إلاَّ مخططًا حكوميًا، ولكن ليس هناك أي قانون، وفق معرفتهم، يمنع مالكًا من أن يقيم سدودًا على أرضه الخاصة. شريطة أن يعلمهم مسبقًا بذلك طبعًا وأن يحصل على موافقة دائرة الخدمات المحلية للمساحة. أرسلت الأم مشروعها بعد أن أمضت لياليَ في تحريره، ثم انتظرت تلك الموافقة. لقد انتظرت طويلاً جدًا دون أن تيأس، ذلك أنها قد اعتادت على هذا النوع من الانتظارات. لقد كانت،

تلك الانتظارات وحدها، الروابط الغامضة التي تربطها بقدرات العالم التي كانت تابعة لها جسديًا وروحيا، وبكل ما تملك، وبالمساحة وبالمصرف. وبعد أن انتظرت أسابيع، قررت أن تذهب إلى كام. أكد لها موظفو المساحة أنهم قد تسلموا مشروعها. وإذا لم يجيبوا عنها فلأن تجفيف أرضها لا يهمهم بالطبع. مع ذلك فإنهم يعطونها الموافقة الضمنية لتقيم سدودها. رحلت الأم، فخورة بتلك النتيجة.

كان عليهم دعم السدود بقطع خشب مستديرة من أشجار الشورى. كانت تقع عليها وحدها بالطبع تلك التكاليف. وكانت حينذاك قد رهنت البيت الخشبي الذي لم ينته بعد وصرفت كل ما قبضت من مال أخذته رهينة في شراء قطع الخشب المستديرة لذا لم يتم قط إنهاء البيت الخشبي.

لم يخطئ الطبيب كثيرًا. يمكن الاعتقاد أن كل شيء قد بدأ فعلاً انطلاقًا من ذلك. من يستطيع ألاَّ يتأثر، وقد سيطر عليه حزن عظيم، وغضب كبير، بالفعل من مشهد تلك السدود التي بناها، بحب، مئات الفلاحين الذين كانوا يعيشون في السهل وقد أيقظهم من سباتهم الألفي رجاء مباغت وجنوني، والتي انهارت كقصر من الورق، بشكل مسرحي، وفي ليلة واحدة، من الاقتحام البدائي والشرس لأمواج الباسيفيك؟ من ذا الذي يسعى كي يفسر كل شيء ويهمل دراسة ولادة ذلك الأمل المجنون، ابتداءً من البؤس الدائم للسهل عامة، وصولاً إلى نوبات الأم، مرورًا بتلك الليلة المشئومة ويكتفي بتفسير مختصر لكنه مغرٍ بأن ذلك مصدره كارثة طبيعية.

كان جوزيف يرغم سوزان دائمًا على الغوص في الماء. كان يود أن تجيد السباحة كي تسبح معه في البحر، في رام. أما سوزان فلقد كانت متحفظة. وقد يحدث أحيانا، وخصوصًا في موسم الأمطار، حين تكون الغابة قد انغمرت بالمياه في ليلة واحدة، أن يكون ثمة سنجاب، أو فأر من فئران المسك، أو طاووس، تنحدر كلها وقد غرقت، على طول مجرى المياه، وكانت تلك اللقاءات تثير في نفسها القرف والاشمئزاز.[١]

بما أن الأم لم تكن تكف قط عن الصراخ والأنين، قرر جوزيف أن يخرج من الماء. تركت سوزان مراقبة السيارات وتبعته.

قال جوزيف: ــ اللعنة، غدًا سنذهب إلى رام.

رفع رأسه باتجاه الأم.

صرخ قائلاً: ــ إننا آتون، لا تصرخي هكذا.

توقف عن التفكير بحصانه لأنه كان يفكر بأمه. استعجل في الوصول إليها. كانت محمرة الوجه باكية، كانت على تلك الحال منذ مرضها. تابعت التأوه والأنين.

قالت سوزان: ــ من الأفضل لك أن تأخذي حبات دوائك، بدلاً من أن تصرخي هكذا.

كانت الأم تصرخ قائلة: ــ أي جرم ارتكبت بحق السماء، لتمنحني أولادًا سفهاء على شاكلتكم؟

مر جوزيف أمامها، وصعد إلى البيت الخشبي ثم نزل ثانية ومعه قدح ماء والدواء. وكما تفعل دائمًا، ابتدأت برفضها. وكما الأمر دائمًا، انتهت بتناوله. لقد وجب عليهما، كل مساء بعد السباحة، أن يعطياها حبة لتهدئها. لأن ما كانت لا تطيق تحمله هو رؤيتهما يلهوان متناسيين الحياة التي يعيشانها في السهل. كانت سوزان تقول: "لقد أصبحت أمها فاسقة". ولم يكن جوزيف يستطيع أن يقول عكس ذلك.

ذهبت سوزان تغتسل في الحمام الصغير بماء مصفى من الجرار ولبست ثيابها. أما جوزيف، فلم يكن يغتسل لكنه بقي بملابس السباحة حتى صباح اليوم التالي. حين خرجت سوزان من الحمام، كانت آلة الفونوغراف تصدح في الشرفة، حيث تمدد جوزيف على كرسي طويل، لم يعد يفكر بالأم، ولكنه فكر ثانية بحصانه وكان ينظر إليه بقرف.

قال جوزيف: ــ لم يحالفني الحظ.

ــ إذا بعت الفونوغراف، تستطيع أن تشتري ثانية بثمنه حصانًا جميلاً وتقوم بالسفر ثلاث مرات يوميًا بدلاً من مرة واحدة.

ــ إذا بعت الفونوغراف، فسأرحل بعيدًا وسريعًا.

كان الفونوغراف يشغل حيزًا كبيرًا في حياة جوزيف. كان لديه خمس أسطوانات يسمعها كل مساء بانتظام، بعد السباحة. وقد يحدث أحيانًا، حين كان يسأم منها، أن يعيد تشغيلها الواحدة تلو

الأخرى، دون توقف، جزء طويل من الليل إلى أن تنهض الأم مرتين أو ثلاثًا وتأتي مهددة برمي الفونوغراف في النهر. أحضرت سوزان مقعدًا وأتت لتجلس بالقرب من أخيها.

ــ إذا بعت الفونوغراف واشتريت حصانًا، ففي خمسة عشر يومًا تستطيع أن تشتري ثانية فونوغرافًا جديدًا.

ــ خمسة عشر يومًا بلا فونوغراف وأرحل من هنا.

عدلت سوزان عن الحديث.

كانت الأم تُحَضِر العشاء في غرفة الطعام. وكانت قد أشعلت مصباح غاز الأسيتيلين.

حقًا كان الليل يحل سريعًا جدًا في ذاك البلد. ما إن تختفي الشمس خلف الجبل حتى يشعل الفلاحون نيران الخشب الأخضر ليحتموا من الوحوش وكان الأطفال يعودون إلى الأكواخ صائحين بلا انقطاع. ما إن يبلغ الأطفال سن الفهم، حتى يعلموهم أن يحذروا من الليل الرهيب في المستنقعات والحامل للملاريا وكذلك من الوحوش الكاسرة. إلاَّ أن النمور كانت أقل جوعًا من الأطفال الذين كانوا يأكلون قليلاً جدًا. وبالفعل إن ما كان يسبب موت الأطفال في السهل المستنقعي لبلدة كام، الذي يحيط به بحر الصين من جهة ــ (وكانت الأم تتشبث في أن تسميه الباسيفيك، لأن " بحر الصين " لم يكن في نظرها إلاَّ شيئًا ريفيًا، ولأنها حين كانت شابة كانت تُحمِّل المحيط الباسيفيكي أحلامها، وليس لأي بحر من البحار الصغيرة التي تُعقِّد

الأشياء بدون جدوى ــ وتشكل حاجزًا من جهة الشرق بواسطة سلسلة الجبال الطويلة جدًا والتي تحاذي الشاطئ من أقصى العلو في القارة الأسيوية، والتي تتبع منحنى ينحدر حتى خليج سيام حيث تغرق ثم تظهر ثانية في جزر كثيرة تزداد صغرًا، لكن كل تلك الجزر قد انتفخت بالغابة الاستوائية الداكنة ذاتها)، إن ما كان يسبب موت الأطفال لم يكن نمورًا لكنه كان الجوع، والأمراض الناجمة عنه، ومغامرات الجوع. كان الطريق يقطع السهل الضيق في كل طوله. لقد أنشئ ذاك الطريق مبدئيًا لتُصَرِف ثروات السهل المستقبلية حتى رام، لكن السهل كان في منتهى البؤس حتى إن ثروته الوحيدة كانت في أطفاله ذوي الأفواه الوردية المفتوحة دائمًا من جوعها. إذن لم يكن الطريق يجدي إلاَّ للصيادين، الذين يقتصرون على المرور عليه، وكذلك للأطفال، الذين كانوا يجتمعون عليه أسرابًا جائعة تلعب: لم يكن الجوع يمنع الأطفال من اللعب.

أعلن جوزيف فجأة: ــ سأرحل في هذه الليلة.

كفت الأم عن الحركة بالقرب من الموقد وأتت تقف منتصبة أمامه

ــ لن تذهب، أنا التي أقول لك إنك لن تذهب.

قال جوزيف: ــ إنني راحل، لا مجال لإقناعي، سأرحل.

حين كان جوزيف يبقى طويلاً جدًا على الشرفة، أمام الغابة، لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبته في الصيد.

قالت سوزان: ــ خذني معك، يا جوزيف، خذني معك.

راحت الأم تصرخ.

ــ لا آخذ امرأة لصيد ليلي، وأنت إذا صرختِ، فسأرحل فورًا.

ذهب يحبس نفسه في غرفته ليعد بندقيته التي هي من طراز Mauser وكذلك رصاصاته. رجعت الأم، وهي تئن، إلى غرفة الطعام واستمرت في إعداد الطعام. لم تبتعد سوزان عن الشرفة. في الأمسيات التي كان يصطاد فيها كانتا تنامان متأخرتين. كانت الأم تستفيد من ذلك " لتعمل حساباتها " كما كانت تقول. ويتساءل المرء أية حسابات. إلاّ أنها، خلال تلك الليالي، على كل حال، لم تكن تنام. بين الفينة والفينة كانت تترك حساباتها، وتذهب إلى الشرفة لتسمع ضجيجًا، وتحاول أن ترى عن بعد هالة مصباح جوزيف. ثم تعود إلى حساباتها، "حساب المعتوهة"، على حد قول جوزيف.

قالت الأم: ــ هيا إلى المائدة.

كان لا يزال هناك طبق من لحم الطيور مع الأرز. أحضرت امرأة العريف بعض السمكات المشوية إلى فوق.

قالت الأم: ــ أمامنا ليلة أخرى بلا نوم.

بدت أكثر شحوبًا تحت نور المصباح الفوسفوري. أخذت حبات الأدوية تحدث تأثيرها. تثاءبت الأم.

قال جوزيف بلطف: ـــ لا تقلقي يا أمي، سأعود باكرًا.

ـــ إنني أخاف عليكما، حين أخاف أن تنتابني أزمة.

نهضت، وذهبت تأخذ من خزانة الأواني علبة زبدة مالحة وعلبة حليب مكثف وضعتهما أمام ولديها. صبت سوزان على صحن الأرز كمية كبيرة من الحليب المكثف. أما الأم فقد دهنت بالزبد بعض قطع الخبز وغطستها في كأس القهوة السوداء. أكل جوزيف من لحم الطيور المائية. كان لحمًا جميلاً قاتم اللون مخضبًا بالدماء.

قال جوزيف: ـــ رائحة السمك النتنة تعم البيت، لكنه مغذ.

قالت الأم: ـــ هذا ما يلزم. يا جوزيف، كن حذرًا.

حين كان الأمر يتعلق بإطعامهما كالطيور كانت دائمًا لطيفة معهما.

ـــ لا تقلقي، سأكون حذرًا.

قالت سوزان: ـــ إذن، لن نذهب هذا المساء إلى رام.

قال جوزيف: ـــ سنذهب غدًا، ولن تجدي في رام ما تبغين، إنهم كلهم متزوجون، هناك أكوستي.

قالت الأم:ـــ لن أعطيها مطلقًا إلى أكوستي حتى إذا رجاني بإلحاح.

قالت سوزان: ــ إنه لا يطلب منك شيئًا، حتى يتحقق الأمر لن نجد هنا غايتنا.

قالت الأم: ــ هذا جل ما يبتغيه، إنني أعرف ما أقول، لكن آماله ستخيب.

قال جوزيف: ــ إنه لا يفكر فيها إطلاقًا. سيكون الأمر عسيرًا. هناك من يتزوجن بلا مال، لكن يجب أن يكنّ جميلات جدًا، وحتى إذا كن جميلات فذلك نادر.

قالت سوزان: ربثما يتحقق الأمر، إن ما أقوله بخصوص رام، ليس من أجل ذلك وحده، في رام حركة يوم البريد، فيها كهرباء وهناك فونوغراف رائع في المطعم الشعبي.

قال جوزيف: ــ كفي عن إزعاجنا برام.

وضعت الأم أمامهما الخبز المصنوع من الأرز الذي كانت تأتي به من كام سيارة النقل الكبيرة كل ثلاثة أيام. ثم راحت تفك ضفيرة شعرها. كان شعرها يطقطق، بين أصابعها المهترئة مثل العشب اليابس. كانت قد انتهت من الأكل وراحت تنظر إلى ولديها. حين كانا يأكلان، كانت تجلس أمامهما وتتابع كل حركاتهما. كانت تود أن تكون سوزان أطول مما هي الآن وكذلك جوزيف. كانت تظن أن ذلك ما زال ممكنًا. لكن جوزيف قد بلغ العشرين وكان أطول منها بكثير.

قالت لسوزان: ـــ خذي من لحم الطيور المائية، إن هذا الحليب المكثف لا يغذيك.

قال جوزيف: ـــ ثم إنه يفسد الأسنان. إن هذا الحليب قد أفسد أسناني الداخلية كافة. كما إنه ما زال يتابع إفسادها بهدوء.

قالت الأم: ـــ حين سنحصل على المال، سنغير لك أسنانك الخربة. خذي من لحم الطيور المائية يا سوزان.

أخذت سوزان قطعة صغيرة من لحم الطيور المائية. كان ذلك يثير غثيانها وراحت تأكل بلقم صغيرة.

كان جوزيف قد انتهى من الطعام وشرع يملأ مصباح صيده. سخّنت أمه له كأسًا من القهوة وهي تتابع ضفر شعرها. ما إن امتلأ المصباح حتى أشعله جوزيف ووضعه على قبعته التي يلبسها. خرج بعد ذلك إلى الشرفة ليتحقق من زاوية رؤيته. يبدو أنه نسي حصانه، للمرة الأولى من السهرة. لكنه في تلك اللحظة لمحه من جديد، في حقل رؤية مصباح الأسيتيلين.

صرخ جوزيف: ـــ اللعنة، يا لها من مصيبة، لقد مات.

ركضت الأم وسوزان نحو جوزيف. حول ضوء المصباح، رأتا هما أيضًا الحصان. لقد استلقى في نهاية الأمر على طوله. كان رأسه يخرج من فوق الكومة ومنخراه، قد غاصا في البذار الغض، يلامسان المياه الرمادية.

قالت الأم: ــ هذا فظيع.

رفعت يدها إلى جبينها في حركة مرهقة وبقيت جامدة بالقرب من جوزيف.

قالت أخيرًا: ــ عليك أن تذهب لترى عن قرب إن كان حقًا قد مات.

نزل جوزيف السلم ببطء وتوجه نحو التلّعة يتقدمه ضوء مصباحه المثبت على جبينه. قبل أن يصل إلى الحصان، كانت سوزان قد عادت إلى البيت الخشبي، وأخذت مكانها ثانية إلى المائدة وحاولت أن تنهي قطعة لحم الطيور المائية التي كانت تأكلها. لكن ما تبقى لها من شهية قد اختفى. عدلت عن الطعام ورجعت إلى غرفة الاستقبال. هناك، تكورت على أريكة من الخيزران وأدارت ظهرها عن اتجاه الحصان.

قالت الأم بتأوه: ــ مسكين ذلك الحيوان، من يصدق أنه قطع المسافة اليوم بالذات، منذ بلدة بانتيه.

كانت سوزان تسمعها تشكو دون أن تراها. لابد أنها كانت على الشرفة تتبع جوزيف بعينيها. في الأسبوع الماضي توفي طفل في الكوخ الذي يقع خلف البيت الخشبي. لقد سهرت الأم بجانبه طوال الليل وحين مات، صباحًا، راحت تئن كما تفعل اليوم.

صرخت الأم: يا للمصيبة! إذن، كيف حاله يا جوزيف؟

– إنه ما زال يتنفس.

عادت الأم إلى غرفة الطعام.

ـــ ماذا يمكن أن نفعل؟ يا سوزان، هيا احضري من السيارة الغطاء القديم ذي المربعات.

نزلت سوزان تحت البيت الخشبي وهي تتجنب أن تنظر في اتجاه الحصان. أخذت الغطاء الموضوع على المقعد الخلفي للسيارة التي من طرازB.12 ثم صعدت به ومدته إلى الأم. نزلت الأخيرة لتلاقي جوزيف وبعد عدة دقائق صعدت ثانية معه.

قالت: ـــ يا للهول، لقد نظر إلينا.

قالت سوزان: ـــ كفى مع هذا الحصان، غدًا سنذهب إلى رام.

قالت الأم: ـــ ماذا؟

قالت سوزان: ـــ إن جوزيف هو الذي قال ذلك.

كان جوزيف يلبس نعليه الخفيفتين. ذهب، غاضبًا. ابتدأت الأم برفع الأطباق عن المائدة ثم جلست لحساباتها. "حسابات المعتوهة" على حد قول جوزيف.

حين كانوا يذهبون إلى رام كانت الأم ترفع ضفيرتها وتنتعل حذاءً. لكنها تحتفظ بثوبها القطني الرماني اللون، الذي لا تفارقه

مطلقًا إلاّ للنوم. وحين تغسله، تستلقي وتنام حتى يجف الثوب. كانت سوزان تنتعل هي أيضًا حذاءً للرقص مصنوعًا من الأطلس الأسود الذي كانت قد وجدته في المدينة إبان بيع التصفية. لكنها كانت تغير ملابسها لتلك المناسبة، فتخلع بنطالها الماليزي وتلبس ثوبًا.أما جوزيف، فكان يبقى، على عادته، في أغلب الأحيان لا يكلف نفسه عناء لبس حذاء. أما يوم البريد في سيام، فإنه ينتعل خفين ليستطيع أن يرقص مع المسافرات.

عندما وصلوا إلى مطعم رام الشعبي، رأوا سيارة رائعة من طراز ليموزين، بسبعة أماكن، سوداء اللون، تقف في الباحة. كان في داخلها سائق، ببزة السوق الرسمية، ينتظر بصبر. لم يكن أحد قد رآها بعد. لم تكن سيارة صياد. فالصيادون لا يملكون سيارة ليموزين بل طوربيدو مكشوفة. قفز جوزيف من سيارتهم التي من طراز B.12. اقترب، وببطء، قام بدورتين حول السيارة. ثم استقر أمام المحرك وفحصه مطولاً تحت نظرة السائق المندهشة. قال جوزيف: " تالبو أو ليون بوليه " وبما أنه لم يستطع أن يحدد ماركة السيارة، فلقد قرر أن يصعد إلى مشرب المطعم مع سوزان وأمه.

كان هناك موظفو البريد الثلاثة، وبعض موظفي البحرية الجالسين إلى طاولة مع المسافرات، والشاب أكوستي الذي لم يكن يفوت يومًا من وصول البريد، وأخيرًا، جلس شاب وحده أمام طاولة، بلا أمل، يفترض أنه صاحب سيارة الليموزين.

نهض الأب بارت، وابتعد ببطء عن خزينته واتجه نحو الأم. منذ عشرين عامًا وهو مسؤول عن مطعم رام الشعبي. ولم يفارقه البتة. لقد شاخ فيه وسمن. إنه الآن رجل في الخمسين من العمر، معرض للسكتة الدماغية وضخم وتفوح منه رائحة الخمر. قبل عدة سنوات، تبنى الأب بارت طفلاً من السهل كان يقوم مكانه بأعباء خدمة المطعم بكاملها، وفي أوقات فراغه يُروِح له وراء المشرب، حيث كان ينسحب ليسترخي من السكر في جمود أقرب إلى جمود بوذا. بعد عدة ساعات من رؤيته، كان الأب بارت يقطر عرقًا وهو يشرب الخمر وبالقرب منه زجاجته. ولم يكن يتحرك من مكانه إلاّ ليستقبل زبائنه. لم يكن يفعل شيئًا أخر. بل كان يتجه نحوهم ببطء يماثل بطء وحش مائي خرج من الماء، يكاد لا يرفع قدميه عن الأرض لأن كرشه الضخم يضايقه، كأنه برميل من كحول الأبسنت. لم يكن يكتفي بشرب الخمر بل كان يعيش من تهريبها أيضًا ، ولقد أثرى من ذلك. كانوا يأتون من بعيد جدًا ليشتروا منه، بدءًا من مزارع الشمال. لم يكن له أولاد، ولا أسرة، لكنه كان يحرص على ماله حرصًا شديدًا حتى إنه لم يكن يقبل أن يقرض أحدًا قط، وإذا قبل فبفوائد عالية جدًا يُعتبر قبولها جنونًا أو مكرًا ودهاءً . وهذا ما كان يتمناه، لاقتناعه أن المال الذي يتم إقراضه في السهل هو مال ضائع. مع ذلك فلقد كان الرجل الأبيض الوحيد في السهل الذي يمكن أن يقال عنه إنه يحب السهل. صحيح أنه وجد فيه وسيلة للعيش ومبررًا

للحياة ألا وهو خمر (البرنو). كانوا يقولون عنه إنه طيب لأنه تبنى طفلاً. وإذا كان الولد يروّح له، فلقد كانوا يقولون على كل حال لقد كان قيام الولد بالتهوية له أفضل من أن يحرس الجَواميس تحت شمس السهل. كان ذلك العمل الكريم، والسمعة التي استحقها من جراء ذلك، تؤمنان له راحة بال تامة في نشاطه كمهرب. ولقد ساهمتا بلا شك مساهمة كبرى في أن تمنحه سلطات المستعمرة العليا وسام الشرف، لأنه حرص حرصًا مستمرًا طوال عشرين عامًا، على هيبة الفرنسيين، في مطعم رام الشعبي والذي يُعتَبَر "موقعًا نائيًا".

سأل الأب بارت الأم وهو يصافحها: ــ كيف حال الأعمال؟

قالت الأم دون تأكيد: ــ الأمور حسنة، الأمور حسنة.

قال جوزيف:ــ لديك زبائن رفيعو المقام، تبًا، وتلك الليموزين...

ــ إنها لرجل من الشمال يعمل في الكاوتشوك، إن ثراءه يفوق كثيرًا ثراء الأغنياء هنا.

قالت الأم:ــ لا مجال للشكوى لديك، ثلاث مرات يأتي البريد أسبوعيًا، ذلك أمر رائع. وهناك خمر البرنو.

ــ هناك أخطار، كل أسبوع، يعيدون الآن ما اشتروه، هناك أخطار، كل أسبوع كأننا في حلبة صراع الثيران.

قالت الأم: ـــ أرنا هذا الزارع الآتي من الشمال.

ـ إنه الشخص الذي يجلس بالقرب من أكوستي، في الزاوية. إنه عائد من باريس.

كانوا قد رأوه بالقرب من أكوستي، وحده على الطاولة، شابًا في الخامسة والعشرين من العمر على ما يبدو، يلبس بزة من الحرير الهندي الخشن. كان قد وضع على الطاولة قبعة من القماش عينه. حين شرب جرعة من البرنو رأوا في إصبعه خاتمًا بماسة واحدة رائعة، راحت الأم تنظر إليها بصمت، مندهشة.

قال جوزيف: ـــ اللعنة، ما أروع السيارة. ثم أضاف: أما ما تبقى، فهو قرد.

كانت الماسة ضخمة، أما البزة المصنوعة من الحرير الخشن فقد قصت بشكل ممتاز. لم يلبس قط جوزيف ثيابًا من ذاك الحرير. بدت القبعة اللينة كأنها تخرج من فيلم سينمائي؛ كانت قبعة توضع على الرأس بإهمال قبل أن يصعد صاحبها إلى سيارته التي تبلغ قوتها الأربعين حصاناً ويذهب إلى مدينة لونشان يغامر بنصف ثروته لأنه مكتئب بسبب امرأة. صحيح أن الصورة لم تكن جميلة. كانت الكتفان ضيقتين، والذراعان قصيرتين، لا بد أنه كان أقصر من الطول العادي. كانت اليدان الصغيرتان معتنى بهما، نحيلتين، جميلتين. كان وجود الماسة يضفي عليهما قيمة ملكية،أقرب إلى

الانهيار قليلاً. كان وحيدًا، مزارعًا، وشابًا. كان ينظر إلى سوزان. رأت الأم أنه كان ينظر إليها. نظرت الأم بدورها إلى ابنتها. كان نمش وجهها، بضوء الكهرباء يبدو أقل ظهورًا منه في وضح النهار. لا شك أنها كانت فتاة جميلة، بعينين براقتين،متعجرفتين،كانت شابة في مطلع المراهقة،وغير خجولة

قالت الأم: ــ لمَ تأخذين مظهرًا جنائزيًا؟ ألا تَستطيعين أن تكوني لطيفة مرة واحدة؟

ابتسمت سوزان للزارع الآتي من الشمال. سمعت موسيقا أسطوانتين راقصتين (فوكسترو وتانغو)، حين سمعت أسطوانة الفوكسترو الثالثة وقف الزارع الآتي من الشمال ليدعو سوزان إلى مراقصته. حين وقف بدا رديء القوام بشكل واضح. بينما كان يتقدم نحو سوزان، كان الجميع ينظر إلى ماسته: الأب بارت، أكوستي، الأم، سوزان. لم يكن المارة ينظرون، ذلك لأنهم قد شاهدوا مثلها كثيرًا، ولا جوزيف، لأن جوزيف لم يكن ينظر إلاّ إلى السيارات. لكن كان كل الآتين من السهل ينظرون. لا بد من القول إن تلك الماسة التي نسيها مالكها الجاهل في إصبعه كانت تساوي وحدها ما يعادل ثمن كل أراضي السهل مجتمعة تقريبًا.

سأل الزارع الآتي من الشمال وهو ينحني أمام الأم: ــ هل تسمحين، يا سيدتي؟

قالت الأم وقد احمر وجهها كيف لا، أرجوك. كان الضباط قد بدؤوا يرقصون في الحلبة مع المسافرات. كان ابن أكوستي يرقص مع امرأة موظف الجمارك.

كان الزارع الآتي من الشمال يحسن الرقص. كان يرقص ببطء، وبنوع من الاجتهاد الأكاديمي، ربما لحرصه على أن يظهر لسوزان، مهارته، ومكانته الاجتماعية، واعتباره.

ـــ أيمكن أن تقدميني إلى والدتك؟

قالت سوزان: ـــ طبعًا.

ـــ هل تسكنون في المنطقة؟

ـــ أجل، إننا من هنا. هل أنت صاحب السيارة التي في الأسفل؟

ـــ ستقدمينني باسم السيد جو.

ـــ من أين مصدرها؟ إنها مذهلة.

سأل السيد جو وهو يبتسم: ـــ هل تحبين السيارات بكل ذاك القدر؟

وكان صوته لا يشبه صوت الزارعين ولا صوت الصيادين. بل يأتي من بعيد عذبًا ومميزًا.

قالت سوزان: ـــ كثيرًا. هنا لا يوجد سيارات جميلة، أو إنها غليظة من طراز طوربيدو.

همس السيد جو بعذوبة ليس بعيدًا عن أذنها: ــ لا شك أن فتاة جميلة مثلك تضجر في السهل...

ذات مساء، منذ شهرين، جرها الشاب أكوستي خارج المطعم حيث كانت تسمع أغنية (Ramona) من أسطوانة، وعلى الميناء قال لها إنها شابة جميلة، ثم قبّلها. حدث مرة أخرى، بعد شهر، أن عرض عليها ضابط في البريد أن يصطحبها لتزور مركبه، ومنذ بدء الزيارة جرها إلى مقصورة في الدرجة الأولى حيث قال لها إنها فتاة جميلة ثم قبّلها. تركته يقبلها فقط. وكانت الآن المرة الثالثة التي يقال لها ذلك.

سألت سوزان: ــ ما علامتها؟

ــ إنها من صنع معامل (Maurice Léon Bollée). إنها طرازي المفضل. إذا طاب لك ذلك يمكن أن نقوم بجولة بها. لا تنسي أن تقدميني إلى والدتك.

ــ كم حصانًا قوتها؟

قال السيد جو: ــ أربعة وعشرون حصانًا فيما أظن.

ــ كم تكلف سيارة من طراز (Maurice Léon Bollée).

ــ إنه نموذج خاص، أوصيت بإحضارها من باريس بشكل خاص. كلفتني تلك السيارة خمسين ألف فرنك.

إن السيارة التي من طراز (B.12) قد كلفت أربعة آلاف فرنكٍ وأمضت الأم أربع سنوات لتسديدها.

قالت سوزان: ــ رائع، يا له من ثمن باهظ.

راح السيد جو ينظر إلى شعر سوزان عن قرب يتزايد، ومن وقت إلى آخر إلى عينيها المنخفضتين، وتحت عينيها، فمها.

ــ لو كان لدينا مثل تلك السيارة،لأتينا كل مساء إلى رام، ولكان ذلك يغير من حالنا. لكنا أتينا إلى رام، وإلى أماكن أخرى كثيرة.

قال السيد جو بحنين حزين:ــ إن الغنى لا يصنع السعادة، كما تعتقدين.

قالت الأم بصوت عالٍ: " ليس هناك إلاَّ الثراء لصنع السعادة. ليس هناك إلاَّ أغبياء لا يسعدهم الغنى." ثم أضافت ": يجب، بالطبع، حين يكون المرء غنيًا أن يحاول أن يبقى ذكيًا ". أكد جوزيف بلهجة أكثر حسمًا من نبرتها إن الغنى يصنع السعادة، لا جدال في ذلك. إن سيارة ليموزين للسيد جو وحدها كافية لإسعاد جوزيف.

قالت سوزان: ــ لا أدري. يُخَيَّل إليَّ أننا نتدبر أمرنا لنصنع ما نسميه بالسعادة.

قال بصوت هامس: ــ إنك صغيرة جدًا. آه، لا يمكنك أن تعرفي.

قالت سوزان: ــ ليس لأنني صغيرة. أنت الذي في منتهى الثراء.

راح السيد جو يضمها إليه الآن بشدة. حين انتهت موسيقا الفوكسترو أسف كثيرًا لذلك.

ــ كان بودي الاستمرار في تلك الرقصة...

تبع سوزان حتى طاولتهم.

قالت سوزان لأمها: ــ أعرفك على السيد جو.

وقفت الأم لتحيي السيد جو وابتسمت له. بالتالي لم يقف جوزيف ولم يبتسم.

قالت الأم: ــ اجلس إلى طاولتنا، خذ شيئًا معنا.

جلس بالقرب من جوزيف.

قال: ــ أنا الذي أدعو. استدار نحو الأب بارت يطلب قائلا:

ــ أحضر شامبانيا ممتازة. منذ عودتي من باريس لم أفلح في شرب شمبانيا طيبة.

قال الأب بارت: ــ إنك تجدها هنا كل مساء بريد. قل لي رأيك فيما ستشرب.

ابتسم السيد جو بملء أسنانه التي كانت جميلة. لاحظها جوزيف ولم ينظر من السيد جو بكامله إلاّ إلى تلك الأسنان. كان قد بدا مرتبكًا قليلاً: كانت أسنانه خربة ولم يكن يستطيع إصلاحها. كان

هناك، قبل أسنانه، كثير جدًا من الأشياء التي يجب إصلاحها، حتى إنه كان يشك أحيانًا بأنهم قد ينجحون يومًا في ذلك.

سألت الأم: ــ هل أنت عائد من باريس؟

ــ نزلت توًا من الباخرة. سأبقى في رام ثلاثة أيام. أتيت أراقب إبحار مادة الجلباب.

كانت الأم محمرة الوجه مبتسمة وهي تشرب كلمات السيد جو. لمح الأخير ذلك ولاح السرور على وجهه. يبدو أنه نادرًا ما كان الناس يصغون إليه مفتونين. رمق الأم بنظرات لطيفة كما تجنب أن يبدي اهتمامًا كبيرًا بما يثير انتباهه ألا وهي سوزان. لم ينتبه بعد إلى أخيها، أجل ليس بعد. لاحظ فقط أن سوزان، هي، لم تكن تنظر إلاّ إلى ذاك الأخ الذي كان يكتفي بالتحديق إما بأسنانه أو بالحلبة وقد بدا حزينًا وحانقًا.

قالت سوزان:ــ إن سيارته من طراز (Maurice Léon Bollée).

كانت تشعر، دائمًا، بأنها قريبة جدًا من جوزيف، خاصة بحضور شخص ثالث وحين كان ضجرًا بشكل ظاهر كما هو الحال تلك الليلة. بدا أن جوزيف يستيقظ. سأل بنبرة مقطبة:

ــ كم طاقتها من أحصنة سيارة كتلك؟

قال السيد جو بلا مبالاة: ــ أربع وعشرون.

ــ اللعنة، أربعة وعشرون حصانًا.... أربع سرعات بلا شك؟

ــ أجل، أربع.

ــ يمكن الانطلاق من السرعة الثانية كيفما شاء السائق، أليس كذلك؟

ــ أجل، فلنقل ذلك، لكن هذا الانطلاق يتلف تغيير السرعة.

ــ هل تسرع في طريق السفر؟

ــ ثمانين وأنا جالس في المقود. لكنني لا أحب تلك السيارة، عندي واحدة بمكانين من طراز (roadster) أستطيع أن أسير بها بسرعة مئة كيلومتر بدون أي جهد.

ــ كم ليترًا بمائة كيلومتر؟

ــ خمسة عشر في طريق السفر. ثمانية عشر في المدينة. ما طراز سيارتكم أنتم؟

ــ نظر جوزيف إلى سوزان بمظهر مضطرب، وفجأة، راح يضحك.

ــ من الأفضل عدم التحدث عن ذلك...

قالت الأم: ــ إنها ستروين. سيارة ستروين عتيقة قدمت لنا خدمات كثيرة. إنها تكفي لقطع دربنا.

قال جوزيف: ــ من الواضح أنك لا تقودينها غالبًا.

عادت الموسيقا تصدح ثانية. كان السيد جو يتابع الإيقاع سرّا وهو ينقر على الطاولة بإصبعه ذات الخاتم الماسي. كانت تتبع أجوبته لحظات صمت طويلة وقوية من جوزيف. لكن السيد جو لم يكن يجرؤ على تغيير موضوع الحديث. لم تعد عيناه تفارقان سوزان وهو يجيب جوزيف. كان يستطيع أن يتأملها بكل راحة بال لأن سوزان كانت منتبهة إلى ردود أفعال جوزيف حتى إنها لم تعد تنظر إلاّ إليه.

سأل جوزيف: ــ والرودستر؟

ــ ماذا؟

ــ كم تستهلك الرودستر في المائة كيلومتر؟

قال السيد جو: ــ أكثر، ثمانية عشر في طريق السفر. إن قدرتها ثلاثون حصانًا.

قال جوزيف: ــ اللعنة.

ــ إن سيارات الستروين أقل استهلاكًا، أليس كذلك؟

ضحك جوزيف ضحكة عالية. أنهى كأسه من الشمبانيا وصب كأسًا أخرى. فجأة بدا أنه يريد أن يتسلى.

قال: ــ أربعة وعشرون.

أطلق السيد جو صرخة تعجب!

قال جوزيف: ــ ثمة تفسير لذلك.

ــ هذا كثير.

قال جوزيف: ــ بدلاً من الإثني عشر، لكن يمكن تبرير ذلك... إن الوقاد، لم يعد وقادًا، إنه مصفاة.

كانت ضحكة جوزيف الهستيرية معدية. كانت ضحكة مخنوقة، لم تزل صبيانية، انطلقت بحماس لا يُقاوم. احمر وجه الأم، حاولت أن تتماسك عبثًا.

قال جوزيف: ــ لو اقتصر الأمر على ذلك فقط، لكان كل شيء على ما يرام.

ضحكت الأم بملء شدقيها.

قالت: ــ هذا صحيح، لو لم يكن هناك إلاّ خلل الوقاد...

ضحكت سوزان أيضًا. لم تكن ضحكتها تماثل ضحكة جوزيف، لقد كانت أكثر حدة وأقرب إلى الصفير. لقد انطلقت تلك الضحكة لعدة ثوان. بدا السيد جو حائرًا. لاشك أنه كان يتساءل إن لم يكن نجاحه قد شوه وكيف يتفادى تلك المجازفة.

قالت سوزان: ــ وجهاز تبريد المحرك!

قال جوزيف: ــ رقم قياسي، لم تر في حياتك شيئًا مثله.

ــ قل كم، يا جوزيف، قله...

ـ لقد استهلك، قبل أن أصلحه قليلاً، حتى خمسين لترًا في مئة كيلومتر.

قهقهت الأم قائلة: ـ يندر ذلك، خمسون لترًا في مئة كيلومتر.

قال جوزيف: ـ انتظر، لو اقتصر الأمر على ذلك فقط: الوقّاد والتبريد...

قالت الأم: ـ صحيح، لو لم يكن إلا هذا... لهان الأمر جدًا.

حاول السيد جو أن يضحك. أرغم نفسه قليلاً على الضحك. ربما هم على وشك أن ينسوه. لقد بدوا دائخين قليلاً.

قال جوزيف: ـ إطاراتها! إطاراتها... إنها...

كان جوزيف يضحك بقوة تمنعه من أن يشكل كلماته. كانت الضحكة ذاتها التي لا تُقهر والغامضة تهز الأم وكذلك سوزان.

قال جوزيف: ـ خمن بأي شيء نسير في إطاراتنا، خمن...

قالت سوزان: ـ هيا، خمن...

قال جوزيف: ـ لن يستطيع البتة أن يجد وإن حاول.

كان الولد المتَبَنّى قد أحضر زجاجة ثانية من الشمبانيا بناءً على طلب السيد جو. كان أكوستي يصغي إليهم ويضحك بثبات. راح

الضباط والمسافرات الذين لم يكونوا يفهمون شيئًا من حديثهم يضحكون مع ذلك بدورهم، لكن بهدوء.

قالت سوزان:ــ هيا، ابحث، لاحظ، ذلك لا يحدث دائمًا لحسن الحظ...

قال السيد جو وقد أخذ مظهر من وجد كيف يمكن الرقص على ذاك اللحن:

ــ أنا لا أعرف، مع إطار مطاطي داخلي لدراجة.

قالت سوزان: ــ ليس كذلك على الإطلاق، لم تصل بعد إلى الصواب.

قال جوزيف: ــ بأوراق أشجار الموز، نملؤها بها...

ضحك السيد جو من أعماقه للمرة الأولى لكن ليس بضحكة عالية مثل ضحكهم. لا شك أن ذلك يعود إلى مزاج الفرد. كان جوزيف قد وصل إلى تلك الدرجة من الضحك الصاخب حتى إنه لم يعد يستطيع أن يتنفس من الضحك، وأن ضحك السيد جو الصامت قد وضعه في تناقض تام مع جوزيف. لقد عدل عن دعوة سوزان. كان ينتظر بصبر انتهاء ذلك.

ــ إنه لفريد، ومسلٍ كما يقولون في باريس.

لم يكونوا يصغون إليه.

قال جوزيف: ــ إننا حين نسافر، نربط التبغ الرديء على رفراف السيارة وبالقرب منه مِرَش للسقاية...

كان يشهق بين كل كلمة وأخرى.

قالت سوزان: ــ بدل مصباح السيارة... يصلح كذلك كمصباح... إن التبغ الرديء هو مُبَرِد سيارتنا ومصباحها.

قالت الأم: ــ آه! إنني أختنق... اسكتي... اسكتي...

قال جوزيف: ــ والأبواب، تتماسك الأبواب بفضل خيط حديدي...

قالت الأم: ــ لم أعد أذكر، حتى لم أعد أتذكر كيف كانت مقابض أبواب سيارتنا...

قال جوزيف: ــ بالنسبة إلينا، لا نحتاج إلى مقابض أبواب، نقفز إلى الداخل، وهوب! شرط القفز نحو الجانب الذي يحوي المرقاة. يكفي أن يعتاد المرء على ذلك.

قالت سوزان: ــ أما الاعتياد، فلقد حدث لدينا.

قالت الأم: ــ اسكتي، ستصيبني نوبة.

كانت محمرة الوجه كثيرًا. كانت طاعنة في السن، ولقد عانت كثيرًا من المصائب، وعاشت قليلاً جدًا من مناسبات للضحك، حتى إن الضحك قد استولى عليها فعلاً، وراح يهزها بشكل خطر. كأن قوة ضحكها لا تأتي منها وتثير القلق، مشككة بصحة عقلها.

قال جوزيف: ــ نحن، لسنا بحاجة إلى مصابيح سيارة... مصباح صيد، يصلح كذلك.

كان السيد جو ينظر إليهم كأنه يتساءل إن كان ذاك الضحك سينتهي يومًا ما. لكنه كان يصغي بصبر.

قال وهو يحاول أن يبعدهم عن موضوع السيارة B.12 الذي لا ينتهي وأن يخرج من تلك المتاهة:

ــ جميل أن يقع الإنسان على أناس مثلكم، مرحين مثلكم.

قالت الأم مذهولة: ــ مرحين مثلنا؟...

تابعت سوزان قائلة: ــ ماذا يقول، إننا مرحون؟...

قال جوزيف: ــ آه! لو كان يعرف، اللعنة، لو كان يعرف...

أما هو جوزيف، فلا شك أنه كان حاقدًا.

قال: ــ لو اقتصر الأمر على تلك الأشياء فقط، مستودع البنزين، والمصابيح... لو لم يكن إلاَّ ذلك...

كانت الأم وسوزان تنظران إليه بقوة. أية وثبة جديدة وجد جوزيف؟ لم تحزرا بعد، لكن الضحك الذي كان قد ضعف عاد يهزهما.

تابع جوزيف قائلاً: ــ الخيوط الحديدية، وأوراق أشجار الموز، لو لم يكن هناك إلاَّ تلك الأمور...

قالت سوزان بلهجة سائلة: ــ صحيح، لو لم يكن هناك إلاّ تلك الأمور...

قال جوزيف: ــ لو لم يكن هناك إلاّ السيارة.

قالت الأم: ــ لهان الأمر، لكان كل شيء على ما يرام.

سرت عدوى الضحك إليهما، بعد أن سبقهما جوزيف بضحكته المتلهفة.

ــ ليس هناك السيارة وحدها. كان عندنا سدود... أجل سدود...

أطلقت كل من الأم وسوزان صرخة حادة منبعثة من رضا عظيم. انفجر أكوستي بدوره ضاحكاً. أما الخرير المكتوم الذي ارتفع من جهة الخزينة فلقد كان يعني أن الأب بارت يشاركهم الضحك.

صرخت الأم: ــ آه! السراطين... السراطين...

قال جوزيف: ــ لقد أكلت السراطين سدودنا.

قالت سوزان: ــ حتى السراطين... فلقد تدخلتَ في الأمر.

قالت الأم: ــ هذا صحيح... حتى السراطين، فهي ضدنا...

كان بعض الزبائن قد عاود الرقص. استمر أكوستي بالضحك لأنه كان يعرف قصتهم حق المعرفة كما يعرف قصته هو. كان من الممكن أن تكون تلك القصة قصته، قصة كل مالك أرض في السهل.

كانت سدود الأم في السهل، المأساة الكبرى والمهزلة المسلية في آن واحد، كان يتوقف ذلك على الأيام. كانت المهزلة الكبرى مصيبة عظيمة. كانت فظيعة وكانت مضحكة. كان يتوقف ذلك على جهة الموقع، فإذا كنا من جهة البحر الذي اقتلع بضربة واحدة تلك السدود، أو من جهة السراطين التي جعلت من السدود مصافي، أو بالعكس، من جهة الذين أمضوا ستة أشهر في بناء تلك السدود متناسين تمامًا أضرار البحر الحتمية وسراطينه. والمدهش أنهم كانوا مائتين قد نسوا ذلك حين شرعوا في العمل.

كان قد جاء كل رجال القرى المجاورة الذين يسكنون الأراضي وقد فوضت الأم العريف لاستدعائهم. وبعد أن جمعتهم بالقرب من البيت الخشبي، شرحت الأم ما كانت تريد منهم.

إذا أردتم، فإننا نستطيع أن نكسب مئات الهكتارات من الأراضي من حقول الأرز وذلك دون مساعدة كلاب المساحة. سنبني سدودًا. نوعين من السدود: واحدة موازية للبحر، وأخرى، إلخ.

استغرب الفلاحون قليلاً. ذلك لأنه منذ آلاف السنين يكتسح البحر السهل وقد اعتادوا أولاً ذلك حتى إنهم لم يتصوروا مطلقًا كيف يُمنع البحر من أن يجتاح السهل. ثم لأن البؤس قد خلق فيهم ضربًا من السلبية اعتادوه فأصبح ذلك دفاعهم الوحيد أمام أطفالهم الذين يموتون جوعًا أو أمام محاصيلهم التي يحرقها الملح. لكنهم عادوا مع ذلك ثلاثة أيام متتالية وبعدد يتزايد يومًا بعد يوم. شرحت الأم لهم

كيف تفكر في بناء تلك السدود. وجب، بالنسبة إليها، دعمها بجذوع أشجار الشورى. كانت تعرف من أين تؤمنها. كان هناك مخزونات في تخوم كام، وما أن انتهى الطريق حتى بقيت تلك المخزونات لا تنفع لشيء. عرض عليها بعض المتعهدين إعطاءها إياها بسعر تصفية. هي وحدها، تتعهد بتلك النفقات.

منذ البدء، وجد مئة قبلوا بالعمل. ثم، حين بدأ الأوائل ينزلون في المراكب الذاهبة إلى الجسر نحو الأماكن المحددة للبناء، التحق بهم آخرون بعدد كبير. في مدة أسبوع، راح الجميع تقريبًا يعملون في بناء السدود. ثمة بادرة صغيرة كانت تكفي لتخرجهم من سلبيتهم. سيدة عجوز بلا إمكانيات قالت لهم إنها قررت أن تناضل وقد دفعتهم أن يناضلوا كأنهم، منذ بداية الأزمنة، لم ينتظروا إلاّ ذلك.

ومع ذلك لم تستشر الأم أي تقني مختص لتعرف إذا كان بناء السدود مجديًا. كانت تؤمن بذلك. كانت على يقين مما تفعل. كانت تتصرف دائمًا هكذا، وهي تطيع بداهات ومنطقًا لا تشارك فيه أحدًا. إن مجرد أن صدّق القرويون ما تقول لهم قد ثبت يقينها بأنها وجدت تمامًا ما يجب عمله لتغير حياة السهل. مئات الهكتارات من حقول الأرز ستنجو من مد البحر. الكل سيصبح غنيًا أو أقرب إلى الغنى. لن يموت الأطفال. سيكون هنا أطباء. سيتم بناء طريق طويلة تحاذي السدود وتخدم الأراضي المحررة من اجتياح البحر.

بعد أن تم شراء الجذوع المستديرة، انقضت ثلاثة أشهر من الانتظار كي ينحسر البحر تمامًا وتجف الأراضي لتبدأ أعمال الردم.

خلال تلك الفترة من الانتظار عاشت الأم أمل حياتها. أمضت كل تلك الليالي وهي تكتب وتحسن كتابة الظروف المستقبلية التي يشارك فيها الفلاحون في استغلال الخمسمائة هكتار التي ستصبح صالحة للزراعة. لكن نفاد صبرها لم يقف عند كتابتها لمخططات بانتظار حلول الساعة. فمع ما تبقى لها من مال، بعد أن دفعت ثمن الجذوع، لم تنتظر، لكنها بنت عند مصب النهر ثلاث مقصورات سمتها قرية المراقبة. كان القرويون الذين آمنوا بنجاحها كثيرين وهذا ما جعلها تؤمن بذلك دون أدنى شك. لم تشك لحظة بأنهم قد صدقوها لأنها بدت واثقة بذاتها تمام الثقة. كانت تحدثهم بيقين كبير يمكن أن يقنع موظف المساحة نفسه. حين انتهت من تعمير قريتها،وضعت فيها ثلاث أسر، أعطتهم الأرز، والمراكب وما يقتاتون به حتى موسم الأراضي المحررة.

حان الوقت الملائم لبناء السدود.

كان الرجال قد نقلوا الجذوع المستديرة من الطريق حتى البحر وشرعوا في العمل. كانت الأم تنزل معهم في الفجر وتنصرف مساءً معهم أيضًا. كان جوزيف وسوزان يصطادان طوال ذاك الوقت. كانت تلك الفترة بالنسبة إليهما أيضًا فترة أمل. كانا يؤمنان

بما التزمت الأم بفعله: ما أن ينتهي الموسم حتى يستطيعا أن يقوما بسفر طويل إلى المدينة ثم يتركا السهل نهائيًا خلال ثلاث سنوات.

وقد يحدث أحيانًا في المساء، أن توزع الأم الكينين والتبغ على الفلاحين وفي تلك المناسبة تحدثهم عن تغيرات وجودهم المقبلة. كانوا يضحكون مسبقًا معها، من مظهر موظفي المساحة أمام الغلال الفائقة التي سيجنونها قريبًا. كانت تروي لهم قصتها بكل تفاصيلها وتحدثهم مطولاً عن تنظيم سوق الأراضي. ولكي تُثير حماسهم، راحت تشرح لهم كيف كان يتم الاستملاك، وكم كان كثيرون ضحية ذلك لصالح زراعة أشجار الفلفل الصينية، وكان كل ذلك يُفسَّر بخزي موظفي كام وجشعهم . كانت تحدثهم بحماس، كما لم تستطع أن تقاوم الرغبة في أن تشاركهم في مبادرتها وكذلك في فهمها الحالي الكامل لتقنية موظفي كام في الاختلاس. لقد تحررت أخيرًا من ماضٍ يطفح بالأوهام وبالجهل، ولقد تم الأمر كما لو أنها اكتشفت لغة جديدة، وثقافة جديدة، ولم تكن تشبع من التحدث عنها. كانت تقول: "الكلاب، إنهم كلاب ". أما السدود فكانت ثأرها. وكان الفلاحون يضحكون مغتبطين.

خلال بناء السدود لم يمر أحد من الموظفين. وقد استغربت إلى حد ما ذلك. لم يكونوا يجهلون أهمية السدود فكيف لا يقلقون! لكنها لم تجرؤ مع ذلك على أن تكتب لهم، خوفًا من تنبيههم ومن أن تجد نفسها قد حظر عليها مبادرة لا تزال مع ذلك غير مرخصة. لم تستطع الكتابة إلاّ بعد الانتهاء من بناء السدود. فلقد أعلنت لهم أن

مضلعًا رباعيًا ضخمًا من خمسمائة هكتار يشمل الأرض كلها سيزرع. لم تجب إدارة المساحة.

حل فصل الأمطار. صنعت الأم مشاتل كبيرة بالقرب من البيت الخشبي. والرجال أنفسهم الذين بنوا السدود قد جاؤوا لتشتيل الأرز غير المقشور في المضلع الرباعي الضخم والذي أغلقته فروع السدود.

مضى شهران. غالبًا ما كانت الأم تنزل لترى الغرسات الفتية تخضر. لقد بدأ الزرع بالنمو إلى أن جاء مد تموز الكبير.

ثم، في تموز، ارتفع البحر كما يحدث دائمًا مقتحمًا السهل. لم تكن السدود قوية بما يكفي. كانت السراطين الصغيرة الموجودة في حقول الأرز قد قرضتها. وفي ليلة واحدة، انهارت.

كانت الأسر التي أقامتها الأم في قريتها التي أنشأتها للمراقبة قد رحلت مصطحبة معها الخيزران، والمؤن، نحو جزء آخر من الشاطئ. أما فلاحو القرى المتاخمة لأرض الأم فلقد عادوا إلى قراهم. واستمر الأطفال يموتون من الجوع. لم يحقد أحد على الأم.

في العام التالي، انهار أيضًا الجزء الصغير من السدود الذي كان قد صمد.

قال جوزيف: ــ أما قصص سدودنا فتبعث على الضحك والقهقهة.

ثم راح يقلد مشية السرطان بتحريك إصبعيه على الطاولة، شأنه شأن سرطان يمشي نحو سدودهم، باتجاه السيد جو، الذي بقي في أوج الصبر. كان السيد جو غير مكترث بمشية السرطان ويحدق بنظره في سوزان، التي كانت تضحك وقد رفعت رأسها وامتلأت عيناها بالدموع.

قال السيد جو: ــ أنتم مسلون، أنتم رائعون.

كان يتابع لحن الفوكس الذي يُعزَف، ربما ليحث سوزان على الرقص.

قال جوزيف: ــ ليس هناك مثيل لحكايتنا مع السدود. لقد فكرنا في كل شيء إلاّ في تلك السراطين.

قالت سوزان: ــ لقد قطعنا عليها الطريق.

تابع جوزيف: ــ لكن ذلك لم يزعجها، كانت تنتظرنا في المنعطف، بضربتين من كلاباتها، ها هي السدود تنهار.

قالت سوزان: ــ سراطين صغيرة بلون الطين قد ابتكرت خصيصًا لنا...

قالت الأم: ــ كان يلزمنا إسمنت مسلح... لكن أين نجده؟

قطع جوزيف كلامها. فهدأ الضحك.

قالت سوزان: ــ يجب أن نقول لك، إن ما اشتريناه لم يكن أرضًا...

قال جوزيف: ــ كان ماءً.

قالت سوزان: ــ كان بحرًا، إنه الباسيفيك.

قال جوزيف: ــ إنه البراز.

قالت سوزان: ــ فكرة لم تخطر على بال أحد...

توقفت الأم عن الضحك وعادت فجأة إلى جديتها.

قالت لسوزان: ــ اسكتي، وإلاّ سأصفعك.

انتفض السيد جو لكنه كان وحده الذي ينتفض.

قال جوزيف: ــ إنه البراز، تمامًا، أو الماء، وفق ما تشاؤون. ونحن هناك ننتظر، شأن الأغبياء، أن ينحسر البراز.

قالت سوزان: ــ سيحدث ذلك طبعًا، يومًا ما.

قال جوزيف: ــ في خمسمائة سنة، لدينا متسع من الوقت...

قال أكوستي، من آخر المقهى: ــ لو كان برازًا، لكان أفضل...

قال جوزيف وهو يضحك ثانية: ــ أرز من البراز، أفضل من عدم وجود أرز على الإطلاق...

أشعل سيجارة. أخرج السيد جو علبة سجائر ماركة ٥٥٥ من جيبه وقدم منها إلى سوزان وإلى الأم. كانت الأم، دون أن تضحك، تصغي بشغف إلى جوزيف.

تابع جوزيف: ــ حين اشترينا الأرض، خيل إلينا أننا سنصبح أصحاب ملايين في السنة ذاتها. بنينا البيت الخشبي وانتظرنا الزرع كي ينبت.

قالت سوزان: ــ يبدأ الزرع دائما بالنبت.

قال جوزيف: ــ ثم صعد البراز، فأقمنا تلك السدود... هذا ما في الأمر. إننا ننتظر هنا كبلهاء، لم نعد نعرف حتى ماذا ننتظر...

تابعت سوزان: ــ إننا ننتظر في بيتنا، ذلك البيت...

قال جوزيف: ــ ذلك البيت الذي لم ينته بناؤه.

حاولت الأم أن تقول شيئًا

ــ لا تصغ إليهما، إنه بيت جيد، ومتين. إذا بعته أحصل على ثمن عالٍ... ثلاثين ألف فرنك...

قال جوزيف: يمكنك المحاولة دائمًا، من يشتري ذلك؟ اللهم إلاّ بضربة حظ، اللهم إلاّ إذا وقعنا على معتوهين مثلنا.

سكت فجأة. حدث صمت قصير.

قالت سوزان حالمة: ــ صحيح لا بد أن بنا قليلاً من الجنون.

ابتسم جوزيف لسوزان بعذوبة.

قال: ــ إننا مجانين تمامًا...

ثم توقف الحديث من تلقاء ذاته.

راحت سوزان تتابع الراقصين بعينيها. نهض جوزيف، وذهب يدعو زوجة موظف الجمارك إلى الرقص. كان قد نام معها طوال أشهر أما الآن فلقد عافتها نفسه. كانت امرأة قصيرة القوام سمراء، نحيلة. منذ ذاك الحين وهي تنام مع أكوستي. دعا السيد جو سوزان للرقص على نغم كل أسطوانة تدور. بقيت الأم وحدها قرب الطاولة وراحت تتثاءب.

ثم أعطى موظفو البريد والمسافرات إشارة الرحيل. رقص السيد جو رقصة أخرى مع سوزان.

ألا تريدين أن تجربي سيارتي؟ يمكنني أن أصحبك إلى بيتكم وأعود إلى رام. إن ذلك من دواعي سروري.

كان يضمها بشدة إليه. كان رجلاً نظيفًا، حسن الهندام. وإن كان قبيحًا فلقد كانت سيارته رائعة.

ــ ربما يستطيع جوزيف أن يقودها؟

قال السيد جو بتردد: ــ إن الأمر حساس.

قالت سوزان: ــ يستطيع جوزيف أن يقود جميع السيارات

قال السيد جو بأدب كبير: ــ بعد إذنك، مرة أخرى.

قالت سوزان: ــ سنطلب ذلك من أمي. يذهب جوزيف أمامنا، ونتبعه.

ــ أنتِ... تريدين أن ترافقنا السيدة والدتك؟

ابتعدت سوزان عن السيد جو ونظرت إليه. لقد خاب أمله ولم يكن ذلك في صالحها. أما الأم التي مكثت وحدها قرب الطاولة، فلم تتوقف عن التثاؤب. كانت متعبة جدًا لأنها قد عانت من مصائب كثيرة وكانت مسنة ولقد مضى وقت طويل لم تضحك فيه، كان هذا الضحك قد أتعبها.

قالت سوزان: ــ أود أن تجرب أمي سيارتك.

ــ هل أستطيع أن أراك ثانية؟

قالت سوزان: ــ حين تريد.

ــ شكرًا.

ضم سوزان بقوة أكبر.

لقد كان حقًا مهذبًا جدًا. نظرت إليه بشيء من الحنو. ربما لن يستطيع جوزيف أن يتحمله إذا ما تردد غالبًا على بيتهم.

حين انتهت الرقصة، كانت الأم واقفة، على استعداد للرحيل. لاقى اقتراح السيد جو باصطحاب الأم وسوزان رضا الجميع. دفع السيد جو الحساب إلى الأب بارت ونزل الجميع إلى باحة المطعم. بينما كان سائق السيد جو ينزل ويفتح البوابة، غاص جوزيف داخل السيارة التي من طراز (Léon Bollée)، وأشعل المحرك وخلال خمس دقائق، جرب مختلف السرعات. ثم خرج وهو يشتم ودون أن يودع السيد جو، ثبّت مصباح الصياد حول رأسه، شغّل المحرك

اليدوي لسيارته التي من طراز (B.12) وسار وحده في المقدمة. نظرت الأم وسوزان إليه يرحل وقد انقبض قلبهما. بدا السيد جو قد اعتاد على سلوكه ولم يتعجب.

صعدت الأم وسوزان إلى مؤخرة سيارة الليموزين، وجلس السيد جو بالقرب من سائقه. لحقوا جوزيف بسرعة. لم تكن سوزان تريد تجاوزه لكنها لم تقل شيئًا للسيد جو لأنه بلا شك لن يفهم. تحت أضواء مصابيح السيارة القوية رأوه كما لو كان في وضح النهار: كان قد أنزل ما تبقى من واقية الريح وراح يقود سيارته مستفيدًا من كل ما تعطي من إمكانات. بدا بمزاج أكثر سوءًا مما كان عليه في الذهاب ولم يلقِ نظرة واحدة على السيارة التي من طراز (LéonBollée) حين تجاوزته.

قبل أن يصلوا إلى البيت الخشبي بقليل نامت الأم. طوال جزء من الطريق، وهي غير مبالية بسير السيارة،لا بد أنها فكرت بذاك الحظ، بالسيد جو، لكن تلك النعمة غير المتوقعة لم تبعد عنها التعب فاستغرقت في النوم. كانت تنام أينما كانت، حتى في سيارة نقل الركاب الكبيرة، حتى في سيارتهم التي كانت مكشوفة، بلا واقية ريح ولا غطاء.

حين وصلوا إلى البيت الخشبي، كرر السيد جو طلبه. هل يستطيع أن يعود ليرى هؤلاء الناس الذين أمضى معهم سهرة ممتعة جدًا؟ قالت الأم بتكلف للسيد جو وهي شبه مستيقظة إن بيتها مفتوح

له وإنه يستطيع أن يعود متى شاء. بعد رحيل السيد جو بقليل، وصل جوزيف. صفق باب غرفة الاستقبال ولم ينبس ببنت شفة. حبس نفسه في غرفته وكما يفعل كل مرة يشعر بالضيق وبالضجر راح يفك كل البندقيات ويشحمها حتى ساعة متأخرة من الليل.

هكذا إذن كان لقاؤهما.

كان السيد جو الابن الوحيد لواحد من كبار المضاربين الأثرياء في التجارة والذي كانت تعد ثروته نموذجًا لثروة المستعمرات. كان قد بدأ يضارب على الأراضي المتاخمة لأكبر مدينة في المستعمرة. كان توسع المدينة سريعًا جدًا حتى إنه قد حقق في مدة خمس سنوات أرباحًا تكفيه ليستثمر من جديد أرباحه. بدلاً من أن يضارب على أراضيه الجديدة، فلقد قام بتعميرها. شيد بيوتًا للتأجير بسعر رخيص سميت " مقصورات للمواطنين الأصليين " وكان طرازها الأول في المستعمرة. كانت تلك المقصورات مشتركة بفواصل وتطل كلها على باحات صغيرة مشتركة بفواصل أيضًا، وتطل من جهة أخرى على الشارع. كان بناؤها قليل التكلفة وتلبي حاجات طبقة كاملة من السكان الأصليين الذي يعملون بتجارة متواضعة. لاقت تلك البيوت رواجًا كبيرًا. وفي خلال عشر سنوات، تكاثر هذا النوع من المقصورات في المستعمرة. ولقد أظهرت التجربة أن تلك المقصورات تساعد كثيرًا على نشر الطاعون والكوليرا. ولكن لم يكن أحد على علم بنتائج الدراسات التي تعهد

القيام بها قادة المستعمرة إلاّ المالكين، لذا كان مستأجرو تلك المقصورات عددهم دائمًا كبير.

ثم اهتم أبو السيد جو بزارعي كاوتشوك الشمال. كان ازدهار الكاوتشوك كبيرًا لدرجة جعلت الكثيرين يصبحون مزارعين، بين عشية وضحاها، وبلا خبرة أو كفاءة. تدهورت مزروعاتهم. كان أبو السيد جو يسهر عليها. فاشتراها. وبما أنها كانت في حالة سيئة، فلقد دفع ثمنها بخسًا. ثم حسَّن إدارتها ونشطها. كان الكاوتشوك يدر أرباحًا كبيرة، لكنها قليلة في نظره. بعد عام أو عامين كان يبيعها بسعر الذهب إلى قادمين جدد، يفضل اختيارهم بين الذين لا يتمتعون بالخبرة. واستطاع في معظم الحالات، أن يشتريها ثانية بعد سنتين.

كان السيد جو يفتقر إلى المهارة وهو ابن ذاك الرجل المبدع. لم يكن لثروته الضخمة إلاّ وريث واحد، ولم يكن لهذا الوريث أدنى خيال. تلك هي نقطة ضعف هذه الحياة، النقطة الحازمة: لا يمكن الاعتماد على ولده. يظن المرء أنه يحضن نسرًا صغيرًا ثم يخرج إليك من تحت مكتبك ساذجا بليدا. وما العمل؟ ما الملاذ من ذاك القدر الغاشم؟

أرسله إلى أوروبا ليقوم بدراسة لم تكن تلائمه. كانت له بصيرة برغم غبائه: فقد حرص ألا يتابع دراسته. حين علم الأب ذلك، أعاده وحاول أن يثير اهتمامه بما يخص بعض أعماله. كان السيد جو يحاول بكل نزاهة أن يصلح الظلم الذي كان أبوه ضحيته.

لكن لم يكن للسيد جو أي اهتمام بشيء ما ، حتى ولا بتلك البطالة شبه المقنعة. لكنه كان يسعى جاهدًا وبكل شرف أن يعمل شيئًا. لأنه والحق يقال، قد كان شريفًا، كما كانت لديه الإرادة. لكن المشكلة لا تكمن هنا. إنه لو تربى على عكس ما نشأ عليه لما أصبح على ذلك القدر من الغباء الذي كان يعتقده فيه أبوه وهو مستسلم. لو كان السيد جو وحيدًا، بلا أب، وبلا ذاك العائق الذي يخنقه ألا وهو تلك الثروة، لكان من الممكن أن يداري طبيعته وأن ينجح نجاحًا كبيرًا في ذلك. لكن أباه لم يفكر مطلقًا أن السيد جو يمكن أن يكون ضحية ظلم. لم ير ظلمًا إلاَّ ما ألم به، أي ذاك الابن. وكانت تلك المصيبة عضوية، لا يمكن معالجتها، لم يكن يستطيع إلا أن يرثي لنفسه. لم يكن يكتشف مطلقًا سبب الظلم الآخر الذي كان ابنه ضحيته. وكان في استطاعته حتمًا معالجة ذلك. ربما كان يكفيه أن يحرم السيد جو من الإرث. لكنه لم يفكر في ذلك. مع أنه كان على قدر كبير من الذكاء. لكن للذكاء عاداته في التفكير، والتي تمنعه من ملاحظة ظروفه الخاصة به.

كان ذلك العاشق هو الذي وقع على سوزان، ذات مساء في رام. ويمكن القول إنه وقع كذلك على جوزيف كما وقع على الأم.

كان اللقاء مع السيد جو ذا أهمية حاسمة لكل فرد منهم. فلقد وضع كل واحد منهم على طريقته أمله في السيد جو. منذ الأيام الأولى، منذ ظهر بديهيًا أنه سيعود إلى البيت الخشبي بانتظام، لمّحت الأم له أنها تنتظر أن يطلب يد ابنتها. لم يتجنب السيد جو دعوة الأم

اللبقة والملحة. جعلها تنتظر عن طريق وعود وخاصة بواسطة هدايا مختلفة راح يقدمها إلى سوزان وهو يحاول أن يستفيد من تلك المهلة، مقابل الدور المربح الذي كان يفكر في أن يلعبه هكذا أمام أعينهم.

إن أول شيء ذي أهمية قدمه إلى سوزان، بعد شهر من لقائهما، كان فونوغرافا. لقد أعطاه بسهولة كما لو كان يقدم سيجارة، لكنه حرص على أن يجني من هديته بعض الحظوة بالقرب من سوزان. حين تأكد من أن سوزان لن تهتم مطلقًا بشخصه وحده أن حاول الاعتماد على ثروته وعلى التسهيلات التي تعطيه إياها، وإن أولى تلك التسهيلات كانت بالطبع، بالنسبة إليه، أن يفتح في عالمهم الأسير الثغرة الرنانة، المحررة، ألا وهي فونوغراف جديد. في ذاك اليوم فقد السيد جو كل الأمل في أن تقع سوزان في حبه، وإذا استثنينا اختياره للماسة فيما بعد، فإن ذاك البريق من الوضوح الذي ظهر على وجهها الشاحب كان الوحيد طوال المدة التي عرفها فيها.

لم تكن هي التي تحدثت عن الفونوغراف ولا حتى فكرت فيه. كان هو، السيد جو الذي فكر فيه.

كانا وحيدين في البيت الخشبي، كالمعتاد، حين يتحدث إليها. وكان يستمر انفرادهما ثلاث ساعات يوميًا، في حين كان جوزيف وأمه يمضيان الوقت وهما يهتمان بأشياء متنوعة خارج المنزل، منتظرين ساعة الذهاب إلى رام في السيارة الـــ(Léon Bollée). كان السيد جو يصل بعد القيلولة؛ يخلع قبعته، ويجلس بتراخٍ على المقعد

الكبير، وينتظر طوال ثلاث ساعات بادرة أمل ما من سوزان، أو تشجيعًا مهما كان بسيطًا يوحي إليه أنه أحرز تقدمًا عن الأمس. كانت تلك الجلسات المنفردة تُثير الغبطة والسرور لدى الأم. وبقدر ما كانت تلك الجلسات تطول كان أملها يكبر. وإذا كانت قد طلبت أن يتركا باب البيت مفتوحًا فلكي لا تترك للسيد جو أي مخرج إلاً الزواج أمام رغبته العارمة بالنوم مع ابنتها. لذا كان الباب يبقى مفتوحًا على مصراعيه. كانت تلبس قبعتها الغريبة المصنوعة من القش، ويتبعها عريفها المسلح بمعزق في يده، وكانت تمر ثم تعاود المرور أمام البيت الخشبي بين صفوف أشجار الموز التي تحاذي الطريق. وبين الفينة والفينة كانت تنظر برضا إلى باب قاعة الضيوف: إن العمل الذي يحدث وراء الباب كان مجديًا بطريقة مغايرة لما تتصنع عمله بالقرب من أشجار الموز. أما جوزيف فلم يكن يصعد على الإطلاق إلى البيت الخشبي ما دام السيد جو هناك. منذ أن مات حصانه وهو ينشغل بلا نهاية بسيارتهم (B.12). حين لم يكن فيها أي عطل ولا تحتاج إلى تصليح، كان يغسلها. لم يكن ينظر قط إلى البيت الخشبي. وحين يمل من السيارة كان يبتعد في الريف بحثًا عن حصان آخر على حد قوله. وحين لا يبحث عن حصان آخر، كان يذهب إلى رام بدون سبب، كي يهرب بشكل أفضل من البيت الخشبي.

هكذا كانت سوزان مع السيد جو وحدهما طوال جزء من فترة بعد الظهر إلى أن تحين ساعة الذهاب إلى رام. كانت سوزان تسأل السيد جو من وقت إلى آخر، وهي مخلصة لدروس أمها فتحدثه دون قناعة كبرى عن استعداداته الشريفة بالنسبة إليها، أجل كانت تسأله بعض التوضيح الإضافي عن زواجهما. هذا كل ما كان من الممكن السؤال عنه للسيد جو. أما هو فلم يكن يطلب شيئًا. كان يكتفي بالنظر إلى سوزان بعينين مرتبكتين، وبالنظر إليها أيضًا، بتوسيع نظره برؤية إضافية، كما هو الحال عادة حين يخنقك الوله. وقد يحدث أن تغفو سوزان من التعب ومن الملل من النظر إليها هكذا، فكانت تجده ثانية حين تستيقظ، وهو ينظر إليها بعينين أكثر هوى. وكان ذلك لا ينتهي حقًا. وإذا كانت في أول علاقتهما قد سُرت من إثارة تلك المشاعر لدى السيد جو، فإنها أصبحت منذ ذلك الوقت، وللأسف، تراجع سلوكها كثيرًا.

مع ذلك، فليست هي التي تحدثت عن الفونغراف، وإن كان ذلك مستغربًا، فإن السيد جو هو الذي تحدث عنه. في ذاك اليوم، وصل بهيئة غريبة وفي عينيه كان هناك حركة غير معتادة. كان ثمة بريق ذو معنى يجعل الآخرين يعتقدون، على غير العادة، بأن فكرة ربما قد خطرت في رأسه.

سأل وهو يشير إلى فونغراف جوزيف القديم: ــ ما هذا الفونغراف؟

قالت سوزان: ــ أنت ترى جيدًا، إنه فونغراف. إنه لجوزيف.

لقد عرفه كل من سوزان وجوزيف دائمًا. كان أبوهما قد اشتراه قبل عام من وفاته ولم يفارق الأم إطلاقًا. قبل أن يرحلوا إلى الأرض كانت قد باعت أسطواناتها القديمة وطلبت من جوزيف أن يشتري أسطوانات جديدة. من تلك الأسطوانات لم يبقَ إلاّ خمس كان جوزيف يحتفظ بها في غرفته بعناية فائقة. لقد ترك لشخصه وحده استعمال الفونغراف ولم يكن لأحد غيره الحق في تشغيله ولا حتى بمسك أسطواناته. لم تكن سوزان لتسيء إلى جوزيف في حرصه، لكنه كان مع ذلك حذرًا، وكان كل مساء، بعد استعماله، يحمل الأسطوانات إلى غرفته ويصفُها.

كانت الأم تقول: ــ من الغرابة أن يحب الفونغراف على هذا الشكل. كانت تأسف أحيانًا لأنها أتت بالفونغراف إلى هذا المنزل ذلك أن الموسيقا بشكل خاص، تبعث في جوزيف الرغبة في الرحيل. لم تكن سوزان تشاركها هذا الرأي، ولم تكن تعتقد أن ذاك الفونغراف ضار لجوزيف. وحين كان يسمع جميع أسطواناته ويعلن دومًا:" إنني أتساءل ماذا نفعل في تلك المنطقة"، كانت توافقه موافقة تامة، وإن كانت الأم تصرخ. مع أنغام أغنية Ramona، كان الأمل دائمًا بأن السيارات التي ستنقلهما بعيدًا، لن تتأخر عن الوقوف أمام بابهما، ويصبح ذاك الأمل أكثر تأصلاً ورسوخًا، وكان جوزيف يقول عن ذاك الفونغراف: " حين نكون بلا نساء، وبلا سينما، وبدون أي شيء فإن

وطأة مللنا تخف قليلاً مع فونغراف". كانت الأم تقول إنه يكذب. وفعلاً فلقد ضاجع كل النساء البيض في رام حين بلغ سن المضاجعة. كما ضاجع أجمل الحسناوات من السكان الأصليين من رام إلى كام. وقد يحدث أحيانًا، حين كان يقوم بالنقل، أن يضاجع النساء من زبائنه في عربته. كان يعتذر قائلاً: "لم أستطع أن أتمالك، أظن أنني أستطيع أن أضاجع كل نساء العالم". مع ذلك، لم يكن نساء السهل، بالرغم من جمالهن، يستطعن أن يجعلنه يستغني عن الفونغراف مهما حاولن ذلك.

قال السيد جو: ـــ إنه قديم، إنه من طراز قديم جدًا. إنني على معرفة بالفونغراف. عندي فونغراف كهربائي جلبته من باريس. ربما لا تعرفون ذلك لكنني أعشق الموسيقا.

ـــ نحن أيضًا. لكن فونغرافك الكهربائي صالح حين يكون هناك كهرباء وبما أنه ليس لدينا كهرباء فإنني لا أبالي بوجود ذاك الطراز.

قال السيد جو بلهجة مثقلة بالتلميحات، هناك نماذج أخرى ليست بكهربائية وهي جيدة كذلك.

كان يبدو مسرورًا. كان قد أعطى سوزان ثوبًا، وعلبة بودرة، وطلاء أظافر، وقلمًا أحمر للشفاه، وقطعة صابون من النوع الرفيع، ومساحيق للزينة. كان عادة يقدم لها الأشياء بشكل عفوي دون أن يعلن مسبقًا عنها. كان يأتي، ويخرج من جيبه علبة صغيرة ويمدها إلى سوزان قائلاً بمكر: " احزري ماذا جلبت لك". كانت سوزان تأخذ

العلبة وتفتحها قائلة: "يا لها من فكرة غريبة". هكذا كانت الأمور تجري عادة. أما ذاك اليوم، فلا. حدث شيء جديد في ذاك اليوم.

شيء جديد، حقًا كان هناك شيء جديد. فبعد حديثهم عن الفونغرافات وميزاتها المختلفة، طلب السيد جو من سوزان أن تفتح له باب الحمام ليستطيع أن يراها عارية، وقد وعدها مقابل ذلك بأحدث طراز من الفونغرافات (صوت سيده) بالإضافة إلى أسطوانات لأحدث الأغاني الباريسية. وبالفعل، بينما كانت سوزان تغتسل كما تفعل كل مساء قبل الذهاب إلى رام، دق باب الحمام بتحفظ.

قال السيد جو بهدوء كبير: ــ افتحي لي الباب. لن أمسك، لن أخطو خطوة أخرى، سأكتفي بالنظر إليك، افتحي لي الباب.

تجمدت سوزان وحدقت في باب غرفة الحمام المعتمة حيث وقف خلفه السيد جو. لم يكن أي رجل قد رآها عارية تمامًا، ما عدا جوزيف الذي كان يصعد أحيانًا ليغسل رجليه حين كانت تستحم. وبما أن ذلك كان يحدث منذ نعومة أظافرهما فإنه لا يدخل في الحسبان. نظرت سوزان إلى ذاتها جيدًا من قدميها حتى رأسها، نظرت طويلاً إلى ما طلب منها السيد جو أن يرى بدوره. وقد فوجئت فراحت تبتسم دون أن تجيب.

تنهد السيد جو قائلاً: ــ لا شيء إلاّ قدر يسير من الوقت لأراك فيه، إن جوزيف وأمك هما في الجهة الأخرى. أرجوك.

قالت سوزان بصوت خافت: ــ لا أريد.

ـ لماذا؟ لماذا يا صغيرتي سوزان؟ بي رغبة عارمة في رؤيتك بسبب بقائي بالقرب منك طوال اليوم. لاشيء إلاّ ثانية واحدة.

كانت سوزان تنتظر جامدة لتعرف ما يجب عمله. خرج الرفض منها آليًا. كان كلا. كان في البدء رفضًا حاسمًا. لكن السيد جو استمر يرجوها في حين أخذ ذاك الرفض ينقلب ببطء، ووقفت سوزان بلا حراك وقد التصقت بالجدار، لتلبي طلبه. كانت به رغبة جامحة في رؤيتها. بالطبع كانت شهوة رجل. أما هي، فكانت هناك، جميلة المنظر، لم يبقَ إلاّ أن يُفتَح الباب. ليس هناك أي رجل في العالم قد رأى بعد تلك التي تقف خلف ذاك الباب. لم يكن جسمها قد صنع ليخبأ بل على العكس ليشاهد وليخط طريقه في العالم. ذاك العالم الذي ينتمي إليه بالطبع هو، ذاك السيد جو، لكنها حين أوشكت أن تفتح باب الحمام المعتم كي ينفذ نظر السيد جو وليغمر النور ذاك السر أن تحدث السيد جو عن الفونوغراف.

قال السيد جو: ـــ غدا ستحصلين على فونوغرافك. منذ الغد. قطعة رائعة بماركة (صوت سيده). يا صغيرتي سوزان العزيزة، افتحي لحظة واحدة وتحصلين على الفونوغراف.

هكذا في اللحظة التي أوشكت فيها أن تفتح الباب وأن تنكشف على العالم، سبقتها الأحداث فحولتها إلى عاهرة. كانت يدها على مزلاج الباب فأوقفت حركتها.

قالت بصوت خافت: ــ أنت سافل، جوزيف محق، إنك سافل.

سأبصق في وجهه. فتحت وبقي البصاق في الفم. لم تكلف نفسها عناء ذلك. إنه سوء الحظ، هذا السيد جو، إنه النحس، شأنه شأن السدود، والحصان الذي مات، ليس الذنب ذنب أحد، إنه سوء الحظ وحده.

قالت: ــ ها أنذا، وإنني أزعجك بجسدي العاري.

كان جوزيف يقول: "وإنني أزعجه بسيارتي B.12" وكان كلما مر بالقرب من السيارة الــ(Léon Bollée) سدّد لها في إطاراتها ضربات من قدمه. كان السيد جو ينظر إليها وهو معلق على نافذة الباب. كان أحمر الوجه ويتنفس بصعوبة كأنه تلقى ضربة وأوشك أن يقع. أغلقت سوزان الباب ثانية. بقي في مكانه ذاته لحظة صامتًا دون حراك، أمام الباب المغلق، ثم سمعته يعود إلى غرفة الاستقبال. لبست ثيابها بسرعة كما كانت تفعل كل مرة، بعد أن كشفت نفسها عبثًا للسيد جو الذي لم تكن نظرته ملائمة.

في اليوم التالي، وبتلك الدقة التي يؤمن بها السيد جو على أنها مظهر من مظاهر الكرامة الأكثر ثباتًا: "حين أقول شيئًا، أفعله"، بالتالي أحضر لها الفونوغراف.

رأته يصل أو رأت بالأحرى وصول علبة ضخمة من الكرتون، مرتكزة تحت ذراعه. أما هي، فلقد كانت تعرف أنه الفونوغراف. بقيت جالسة في مقعدها، وقد سمرتها متعة شبه إلهية

وسرية يشعر بها كل من رأى حدثًا مدهشًا تسبب هو في حدوثه. لأنها لم تكن وحدها تلك التي رأته. كانت الأم وجوزيف قد رأياه. وبينما كان يمر في الطريق، يحمله السيد جو، راحا يحدقان في الباب الذي دخل منه توًا كأنهما ينتظران بادرة ما تسمح لهما بأن يكتشفا المضمون. أما سوزان فلقد كانت تعرف أن لا أحد منهما، وخاصة جوزيف، سيتحرك من مكانه ليعرف ما يحوي، ولو كان بضخامة السيارة. إن إظهار حد أدنى من الفضول أمام أي شيء أعطاه السيد جو، أو أتى به، أو أظهره فقط، لم يكن أحد منهما يستسلم لذلك. صحيح أن اللفائف التي كان يقدمها إلى سوزان حتى الآن كانت صغيرة ويسعها جيبه أو يده. أما عن هذا الشيء، فمن المنطق أن يقول جوزيف في نفسه، بالنسبة إلى أبعاده، لا بد أنه يحوي شيئًا ذا أهمية عامة تفوق سابقيه. لم يكن أحد منهم قد تذكر أنه رأى شيئًا بذاك الحجم يصل إليهم حتى البيت الخشبي بأية وسيلة نقل كانت. فإذا استثنينا قطع خشب الشورى الدائرية، وبعض الرسائل النادرة من سجل المساحة أو من المصرف، وزيارة الابن أكوستي، فلا أحد ولا شيء حديث أو جديد قد وصل إلى هنا منذ ست سنوات. أن يكون قد جلبه السيد جو لا يمنع من أنه قد أتى من أبعد منه، من مدينة، من مخزن وأنه كان جديدًا ولن يستخدمه إلاً هم وحدهم. مع ذلك، كان جوزيف وأمه يأنفان من الصعود. وإن سلوك السيد جو غير المألوف الذي صرخ يحييهم بصوت واثق والذي عبر الطريق حاسر الرأس، دون أن يخاف من ضربة شمس، كل ذلك لم يكن كافيًا ليخرجا بدورهما من تحفظهما المعتاد.

وصل السيد جو لاهثًا بالقرب من سوزان. وضع اللفافة على طاولة غرفة الاستقبال وتنهد ارتياحًا. لا شك أنها كانت ثقيلة، لم تتحرك سوزان ونظرت إليها.هو وحده لا يستطيع أن يشبع من السر الذي لم يزل غامضًا بالنسبة إليهما هناك، حيث كانا ينظران .

قال السيد جو: ــ إنه ثقيل، إنه الفونوغراف. إنني هكذا، أفعل ما أقول. وأضاف ليؤكد انتصاره: ــ آمل أن تتعلمي أن تعرفيني، في حين لم تخطر تلك الفكرة في بال سوزان.

كان من جهة، الفونوغراف على الطاولة. وفي البيت الخشبي، من جهة أخرى كان هناك في إطار الباب المفتوح، الأم وجوزيف، وهما متعطشان للرؤية شأنهما شأن سجناء وراء الحاجز. فبفضلها وجد الآن هناك، على الطاولة. كانت قد فتحت باب غرفة الحمام، ما يكفي من الزمن لتترك نظرة السيد جو الشريرة والقبيحة تنفذ لتصل إليها والآن استقر الفونوغراف هناك، على الطاولة. أما هو فلقد كان في تمام الصحة وفي كامل الجمال. ووجدت أنها تستحق هذا الفونوغراف. وتستحق أن تعطيه إلى جوزيف. لأنه من الطبيعي أن تعود أشياء من نوع الفونوغراف إلى جوزيف. بالنسبة إليها، كان يكفيها، بوسائلها وحدها، أن تحصل عليه من السيد جو.

توجه السيد جو نحو اللفافة وهو يرتجف منتصرًا. وبقفزة، كانت سوزان بالقرب منه تمنعه من الاقتراب. أسقط ذراعيه وقد ذُهل ونظر إليها دون أن يفقه شيئًا.

قالت سوزان: ــ يجب أن ننتظرهما.

لم يكن من الممكن فتح اللفافة إلاَّ أمام جوزيف. لا يستطيع الفونوغراف أن يظهر، أن يخرج من المجهول إلاَّ في حضرة جوزيف. لكنه كان من المستحيل شرح ذلك للسيد جو بقدر ما يستحيل أن تشرح له من هو جوزيف.

جلس السيد جو ثانية وفكر بقوة. تجعد جبينه من جهد التفكير، واتسعت عيناه وطقطق بلسانه.

أعلن قائلاً: ــ لست محظوظًا.

كان السيد جو يُصاب بالإحباط سريعًا.

تابع قوله: ــ كأنني بصقت في الماء. لا شيء يؤثر فيك، ولا حتى اهتمامي المرهف بك. إن ما تحبين هم الأشخاص الذين من نوع...

أه! يا لذاك المظهر الذي سيتخذه جوزيف أمام الفونوغراف.

لا يمكن أن يتأخرا في الصعود إلى هنا أكثر من ذلك. لقد جاء السيد جو متأخرًا عن المعتاد بدون أدنى شك بسبب الفونوغراف والآن اقتربت الساعة التي لا يمكنهما فيها إلاَّ أن يتجاهلا ذلك. أما السيد جو، فبمجرد أنه أعطى الفونوغراف، لم يعد له وجود. وبعد أن تجرد من سيارته، ومن بزته الحريرية الرفيعة، ومن سائقه، فربما قد أمسى شفافًا كالواجهة الخالية، والتامة.

ــ من نوع من؟

ــ من نوع أكوستي و... جوزيف، أضاف السيد جو بخجل.

ابتسمت سوزان للسيد جو بسمة عريضة، وللمرة الأولى، واجه تلك الابتسامة، وقد ساعده في ذلك هديته للفونوغراف.

قال بشجاعة: ــ إيه! أجل، أقول بوضوح: من نوع جوزيف.

ــ يمكنك أن تعطيني عشرة من الفونوغرافات، ستبقى الحال دائمًا هكذا.

طأطأ السيد جو رأسه، وقد انهار.

ــ لست محظوظًا، إنك بسبب الفونوغراف تقولين لي كلامًا مؤلمًا.

عاد جوزيف وأمه من الطريق. أما السيد جو فلم يرهما يصلان وقد حافظ بصمت على كرامته المهانة.

قالت سوزان: ــ ها هما.

نهضت ثم اقتربت من السيد جو.

ــ لا تعبس هكذا حردًا.

كان يكفي القليل كي يسترد السيد جو شجاعته. نهض، وجذب سوزان نحوه وضمها بشدة.

أعلن لها بكآبة قائلاً: ــ إنني مجنون بك. لا أدري ما ألم بي، لم أشعر بذلك نحو أحد على الإطلاق.

قالت سوزان: ــ يجب ألاّ تقول لهما شيئًا.

أفلتت آليًا من ذراعي السيد الجو لكن دون أن تكف عن الابتسام لجوزيف، وعن المستقبل الذي كان يقترب.

ــ إن مجرد رؤيتك عارية أمس مساءً قد جعلني لا يغمض لي جفن طوال الليل.

ــ حين يسألان ما هذا، أنا التي أجيبهما.

قال السيد جو وقد يئس من جديد: ــ إنني أقل من لاشيء بالنسبة إليك، وأشعر بذلك بشكل يتزايد يومًا بعد يوم.

صعد جوزيف والأم سلم البيت الخشبي، جوزيف في المقدمة وقد اقتحما غرفة الاستقبال . كانا معفرين بالغبار يقطران عرقًا، وقد تغطت أقدامهما بالوحل اليابس.

قالت الأم: ــ يومك سعيد، كيف حالك؟

قال السيد جو : ــ يومك سعيد، أشكرك، وأنت كيف حالك؟

كان السيد جو يعرف حق المعرفة كيف ينهض، وينحني أمام الأم التي كان يكرهها، ويتقن ذلك جيدًا.

ـــ بالنسبة إلينا، يجب أن تسير الأمور سيرًا حسنًا، الآن وقد وضعت في رأسي تلك الزراعة للموز، يستغرق ذلك وقتًا أطول مني.

مرة ثانية، تقدم السيد جو خطوتين باتجاه جوزيف ثم عدل عن ذلك. لم يكن جوزيف يلقي التحية مطلقًا على السيد جو، ومن العبث الإلحاح.

لا شك أنهما قد رأيا اللفافة على الطاولة. يستحيل ذلك. لا شيء يمكن أن يكشف أنهما قد رأياها إلاَّ مظهرهما في تحاشي رؤيتها، والدوران حول الطاولة عن بعد كي يتجنبا رؤيتها عن قرب كبير، كما لو كانا لا يريان شيئًا. أللهم إلاَّ ضربًا من الابتسامة المكتومة على وجه الأم التي لم تكن تصرخ ذلك المساء ولا تشتكي من تعبها وتتحمل ذاك التعب فرحة.

اجتاز جوزيف غرفة الطعام ليذهب إلى الحمام. أشعلت الأم مصباح الكحول ونادت العريف. كانت تصرخ لتناديه في حين كانت تعرف حق المعرفة أن ذلك لا يجدي نفعًا وأنه كان عليها أن تنادي زوجته لتنبئه بذلك. أينما وجدت، فإنها حينذاك كانت تهرول مسرعة وتسدد له ضربة في ظهره. في تلك الساعة، راح العريف، وقد جلس القرفصاء على التل، يتمتع بفترة الراحة التي تركتها له الأم أخيرًا وأخذ ينتظر برهبة سيارة النقل الكبيرة التي تمر للمرة الثانية. كان يراقب الدرب صامتًا طوال كل ذلك الوقت الذي كان له، أحيانًا طوال

ساعة، حين كانوا يذهبون إلى رام إلى أن يرى سيارة النقل تبرز من الغابة، وبسرعة ستين في الساعة.

قالت الأم:ــ إن صممه يزداد يومًا عن يوم، لقد أصبح شديد الصمم.

ذهبت إلى المستودع، وعادت إلى غرفة الطعام، خافضة العينين. مع ذلك فإن اللفافة وحدها كانت جلية أكثر من أي شيء يحويه البيت الخشبي.

قال السيد جو بنبرة هادئة في الحديث: ــ لقد تعجبت دائمًا من أنكم أخذتم رجلاً أصم، الخدم متوفرون بكثرة في السهل.

عادة، حين كانوا يقررون عدم الذهاب إلى رام، كان ينصرف بعد عودة جوزيف والأم بعدة دقائق. أما ذاك المساء، وقد وقف مستندًا إلى باب غرفة الاستقبال، فإنه كان ينتظر أن تحين ساعته بشكل ظاهر، ساعة الفونوغراف.

قالت الأم: ــ صحيح أن هناك كثيرًا من الخدم. لكن ذاك قد تلقى ضربات كثيرة حتى إنني حين أرى قدميه أقول في نفسي إنني سأتحمله ما بقيت حية...

إذا لم يُقل لهما سريعًا ما مضمون اللفافة فربما قد يؤدي ذلك إلى نتائج وخيمة. إن جوزيف الذي أعياه فضوله كان قادرًا على تسديد ضربة قدم إلى طاولة الخيزران ثم الذهاب وحده إلى رام في

سيارة (B.12). إلاّ أن سوزان التي كانت معتادة إلى حد ما على فورات غضب جوزيف، لزمت صمتًا تامًا، وقد تسمرت في أريكتها. صعد العريف، ورأى اللفافة، فنظر إليها طويلاً، ثم وضع الأرز على الطاولة وشرع في إعداد المائدة. حين انتهى من عمله، نظرت الأم إلى السيد جو ولسان حالها يقول:" ماذا ــ يفعل ــ ذاك ــ هنا ــ في ــ تلك ــ الساعة. " مضى وقت الذهاب إلى رام وهو لا يشك في ذلك.

قالت الأم وقد وجهت الحديث إليه: ــ يمكنك أن تبقى للعشاء، إذا أردت. لم يكن من عادتها أن تكون لطيفة معه على ذاك النحو. لا شك أن دعوتها كانت تبطن رغبتها الخفية بتعذيب جوزيف وسوزان أطول وقت ممكن. هكذا كان لديها بقايا مواقد من صباها لم تخمد، وكذلك انتفاضات مزاج ما زال مرحًا.

قال السيد جو: ــ أشكرك، لا أطلب أفضل من ذلك.

قالت سوزان: ــ ليس هناك ما يؤكل، إنني أنذرك، دائمًا طبق الطيور المائية الكريه.

قال السيد جو بشيء من الدهاء هذه المرة: ــ إنك لا تعرفينني، أحب الأشياء البسيطة في الطعام.

عاد جوزيف من غرفة الحمام ونظر إلى السيد جو وقد بدا كأنه يتساءل " ماذا ــ يفعل ــ ذاك ــ هنا ــ في ــ تلك ــ الساعة ". ثم جلس بعد أن رأى الصحون الأربعة على الطاولة وأن الأمر لا

مفر منه، فلقد صمم على أن يأكل مهما كان الأمر. صعد العريف مرة ثانية وأشعل مصباح الأسيتيلين. حينذاك، وجدوا أنفسهم محاطين بالظلام ومسجونين في البيت الخشبي مع اللفافة.

صرخ جوزيف: ـــ اللعنة، إنني جائع. دائمًا ذاك الطبق الكريه من لحم الطيور المائية؟

قالت الأم للسيد جو: ـــ اجلس.

كان جوزيف قد جلس وحده إلى المائدة. أما السيد جو فكان يدخن سيجارته بنهم كما يفعل دائمًا في حضور جوزيف. كان يخاف منه خوفًا جنونيًا. جلس لاشعوريًا في جهة الطاولة المعارضة لجوزيف. أعطته الأم قطعة من الطيور وقالت بلطف لجوزيف لتسترضيه حتمًا:

ـــ إنني أتساءل ماذا يمكن أن نأكل لو لم تكن هنا لتصطاد تلك الطيور. وأضافت الأم مخاطبة السيد جو، تفوح منها رائحة أقرب من رائحة السمك لكنها طيبة ومغذية

قالت سوزان: ـــ ربما مغذية، لكنها كريهة.

كان الولدان يجدان الأم دائمًا رحيمة وصبورًا عندما يتناولان الطعام.

ـــ كل مساء الحكاية ذاتها، إنهما غير مسرورين على الدوام.

كانوا يتحدثون عن الطيور المائية وكأن لتلك الطيور علاقة خفية، كانوا يجهلونها حتى الآن، مع اللفافة التي استقرت ضخمة على طاولة الخيزران،لم يلمسها أحد شأنها شأن قنبلة لم تنفجر بعد. كان جوزيف الذي يأكل بنهم، وبشكل يفوق فظاظة ما يفعله عادة، يبتلع في الواقع غضبه.

تابعت سوزان: ــ الشيء ذاته، كل مساء، لأننا نأكل طيورًا مائية كل مساء. ليس هناك أي طعام جديد على الإطلاق.

وها هي الأم التي وجدت المخرج نحو المستقبل.

قالت، وهي تبتسم بسمة رائعة من الدهاء المكتوم: ــ صحيح أنه يندر أن يحدث شيء جديد في السهل، في جميع الأحوال.

ابتسمت سوزان، أما جوزيف فلم يُظهر بعد أنه سمع ذلك.

قالت سوزان: ــ قد يحدث ذلك أحيانًا.

سر السيد جو أنه فهم مرادها، وراح يأكل قطعة الطيور المائية بنهم، على عكس الطريقة الباريسية التي اعتادها، في بدء الطعام، وهي أن يتذوق تلك الوجبة الجديدة بالنسبة إليه.

قالت سوزان: ــ إنه فونوغراف.

توقف جوزيف عن الطعام تمامًا. وبدت عيناه تبرقان، تحت جفنيه شبه المرفوعين. كان كل واحد، حتى السيد جو، ينظر إليه.

قال جوزيف: ــ عندنا واحد، منها.

قال السيد جو: ــ أعتقد أن ذاك، كيف أقول؟ أكثر حداثة.

تركت سوزان المائدة، واتجهت نحو اللفافة . مزقت شرائط الورق اللاصقة بها وفتحت علبة المقوّى. ثم أخذت الفونوغراف بحذر ووضعته على طاولة غرفة الطعام. كان أسود، بجلد حُبَيبي وبمقبض مطلى بالكروم. كان جوزيف قد توقف عن الطعام. وراح يدخن مذهولاً وهو ينظر إليها تتصرف. لقد أصيبت الأم بنوع من الخيبة: ذلك أن الفونوغراف، شانه شأن الصيد، نكبة يفرضها جوزيف. رفعت سوزان الغطاء وظهر داخل الفونوغراف: أسطوانة من القماش الأخضر، بذراع من المعدن المطلى بالكروم، يثير الدهشة. كان هناك، على الوجه الداخلي للغطاء لوحة صغيرة من النحاس ظهر عليها كلب صغير أمام كشك يكبره بثلاثة أضعاف. كتِب على اللوحة: ماركة (صوت سيده). رفع جوزيف عينيه، ونظر إلى اللوحة الصغيرة متصنعًا مظهر الخبير (وقد اتخذ هيئة زائفة لخبير عارف) وحاول تشغيل الذراع المطلى بالكروم. وفي أثناء نظره إليه، وبعد أن لمس الفونوغراف بيديه، نسي تمامًا سوزان وكذلك السيد جو، كما نسي أن الفونوغراف قد جاء به السيد جو، وأنهم كلهم هناك فرحون بسعادته، كما نسي الوعود التي قطعها على نفسه بأن لا يظهر أية مفاجأة من ذاك الفونوغراف. رفعه كمن يمشي في نومه، ثم شد برغي الإبرة على الذراع المطلى بالكروم، وشغّله، ثم أوقفه، ثم أعاد تشغيله. رجعت سوزان نحو اللفافة ، وأخرجت ظرفاً من الاسطوانات وأتت بها إليه. كانت كلها باللغة الإنكليزية ما

عدا واحدًا بعنوان: *ذات مساء في سنغافورة*. نظر جوزيف إليها الواحدة تلو الأخرى.

أعلن بصوت منخفض: ــ إنها ترهات، لكن لا يهم.

قال السيد جو بخجل وقد ارتبك قليلاً أمام ثورة غضب جوزيف وأمام اللامبالاة الكاملة التي وضعوه فيها: ــ لقد اخترت أحدث ما يوجد في باريس. لكن جوزيف لم يلح. فلقد استولى على الفونوغراف ووضعه على طاولة غرفة الاستقبال وجلس بالقرب منه. ثم أخذ بعد ذلك أسطوانة، ووضعها على السطح المغطى بالقماش الأخضر ووضع الإبرة على الأسطوانة. ارتفع صوت، كان خفيًا في البدء، مكتومًا، ثم صارخًا، يكاد يكون وقحًا وسط التحفظ الصامت للجميع.

ذات مساء، في سنغافورة
ذات مساء،
من ليلة حب.
ذات مساء، تحت النخيل،
ذات مساء،
من أمسيات الصيف.

ما إن انتهت الأسطوانة حتى كان الجليد قد ذاب. راح جوزيف يغرق في الضحك. وسوزان تضحك. وحتى الأم قالت: "هذا جميل". كان السيد جو يتفجر رغبة بإعادة اعتباره. فأخذ يتنقل من واحد إلى

آخر وهو يسعى إلى أن يُقبَل كمحسن للأسرة. لكن مساعيه باءت بالإخفاق. فلم يكن أحد من الذين حوله يجد ثمة علاقة بين الفونوغراف ومانحه. بعد أسطوانة *ذات مساء في سنغافورة* أخذ جوزيف يضع الأسطوانات الجديدة الواحدة تلو الأخرى، بلا تمييز، وذلك لعدم فهمه للغة الانكليزية. لم يكن أحد يعرف، ذاك المساء، إن كان جوزيف معجبًا بالموسيقا أو مشغوفًا بتشغيل الفونوغراف الآلي والمثالي.

انتهى الأمر بالسيد جو أن انصرف. بعد رحيله، سألت الأم سوزان إن كانت تعرف ثمن الفونوغراف. كانت سوزان قد نسيت أن تسأل السيد جو عن ذلك. خاب أمل الأم إلى حد ما فطلبت بطريقة آلية من جوزيف أن يكف عن اللعب. لكن في ذاك المساء، كانت كأنها تطلب منه أن يكف عن التنفس. لم تلح الأم كثيرًا في طلبها وذهبت تحبس نفسها في غرفتها. حين خرجت من غرفتها، قال جوزيف: " سنسمع *رامونا* ". وذهب ليُحضِر أسطواناته القديمة ومن بينها أسطوانة *رامونا* التي كانت أكثرها قيمة.

يا رامونا، حلمت حلمًا رائعًا.
يا رامونا، لقد رحل كلانا.
كنا نذهب،
متمهلين
بعيدًا عن كل الأنظار الحاسدة
ولم يعرف عاشقان البتة
أمسيات أكثر عذوبة...

لم يكن كل من جوزيف وسوزان يغنيان الكلمات بتاتًا. كانا يدندنان النغم. كان ذاك اللحن بالنسبة إليهما أجمل ما سمعا، وأبلغ ما عرفا. كان اللحن ينساب حلوًا كالعسل. كان السيد جو يدعي أن أغنية *رامونا* لم تعد تُغنى في باريس منذ سنوات، لكن ذلك كان قليل الأهمية بالنسبة إليهما. حين كان جوزيف يُشغل الأسطوانة يصبح كل شيء أكثر وضوحًا، وأكثر صدقًا؛ كانت الأم التي لا تحب تلك الأسطوانة تبدو أكثر شيخوخة أما هما فلقد كانا يسمعان شبابهما يدق على صدغيهما شأن عصفور سجين. وقد يحدث أحيانًا حين لم تكن الأم تصرخ كثيرًا وهما عائدان متمهلين من سباحتهما، أن يصفر جوزيف بذاك اللحن. كانت سوزان تفكر أنهما حين سيرحلان سيصفران بذاك اللحن. إنه كان أنشودة المستقبل، والرحيل، ونهاية نفاد الصبر. إن ما كانا ينتظران هو اللحاق بذاك اللحن الذي ولد من دوار المدن الذي وجد من أجلها، حيث كان يُغنَى، مدن تنهار، أسطورية، ملأى بالحب. كان ذاك اللحن يبعث في جوزيف الشهوة في امرأة من المدينة تختلف اختلافًا جذريًا عن نساء السهل وتكاد لا تستطيع تخيلهن. في رام، كان كذلك لدى الأب بارت *رامونا* بين أسطواناته وكانت أقل استهلاكًا من أسطوانة جوزيف. إن أكوستي بعد أن رقص معها، ذات مساء، على ذاك اللحن جرها فجأة خارج المطعم حتى المرفأ، وقال لها إنها قد أصبحت فتاة جميلة وقبّلها." لا أدري لماذا، فجأة، اشتهيت أن أقبلك." رجعوا جميعًا إلى البيت الخشبي. نظر جوزيف إلى سوزان بهيئة غريبة ثم ابتسم لها بحزن

وتفهم. منذ ذاك الحين، لاشك أن الشاب أكوستي قد نسي ذلك وسوزان لم تكن تفكر في ذاك الحدث على الإطلاق لكنه بقي مرتبطاً بلحن *رامونا*. وكان كلما صفَّر به جوزيف، كانت ذكرى قبلة جان أكوستي في اللحن.

حين انتهت الأسطوانة، سألت سوزان:ـــ كيف تجده، ذاك الفونوغراف؟

ـــ إنه رائع، ثم لا يكاد يحتاج إلى تشغيل.

وبعد فترة:

ـــ هل سألته؟

ـــ لم أطرح أي سؤال.

ـــ هل أعطاك إياه... هكذا؟

ترددت سوزان لحظة قصيرة جدًا:

ـــ لقد أعطاني إياه هكذا.

ضحك جوزيف بصمت ثم أعلن:

ـــ إنه مغفل. أما الفونوغراف، فرائع.

ذات مساء، في رام، بعد أن قدَّم السيد جو الفونوغراف بفترة وجيزة، صمم جوزيف على توجيه الحديث إليه.

كان السيد جو قد قرر أن يمدد إقامته في السهل بحجة أن عليه مراقبة حمولات البهار والمطاط. كان قد استأجر غرفة في المطعم الشعبي في رام وغرفة أخرى في كام، وكان ينام تارة في إحداهما وطورًا في الأخرى كي يحبط بدون شك مراقبة أبيه. وكان يذهب أحيانًا إلى المدينة ليمضي يومًا أو يومين، لكنه يعود، وكل يوم بعد الظهر يقوم بجولة إلى الأرض. فبعد أن أمل كثيرًا من تأثير ثروته في سوزان، بدأ ييأس من ذلك، وربما ساعدته خيبة أمله، فلقد ابتدأ يعشقها بصدق. إن سهر الأم ومراقبة جوزيف قد أججا ولهه فراح يظن أن ما يشعر به هو حب غظيم.

في البداية، كان دافع زياراته الساذج نوعًا ما هو اصطحابهم إلى رام للرقص وللتسلية قليلاً .

كان يعلن، بروح رياضية قائلاً: ــ سأصحبكم لنستنشق الهواء.

كان جوزيف يجيب: ــ الهواء، ليس هذا ما ينقص، إن شأنه شأن الماء.

لكن بعد فترة قصيرة كان ترددهم المعتاد على رام كل يوم بعد الظهر قد بدا لهم شيئًا طبيعيًا حتى إن السيد جو قد أهمل أن يدعوهم إلى ذلك. كانت سوزان، عادة، هي التي تعلن عن ساعة الذهاب إلى رام. وكان جوزيف يذهب معهم بالرغم من اشمئزازه. لأنهم كانوا يذهبون في نصف ساعة بسيارة الــ(Léon Bollée) بدلاً من ساعة

بسيارة (B. 12) وكان ذاك الانتصار وحده قادرًا على إقناعه، ثم كان يروق له أن يشرب وأحيانًا أن يتعشى على حساب السيد جو. وحينذاك اكتشف جوزيف حبه للشراب.

مع ذلك، لم يكن يخفى على أي شخص أن تلك النزهات التي كان يقترحها السيد جو تهدف كل مرة، شأنها شأن الهدايا، إبعاد ما كان يُنتَظر منه. وقد راحت تلك النزهات تتم سريعًا في جو من الاشمئزاز والغضب لم يعد ينجح كرم السيد جو وحسن ضيافته في إجلائهما. لم تعد الأمور تطاق إلاّ حين كانوا يشربون ما فيه الكفاية، لاسيما جوزيف، فيهمل حينئذ السيد جو إلى درجة لم يعد يراه فيها. وبالطبع بما أنه لم يكن أحد من الثلاثة معتادًا على الشمبانيا، فإن التأثير المرغوب كان يأتي سريعًا. حتى الأم التي لم تكن تحب أن تشرب، كانت تشرب. كانت تدعي أنها تشرب " لتغرق خجلها "، كانت تقول:

ــ بعد كأسين من الشمبانيا، أنسى لمَ أتيت إلى رام ويبدو لي أنني أنا التي أخدعه بدلاً من أن يخدعني.

أما السيد جو، فلقد كان قليل الشرب . كان يقول إنه قد شرب كثيرًا، حتى كاد ينعدم تأثير الشراب فيه. أللهم إلاّ أمام سوزان فإن تأثير الشراب يؤجج اندفاعه فيصبح أشد كآبة. كان ينظر إليها وهي ترقص بنظرات متيمة حتى إن جوزيف كان يتابع نظراته باهتمام حين لم يكن في المطعم تسليات أخرى.

كان يقول عنه: ــ إنه يلعب دور رودولف فالنتينو، لكن ما يؤسف أن رأسه أقرب إلى مظهر رأس العجل.

كان هذا التعبير يفتن الأم فتضحك. كانت سوزان وهي ترقص، تستشف ما كان يثير ضحكهما على عكس السيد جو، أو ربما قد عدل بحذر عن البحث عن أسباب فيض بهجتهما.

كانت الأم تستعيد قوله مشجعة: ــ إنه جميل، العجل.

لا شك أن مقارنات جوزيف في تلك الأمسيات كانت مشبوهة، لكن ذلك لم يكن ذا أهمية بالنسبة إلى الأم، كانت تجد تشبيهاته في منتهى الكمال. فتأخذ كأسها وترفعه وهي في قمة الاشمئزاز، وقد انطلقت على سجيتها.

كانت تقول: ــ في انتظار...،

كان جوزيف يؤيدها وهو ينفجر ضاحكًا: ــ لا أصدق ذلك.

كانت سوزان عن بعد تقول للسيد جو، وهي ترقص: ــ إنهما يشربان نخب صحتنا.

ويجيب السيد جو بقوله: ــ إن ذلك يدهشني، فهما لا يشربان نخب صحتنا البتة، في حضورنا...

قالت سوزان وهي تبتسم: ــ إنه الحياء.

همس السيد جو: ــ إن ابتسامتك تذهب بالعقل.

تابعت الأم قائلة: ــ في انتظار ذلك، لم أشرب قط في حياتي كل هذا القدر من الشمبانيا.

كان جوزيف يحب أن يرى أمه في تلك الحالة من المرح الصاخب والسوقي والمرتوي والذي كان وحده قادرًا على خلقه لديها. وقد يحدث أحيانا حين كان يضجر كثيرًا، أن يستمر في المزاح طوال السهرة وبشكل غير مباشر، حتى في حضور السيد جو، مثلاً حين كان هذا الأخير لا يرقص ويدمدم بصوت منخفض، وهو ينظر إلى سوزان، بأغان فيها شيء من التلميح: *باريس أحبك، أحبك، أحبك*... كان جوزيف يسترجع الأغنية وهو يمط الكلمات على الطريقة التي يُخيل إليه أنها طريقة العجل. كان ذلك يثير الضحك لدى الجميع، والابتسام فقط، وبمشقة كبرى، لدى السيد جو.

إلاّ أن جوزيف، كان في معظم الأحيان يرقص، ويشرب، ولا يهتم بالسيد جو على الإطلاق. كان يذهب ليتجاذب أطراف الحديث مع أكوستي، أو على المرفأ ينظر إلى تحميل البريد، أو يذهب ليسبح على الشاطئ. في تلك الحالة، كان يعلن ذلك إلى سوزان وإلى الأم اللتين تلحقان به، ويتبعهما السيد جو مع مسافة تفصله عنهما. حين كان جوزيف يبالغ في الشرب إلى حد ما، يدعي أنه يريد أن يسبح حتى الجزيرة القريبة من الشاطئ والواقعة على بعد ثلاثة كيلومترات من هناك. كان لا يتحدث البتة عن هذا المشروع حين يكون لم يأكل بعد، أما في تلك الليالي فلقد كان يشعر بأنه أهل للقيام بذلك. في الواقع كان يغرق قبل أن يصل إلى الجزيرة بكثير. لكن الأم كانت

تشرع في الصراخ. وتأمر السيد جو أن يشغل سيارته التي من طراز (Léon Bollée). كان هدير المحرك وحده قادرًا أن ينسي جوزيف مشروعه. أما السيد جو الذي كان يجد سلوك الجلاد لا يخلو من الأهمية فلقد كان يطيع مرغمًا على ما يبدو.

حدث في إحدى الأمسيات التي كانت تجري في المطعم الشعبي في رام أن تحدث جوزيف عن سوزان إلى السيد جو وعبر له وبشكل قاطع عن وجهة نظره. ثم بعد ذلك، لم يعد يوجه إليه الكلام، إلاَّ بعد ذلك بوقت طويل، وكان يُظهر له احتقارًا ملكيًا عظيمًا.

كانت سوزان ترقص مع السيد جو كالعادة. وكانت الأم تنظر إليهما بحزن. وقد يحدث أحيانًا حين لم تكن تشرب بقدر كاف، أن تزيد الشمبانيا من حزنها لرؤية السيد جو. وبالرغم من وجود أناس كثيرين ذاك المساء في المطعم لاسيما المسافرات، لم يكن جوزيف يرقص. ربما قد سئم الرقص كل مساء أو ربما تصميمه على التحدث إلى السيد جو قد أزال لديه الرغبة في ذلك. كان ينظر إليه وهو يرقص مع سوزان بطريقة أكثر حرية من المعتاد.

ابتدأ يقول فجأة: ــ هذا من يسمى بشخص فاشل.

لم تكن الأم مقتنعة بذاك القول.

ــ هذا لا يعني شيئًا. أنا أيضًا من أفشل الناس.

ازدادت تجهمًا واكتئابًا.

ـــ البرهان على ذلك أن الحل الوحيد بالنسبة إليّ هو أن أزوج ابنتي بهذا الفاشل.

قال جوزيف: ـــ الأمر مختلف، لم يحالفك الحظ. ثم، في الحقيقة، معك حق، هذا لا معنى له. المهم أن يقرر. سئمنا الانتظار.

تأوهت الأم قائلة: ـــ لقد طال انتظاري كثيرًا. بخصوص الأرض، بخصوص السدود. ولمجرد رهن تلك الهكتارات الخمسة، أنتظر منذ عامين.

نظر إليها جوزيف كأن الوحي قد هبط عليه.

ـــ إننا لا نقوم إلاَّ بالانتظار، لكن يكفي أن نقرر أننا لم نعد ننتظر. سأحدثه بذلك.

عاد السيد جو من رقصه مع سوزان. بينما كان يقطع الحلبة، قالت الأم:

ـــ حين أنظر إليه أحيانًا، يبدو لي أنني أنظر إلى حياتي وليس هذا المشهد بجميل.

ما إن جلس السيد جو، حتى ابتدأ جوزيف كلامه معلنًا:

ـــ إننا نضجر.

كان السيد جو قد اعتاد لغة جوزيف.

قال: ـــ عفوًا، سنطلب زجاجة أخرى من الشمبانيا.

قال جوزيف: ــ ليس هذا هو المقصود، إننا نضجر بسببك.

احمر وجه السيد جو حتى عينيه.

قالت الأم: ــ كنا نتحدث عنك، ولقد وجدنا أننا نضجر. لقد مضى على ذلك زمن طويل ونرى بوضوح إلى أين تريد أن تصل. من العبث أن تجرّنا كل مساء إلى رام، فإن هذا لا يخدع أحدًا.

ــ كنا نقول لبعضنا كذلك إنه ليس من الصحيح أن تشتهي مضاجعة أختي هكذا منذ أكثر من شهر. أنا لا أطيق تحمل ذلك البتة.

خفض السيد جو عينيه. قالت سوزان في نفسها ربما سينهض السيد جو ويرحل. لكن الخيال كان ينقصه فلم يفكر في ذلك على الإطلاق. لم يكن جوزيف قد شرب كثيرًا، كان يتحدث بدافع من الحزن والاشمئزاز اللذين كبتهما كل ذاك الوقت حتى بدا أنه قد ارتاح من سماعه يعبر في النهاية عن كل تلك الأمور.

قال السيد جو بصوت منخفض جدًا: ــ لا أخفي أنني أشعر نحو أختك بإحساس عميق.

كان يتحدث كل يوم إلى سوزان عن المشاعر التي كان يحسها نحوها. أنا إذا ما تزوجته، فإن زواجي منه يخلو من أية مشاعر نحوه. إنني أستغني عن العواطف. كانت تحس أنها في صف جوزيف أقوى من أي وقت مضى .

قالت الأم، وقد أصبحت فظة بشكل مفاجئ محاولة أن تأخذ نبرة جوزيف:

ــ قل ذلك لغيرنا.

قال جوزيف: ــ هذا ممكن، لكن ذلك لا علاقة له. كل ما يهم هو أن تتزوجها.

ثم أشار إلى الأم:

ــ بالنسبة إليها. أنا على يقين أنه كلما زادت معرفتي بك، قل رضائي عن ذلك.

استجمع السيد جو بعضًا من شجاعته. خفض عينيه بعناد. كان الكل ينظر إلى هذا الرأس المغلق، وتلك الشخصية التي يوازي عماها عمى مصلحة المساحة والمصرف والباسيفيك، وقد وجدوا أنفسهم بلا حول ولا قوة ضد ملايين ذاك الرأس كما الحال ضد كل تلك القوى. إذا كان السيد جو يعرف النزر اليسير فلقد كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتزوج من سوزان.

قال بصوت خجول: ــ لا يمكن لأحد أن يقرر الزواج من شخص ما في خمسة عشر يومًا.

ابتسم جوزيف. كان ذلك صحيحًا بشكل عام.

قال: ــ في بعض الحالات الخاصة، يمكن أن يقرر المرء في خمسة عشر يومًا. وذاك هو الحال.

رفع السيد جو عينيه ثانية. لم يكن يفقه شيئًا. كان على جوزيف أن يشرح وجهة نظره لكن الأمر كان عسيرًا، لم ينجح في ذلك.

قالت الأم: ـــ لو كنا أثرياء لاختلف الأمر. لدى الأغنياء يمكن الانتظار عامين.

قال جوزيف: ـــ ذاك أسوأ لك إن كنت لا تفهم، إما هذا الحل وإما لا شيء.

انتظر قليلاً ثم قال بصوت بطيء مشدد.

ـــ هذا لا يعني أننا نمنعها من أن تضاجع من تريد، لكنك إذا أردت مضاجعتها، فعليك أن تتزوجها. تلك طريقتنا الخاصة بنا في أن نقول لك سحقًا لك.

رفع السيد جو رأسه مرة ثانية. كان اندهاشه أمام كل تلك الصراحة الشائنة قد جعله ينسى أن يستاء منها.على كل حال كانت تلك اللغة لا تعنيه كثيرًا. وقد يتساءل المرء فيما إذا لم يكن جوزيف قد تحدث لنفسه فقط، ولكن ليسمعه الناس وهو يظهر ما اكتشفه: ألا وهو الكلمة النهائية فيما يخص السيد جو وأمثاله.

أضاف جوزيف: ـــ منذ زمن طويل وأنا أود أن أقول لك ذلك.

قال السيد جو: ــ أنتم قساة، لم أستطع تصديق ذلك أول مساء...

كان يكذب. منذ أسبوع وكل واحد ينتظر ذلك.

قالت الأم بلهجة المصالحة:ــ لا أحد يرغمك على الزواج منها. إننا ننبهك فقط.

كان السيد جو يتحمل كل تلك الأقوال. وكان من الممكن لبساطة السيد جو أن تؤثر على كثير من الناس.

قال جوزيف وهو يضحك فجأة: ــ ثم، حتى إذا قبلنا كل شيء، من فونوغرافات، وشامبانيا، فإن ذلك لن يفيدك.

رنت الأم نحو السيد جو بنظرة أقرب إلى الشفقة.

قالت له بنبرة من يفسر: ــ إننا أناس تعساء جدًا.

رفع السيد جو أخيرًا عينيه نحو الأم ووجد أنه يستحق أن تُقدم له تفسيرًا، نظرًا إلى المصير الغاشم الذي أعدوه له.

قال: ــ أنا أيضًا، لم أشعر يومًا بالسعادة على الإطلاق، لقد أرغمت دائمًا على القيام بأشياء لم أرغب في القيام بها. منذ خمسة عشر يومًا أقوم إلى حد ما بما أحب القيام به وها هو ذا...

لم يعد جوزيف يعيره أي اهتمام.

قال لسوزان: ــ قبل أن أذهب، أحب أن أرقص معك.

طلب من الأب بارت أن يضع أسطوانة *رامونا*. ذهب الاثنان للرقص. لم يفه جوزيف لسوزان بأية كلمة عن حديثه مع السيد جو. حدثها عن *رامونا*.

ــ عندما أحصل على شيء من المال، سأشتري أسطوانة جديدة *لرامونا*.

كانت الأم، من الطاولة ، تنظر إليهما يرقصان. أما السيد جو، الجالس أمامها، فلقد راح يلعب بخلع خاتمه الماسي وإعادة لبسه.

قالت الأم: ــ إذا كان فظًا أحيانًا، فليس ذلك ذنبه، فهو لم يتلقَ أية تربية.

قال السيد جو بصوت منخفض:ــ إنها تسخر مني، فهي لم تنبس ببنت شفة.

قالت الأم: ــ بما أنك في منتهى الثراء...

ــ لا علاقة للمال في ذلك، بل على العكس.

ربّما هو أقل غباءً إلى حد ما عما يبدو.

صرح بقوله: ــ يجب أن أدافع عن نفسي.

نظرت الأم متسائلة عما كان عليه أن يدافع عنه. كانا يرقصان على لحن *رامونا*. كانا جميلين. بمجمل القول لقد صنعت بالرغم من كل شيء طفلين جميلين. كانا يبدوان سعيدين بالرقص معًا. وجدت أنهما يشبه كل منهما الآخر. كان لهما الكتفان نفسهما، هما كتفاها

هي، ولون الوجه ذاته، والشعر الضارب إلى الحمرة قليلاً ، شعرها هي، وفي العينين الوقاحة السعيدة ذاتها. كانت سوزان تزداد شبهًا بجوزيف. كانت تظن أنها تعرف سوزان أفضل مما تعرف جوزيف

قال السيد جو بصوت مرهق: ــ إنها صغيرة.

قالت الأم وهي تبتسم:ــ ليس كما تظن، لو كنت في مكانك لتزوجتها.

انتهت الرقصة. لم يرغب جوزيف في الجلوس.

قال: ــ هيا نرحل.

منذ ذاك اليوم لم يعد يوجه الكلام إلى السيد جو.

راحت علاقتهما تزداد تباعدًا. وفي الواقع، راحوا يتصرفون نحوه بحرية أكبر في الكلام وفي السلوك تزداد عن ما سبق.

كانوا في غرفة الاستقبال، كالعادة دائمًا، ودائمًا تحت أنظار الأم، راح السيد جو يعلم سوزان كيف تطلي أظافرها. كانت سوزان تجلس أمامه، وتلبس ثوبًا جميلاً من الحرير الأزرق كان قد جلبه لها، إلى جانب أشياء أخرى، منذ الفونوغراف. كانت مصفوفة على الطاولة ثلاث قارورات لطلاء الأظافر متنوعة الألوان، ووعاء صغير للكريم وقارورة عطر.

قالت سوزان متذمرة: ــ حين نزعتَ الزوائد الجلدية عن أظافري، شعرتُ بالوخز.

لم يكن السيد جو في عجلة كي ينهي عمله وذلك ليبقي يد سوزان في يده أطول مدة ممكنة. كان قد قام بثلاث محاولات.

قال أخيرًا، وهو يتأمل عمله بنظرة عارف: ــ هذا اللون هو الأكثر ملاءمة لك.

رفعت سوزان يدها لتحسن رؤيتها. كان طلاء الأظافر الذي اختاره السيد جو ذا لون أحمر ضارب إلى البرتقالي، يظهر جلدها أكثر سمرة. لم يكن لها رأي محدد كثيرًا في هذا الموضوع. أعطت يدها الأخرى إلى السيد جو ليطلي أظافرها فأخذها وقبّل باطنها.

قالت سوزان:ــ يجب العمل بسرعة، إن كنا سنذهب إلى رام، لا تزال أمامك اليد الأخرى.

في مجال الرؤية من الباب المفتوح كانا يشاهدان جوزيف، يساعده العريف، وهو يحاول أن يعيد توازن الجسر الخشبي الصغير الواقع في الدرب. كانت الشمس حارقة. فمن وقت إلى آخر، كان جوزيف يطلق شتائم بدت موجهة إلى السيد جو الذي اعتاد بلا شك هذا النوع من المعاملة، بدا كأنه لا يعتبر ذلك موجهًا إليه.

ــ ابن النذل، بالرغم من سيارته التي قوتها أربعة وعشرون حصانًا، فإنني أزعجه.

قالت سوزان: ــ هذا صحيح، إنك أنت الذي أرهقت الجسر، يجب أن تترك سيارتك على الطريق.

بعد أظافر اليدين، طلى لها السيد جو أظافر الرجلين. كاد أن ينتهي من عمله. وضعت قدمًا على الطاولة كي يجف الطلاء في حين راح يقوم "باللمسات" الأخيرة على القدم الأخرى.

قالت سوزان: ــ يكفي هكذا، وقد نسيتْ أنه ليس في استطاعة السيد جو، أن يطلي أكثر مما فعل، وإن كان راغبًا في ذلك.

تنهد السيد جو، وتخلى عن رجل سوزان وأسند ظهره إلى الكرسي. كان قد أنهى عمله. راح يعرق قليلاً .

سأل السيد جو: ــ ما رأيك في أن نرقص قليلاً بدلاً من الذهاب إلى رام؟ أن نرقص على أنغام الفونوغراف الجديد؟

قالت سوزان:ــ لا يريد جوزيف أن نمسه، ثم إنني مللت من الرقص.

تنهد السيد جو من جديد وأخذ مظهر المتوسل.

ــ ليس ذنبي أن أشتهي ضمك بين ذراعيْ...

نظرت سوزان إلى قدميها وإلى يديها برضا.

ــ أنا لا أرغب أن أكون بين ذراعي أحد.

طأطأ السيد جو رأسه.

قال بنبرة مثقلة بالألم: ــ إنك تعذبينني كثيرًا.

ـــ سأرتدي ملابس الخروج للذهاب إلى رام. ابقَ هنا. إذا لم ترك أمي فإنها ستوبخني.

قال السيد جو وهو يبتسم بحزن كبير: ـــ لا تخافي.

ذهبت سوزان إلى الشرفة ونادت قائلة: ـــ جوزيف،سنذهب إلى رام

صرخت الأم: ـــ سنذهب إذا أردت ذلك، فقط إذا أردت أنا الذهاب فسنذهب!

استدارت سوزان نحو السيد جو.

ـــ تقول ذلك لكنها ترغب في الذهاب .

كان السيد جو غير مكترث بالمناقشة. راح ينظر إلى ساقي سوزان اللتين كانتا ترتسمان بشفافية في ثوبها الحريري.

قال لها: ـــ إنك لا تزالين عارية تماما تحت ثوبك، وأنا لا يحق لي شيء البتة.

بدا في منتهى اليأس وأشعل سيجارة.

وتابع قوله: ـــ لم أعد أعرف ما يجب أن أفعله كي تحبيني. أعتقد أننا إذا تزوجنا فسأكون تعيسًا بشكل مخيف.

بدلاً من أن تذهب لترتدي ملابسها للخروج، جلست سوزان أمامه ونظرت إليه بضرب من الفضول. لكنها تحولت عنه فورًا،

وهي تتابع النظر إليه دون أن تراه كما لو كان شفافًا، وكما لو أن عليها أن تمر عبر ذاك الوجه لتستشف وعود المال التي تُصيب بالدوار.

ختم السيد جو قوله باستسلام: ــ إذا تزوجنا، فسأحبسك.

ــ ما نوع السيارة التي سأحصل عليها، إذا ما تزوجنا؟

ربما كانت تطرح ذاك السؤال للمرة الثلاثين. لكنها لم تكن تمل البتة من ذاك النوع من الأسئلة. تكلف السيد جو مظهر اللامبالي.

ــ النوع الذي ترغبين فيه، لقد قلت لك ذلك سابقًا.

ــ وجوزيف؟

قال السيد جو بسرعة: ــ لا أدري إن كنت سأعطي جوزيف سيارة، لا أستطيع أن أعدك بذلك. سبق أن قلته لك.

توقفت نظرة سوزان عن اكتشاف المناطق العجيبة للثروة لتعود نحو هذا العائق الذي كان يمنعها من أن تتيه فيها. انمّحت ابتسامتها. تغير وجهها الى حد دفع السيد جو إلى أن يتابع حديثه فورًا:

ــ هذا يتوقف عليك، وأنت تعرفين ذلك، يتوقف على موقفك نحوي.

قالت سوزان بعذوبة مُقنِعة: ــ تستطيع أن تقدم سيارة، فيكون الأمر سواء.

قال السيد جو بلهجة يائسة: ــ لم نتطرق قط إلى تقدمة سيارة لأمك، لست بالثراء الذي تعتقدينه.

ــ بالنسبة إليها الأمور لا بأس بها أما إذا لم يحصل جوزيف على سيارة، فيمكنك أن تحتفظ بكل سياراتك، بما فيها سيارتي وأن تتزوج بمن تشاء.

أمسك السيد جو بيد سوزان كي يمنعها من الانزلاق في الفظاظة. ارتسم على وجهه تعبير توسلي، كأنه أقرب إلى الدموع.

ــ أنت تعلمين حق العلم أن جوزيف سيحصل على سيارته، إنك تدفعينني إلى أن أكون شريرًا.

استدارت سوزان نحو جوزيف الذي كان قد انتهى من تصليح الجسر الصغير الخشبي. إنه الآن يُدعم الأعمدة بالحجارة التي أتى بها من الطريق. كان باستمرار يتأفف من الغضب.

ــ سنرغم هؤلاء الأوغاد المرة القادمة على أن يقوموا هم أنفسهم بالتصليح، وإذا ما عاودوا الكرة فسنضع الرمل في حارق سيارتهم. إن الرمل متوافر هنا.

منذ فترة، كانت سوزان كلما فكرت في جوزيف، انقبض قلبها، لاشك لأنه لم يكن لجوزيف أحد في حين كان لها السيد جو بالرغم من كل شيء.

قال هذا الأخير بصوت ضعيف: ــ بمجرد أن أمسك يدك، فإن ذلك يبعث فيَّ شعورًا رائعًا.

كانت قد تركت له يدها. كانت تترك له يدها أحيانًا لحظة قصيرة. مثلاً حين يكون موضوع الحديث السيارة التي سيقدّمها إلى جوزيف إذا ما تزوجا.

راح ينظر إلى تلك اليد، يستنشقها، يقبلها وكان ذلك يجعله بشكل عام ذا مزاج رائع.

ــ حتى إذا لم أكن أخته فإنه ليسرني أعظم السرور أن تعطي جوزيف سيارة

ــ يا عزيزتي الصغيرة، إن هذا يسرني، كوني واثقة من ذلك.

قالت سوزان: ــ أعتقد أنه سيصبح مجنونًا إذا ما أعطيَ سيارة.

ــ سيحصل عليها يا صغيرتي سوزان، سيحصل عليها، يا كنزي الصغير.

راحت سوزان تبتسم. سآتي بالسيارة تحت البيت الخشبي، ليلاً، بينما يكون هو في الصيد وعلى المقود سأدلّي قطعة من الورق المقوى أكتب عليها: إنها لجوزيف.

كاد أن يصل الحد بالسيد جو إلى أن يعد العريف بسيارة كي يحسن الاستفادة من شرود سوزان المتألق. كان قد وصل نحو الساعد، أعلى بقليل من المرفق. فجأة أدركت ذلك سوزان.

قالت وهي تسحب ذراعها: ــ سألبس ملابس الخروج.

نهضت وأغلقت على نفسها باب الحمام الصغير. بعد لحظة دق السيد جو الباب. منذ هدية الفونوغراف، اعتاد ذلك وهي أيضًا. كانت الأمور تجري على هذا الشكل كل مساء.

ــ افتحي لي، يا سوزان، افتحي لي.

ــ أود من كل قلبي أن تصعد هي في هذه اللحظة، هذا ما أوده...

ــ ثانية واحدة، قدر ما يكفي لأراكِ...

ــ هي أو جوزيف. إن جوزيف قوي. بضربة قدم يرسل الناس إلى النهر.

ــ لم يكن السيد جو يسمع.

ــ لحظة صغيرة فقط، ثانية قصيرة.

لم يكن السيد جو يجهل ما يخاطر به. لكنه كان يسمع صوت الماء ينهمر على سوزان ولم يكن هلعه من جوزيف يقاوم رغبته. بكل قواه ضغط على الباب.

راح يكرر بصوت مخنوق: ــ بمجرد التفكير في أنك عارية تمامًا، بمجرد التفكير في أنك عارية تمامًا.

قالت سوزان: ــ إنك تتحدث عن شيء ما. لو كنت مكاني لما اشتهيت أن أراك.

حين كانت تتصور السيد جو، بدون ماسته، وقبعته، وسيارته الفخمة، وهو يتنزه بلباس السباحة على شاطئ رام مثلاً، كان غضب سوزان وغيظها يتفاقمان إلى حد كبير.

ــ لماذا لا تسبح في رام؟

استجمع السيد جو بعضًا من رباطة جأشه واستند بشكل أخف إلى الباب.

قال بكل ما استطاع من حزم: ــ إن حمامات البحر محظورة عليَّ.

كانت سوزان تغتسل بالصابون، وهي سعيدة. كان قد اشترى لها صابونًا معطرًا بالخزامى ومنذ ذلك الحين وهي تغتسل مرتين إلى ثلاث مرات يوميًا كي يتسنى لها التعطر. كانت رائحة الخزامى

تصل إلى السيد جو وهي تسمح له في أن يتابع بشكل أفضل مراحل استحمام سوزان مما يشحذ عذابه.

ـــ لماذا تحظر عليك الحمامات؟

ـــ لأنني ضعيف البنية وإن حمامات البحر ترهقني. افتحي، يا صغيرتي سوزان... ثانية واحدة...

ـــ هذا ليس صحيحا، لأن جسمك ليس متناسقًا.

كانت تستشفه، وقد التصق بالباب، يتحمل كل ما كانت تقوله له لأنه كان واثقًا من الفوز.

ـــ ثانية، لا شيء سوى ثانية واحدة...

ـــ تذكرت ما قاله له جوزيف في رام. " إنني لا أمنعها من مضاجعة من تريد لكن بالنسبة إليك، إذا أردت مضاجعتها، فعليك أن تتزوجها. تلك طريقتنا في تعجيزك. "

ـــ إن جوزيف على حق حين قال...

كان السيد جو يدفع الباب بكل ثقله.

ـــ لا يهمني ما يقول جوزيف.

ـــ ليس هذا صحيحًا، أنت تخاف من جوزيف، حتى إن فرائصك ترتعد بشكل غير مألوف.

صمت ثانية ولم يعد ملتصقًا بالباب كثيرًا.

قال بصوت منخفض: ــ أعتقد أنني لم أرَ قط أحدًا شريرًا مثلك.

توقفت سوزان عن الاغتسال. كانت الأم تقول ذلك أيضًا.هل هذا صحيح؟ نظرت إلى ذاتها في المرآة وحاولت البحث عبثًا عن علامة ما قد تثيرها. كان جوزيف ينفي ذلك بقوله إنها ليست بشريرة لكنها قاسية ومتكبرة، كان يطمئن الأم. لكنها وقد سمعت نفسها تقول ذلك، وسمعت كذلك السيد جو يقوله، قد أحست بنوع من الهلع. حين قال لها السيد جو ذلك، فتحت له الباب. لذا راح يردد ذلك على مسامعها بشكل متزايد.

ــ اذهب لترى إن كانوا لا يزالون من الجهة الأخرى.

سمعته يقفز في غرفة الاستقبال . راح يعسكر على باب الدخول وأشعل سيجارة. حاول جاهدًا أن يكون هادئًا لكن يديه كانتا ترتجفان. لم يكن جوزيف والعريف قد انتهيا من دعم أعمدة الجسر. لم يكن يبدو أنهما يرغبان في الدخول فورًا. جاءت الأم تنضم إليهما وكانت تبدو مستغرقة كثيرًا شأنها كل مرة تتابع عملاً يقوم به جوزيف. رجع السيد جو نحو غرفة الحمام.

ــ إنهم باقون هناك، بسرعة يا سوزان!

فتحت سوزان الباب قليلاً. قام السيد جو بقفزة نحوها. أغلقت سوزان الباب بفظاظة. بقي السيد جو وراءه.

قالت سوزان: ــ اذهب الآن إلى غرفة الاستقبال .

شرعت تلبس ثانية. كانت تلبسُ بسرعة، دون أن تنظر إلى نفسها. قال لها، عشية الأمس، إذا وافقت على القيام معه بسفرة صغيرة إلى المدينة فسيعطيها خاتمًا ماسيًا. سألته عن ثمن الماسة، لم يحدده لها لكنه قال إنه يساوي البيت الخشبي. لم تحدث جوزيف بذلك. قال لها إن هذا الخاتم لديه، وإنه ينتظر أن توافق كي يعطيها إياه. لبست سوزان ثوبها. لم يعد يكتفي أن تفتح له باب غرفة الحمام. كان ذلك كافيًا بالنسبة إلى الفونوغراف لكنه غير كاف بالنسبة إلى الماسة. فالماسة تساوي عشرة، عشرين فونوغرافًا. ثلاثة أيام في المدينة، لن ألمسك، سنذهب إلى السينما. لم يحدثها في ذلك إلاّ مرة واحدة، عشية الأمس بصوت منخفض وهو يراقصها. ماسة تساوي وحدها البيت الخشبي.

فتحت سوزان الباب وذهبت تتزين في النور، على الشرفة. ثم ذهبت للقاء السيد جو في غرفة الاستقبال . كانت تلك اللحظة الدقيقة الوحيدة في اليوم تساءلت فيها بحيرة إن كان لا يستحق مع ذلك شيئًا من اللطف والمودة: بعد مشهد غرفة الحمام بدا منهارًا، وقد سُحق بتحمله ثقلاً كهذا، برغم ضعفه، وإعصارًا من الرغبة على هذا النحو. إن قدره في أن يتحمل اختبارًا على هذا الشكل قد أعطاه شيئًا إنسانيًا. أما سوزان فلقد بحثت كثيرًا لكنها لم تجد كيف تقول له ذلك وبطريقة لا تخدعه فيها. تخلت إذن عن الفكرة. كانت النزهة إلى رام في تلك الساعة تُقَرَّر، كل مساء، ويصبح ذلك بسرعة أهم شيء. كان

جوزيف قد انتهى من تصليح الجسر لكن الأم كانت تحدثه دائمًا عن أمر ما بلا أهمية.

قال لها السيد جو دون أن يرفع رأسه: ــ أنت جميلة.

كانت تُسمع صيحات الأطفال الذين يلعبون في الماء. لم تكن الأم تهتم بالذهاب إلى رام. كانت هي عجوزًا. كانت مخبولة وشريرة. كان يأتي إلى رام رجال، وصيادون، ومزارعون، أما هي فماذا يمكن أن تفعل؟ سيأتي يوم تغادر سوزان السهل وكذلك الأم في آن واحد. نظرت إلى السيد جو. ربما ستغادر معه، بالرغم من كل شيء، لأنها كانت في منتهى الفقر ولأن السهل كان نائيًا جدًا عن كل المدن حيث يوجد الناس.

قال السيد جو: ــ إنك جميلة ومثيرة.

ابتسمت سوزان للسيد جو.

ــ ليس لي من العمر إلاَّ سبعة عشر عامًا، سأصبح أكثر جمالاً.

رفع السيد جو رأسه.

ــ حين سأخرجك من هنا، ستتركينني، إنني متأكد من ذلك.

كانت الأم وجوزيف يصعدان السلم ثانية. كانا يعانيان من وطأة القيظ. راح جوزيف يمسح جبينه بمنديل. نزعت الأم قبعتها القشية فظهرت علامة حمراء تقطع صدغيها.

قال جوزيف لسوزان: ــ ها أنت ذي، لا تعرفين أن تتزيني، كأنك عاهرة حقًا.

قالت الأم: ــ إنها تشبه ما هي، ما الحاجة لأن تحضر لها كل هذه الأشياء؟

ارتمت على المقعد بينما ذهب جوزيف إلى غرفته مشمئزًا.

سألت سوزان: ــ هل سنذهب إلى رام؟

سألت الأم بسوقية: ــ ماذا فعلتما كلاكما؟

ــ سيدتي، إنني أحترم ابنتك إلى أبعد الحدود...

ــ إذا ما لاحظت شيئًا ما فسأرغمك على الزواج بها خلال الأيام الثمانية القادمة.

نهض السيد جو وأسند ظهره إلى الباب. وراح يدخن بدون توقف كما يحدث دائمًا في حضور الأم أو جوزيف، ولا يجلس البتة.

قالت سوزان: ــ لم نفعل شيئًا، حتى لم يلمس أحدنا الآخر، لا تقلقي، لست غبية إلى هذا الحد، أعرف جيداً...

ــ اسكتي. لم تفهمي شيئًا على الإطلاق.

خرج السيد جو إلى الشرفة. لم تعد سوزان تتساءل هل سيذهبون إلى رام. مع الأم لا يمكن معرفة شيء. لا يمكن الاعتماد على جوزيف الذي كان يشعر نحو السيد جو باشمئزاز كبير حتى إنه

لا يتحدث عن رام بالرغم من رغبته اليومية في الذهاب إلى هناك. جذبت الأم إليها مقعدًا ومدت رجليها. كان يرى أسفل قدميها اللتين تذكران بقدمي العريف إلى حد ما، كان جلدهما قاسيًا ومتآكلاً من حصى الهضبة. كانت تتنهد بقوة بين الفينة والفينة وتنشف جبينها. كان وجهها أحمر ومحتقنًا.

ــ أعطني شيئًا من القهوة.

نهضت سوزان وذهبت لتأخذ ليتر القهوة الباردة الموجود فوق خزانة الأواني. سكبت منه في فنجان وأتت به إليها. أنت الأم أنينًا خفيفًا وهي تأخذ الفنجان من يدي سوزان.

ــ لم أعد أستطيع التحمل، أعطيني حباتي من الأدوية.

ذهبت سوزان تبحث عن الحبات وأتت بها إليها. كانت تطيع صامتة. هذا كان الأفضل، الطاعة بصمت: كان غضب الأم يذوب وحده. كان السيد جو لا يزال على الشرفة. وجوزيف يستحم: كان يسمع صوت الوعاء الذي يصطدم بالجرة في غرفة الحمام الصغيرة. كادت الشمس أن تغرب تمامًا. خرج الأطفال من الماء وراحوا يركضون نحو الأكواخ.

ــ أعطني نظارتيَّ.

ذهبت سوزان لتحضر النظارة من غرفة النوم وتأتي بها إليها. كان بإمكانها أن تطلب منها أشياء أخرى كثيرة، دفتر حساباتها، حقيبة يدها. وعليها أن تطيعها. كانت تستمتع باختبار صبر طفليها،

وتتذوق حلاوة هذه الطاعة. حين حصلت على نظارتها، وضعتها على عينيها وبدأت تتفحص سوزان خلسة، بكثير من الانتباه. كانت سوزان الجالسة أمام الباب تعرف كذلك أنها كانت تنظر إليها. كما تعرف ما ينتج عن ذلك فحاولت أن تتجنب نظرتها. لم تعد تفكر في رام.

سألتها أخيرًا: ــ هل تحدثتِ إليه؟

ــ إنني أتحدث إليه طوال الوقت. أعتقد أنه لا يقرر بسبب والده.

ــ يجب أن تطلبي ذلك منه بشكل حاسم. إذا لم يقرر خلال ثلاثة أيام فسأكلمه وسأعطيه أسبوعًا كي يتخذ قرارًا.

ــ ليس لأنه لا يريد لكن الرفض من أبيه. يريد أبوه أن يتزوج بفتاة غنية.

ــ سيبحث عبثًا، بالرغم من ثرائه، فإن فتاة غنية، تستطيع أن تختار، لن تقبل به. يجب أن تكون في وضعنا كي تعطي أم ابنتها إلى رجل على شاكلته.

ــ سأحدثه، لا تقلقي.

سكتت الأم. تابعت النظر إلى سوزان.

ــ ألم تفعلي شيئًا معه، هل هذا صحيح؟

ــ لا شيء. لست راغبة في ذلك أصلاً.

تنهدت الأم ثم قالت، خجلة، بصوت منخفض:

ـــ ماذا ستفعلين إذا سارت الأمور سيرًا حسنًا؟

استدارت سوزان ونظرت إليها وهي تبتسم.

أما الأم فلم تكن تبتسم وراحت زوايا فمها ترتجف. ربما ستعود إلى البكاء ثانية.

قالت سوزان: ـــ أعرف جيدًا كيف أتصرف، أنت تشيدين بحسن تصرفي...

ـــ إذا كان ذلك أقوى من تحملك، فمن الأفضل أن تبقي هنا. كل ذلك من خطئي...

قالت سوزان: ـــ اصمتي، لا تتفوهي بحماقات، هذا ليس خطأ أحد.

ـــ هذا صحيح، مع ذلك فإن هذا صحيح.

قالت سوزان متوسلة: ـــ اسكتي، اسكتي. هيا نذهب إلى رام.

ـــ أجل، فلنذهب إلى هناك، هذا هو المكسب دائما، إن كان ذلك يسرك كثيرًا.

لقد غيرت الأم رأيها: قررت أنه من المحظور عليهما أن يبقيا وحدهما داخل البيت الخشبي، وإن كان الباب مفتوحًا. لاشك أنها وجدت أن تلك الإجراءات لم تعد كافية لتأجيج لهفة السيد جو. كانت

الأم تقول: بما أنه ينتظر حدثًا لا أحد يعرف عنه شيئًا، في حين كانت تعرف ذلك حق المعرفة، فإن هذا التصرف لم يعد كافيًا كي يتقدم بطلب الزواج من سوزان.

كانت سوزان تستقبل إذن السيد جو على التلع التي تحاذي النهر، في ظل الجسر. كان الجميع ينتظرون أن يقرر. كانت الأم قد تحدثت إليه وأعطته ثمانية أيام كي يقرر. قبل السيد جو المهلة. اعترف للأم أن لأبيه مشاريع أخرى تخصه وبالرغم من ندرة فتيات، في تلك المستعمرة، ذوات ثراء يليق بثروته، فإن هناك ما يكفي من الفتيات ليكون من العسير جدًا عليه أن يثني أباه. إلاّ أنه وعدها أن يستعمل كل قواه لإقناعه. لكن بينما كانت الأيام تمر كان يقول فيها إنه يبذل قصارى جهده مع والده، راح يحدث سوزان وحدها، بشكل متزايد عن الخاتم الماسي. كان يوازي ثمنه البيت الخشبي بكامله. إنه سيعطيها إياه إذا وافقت على أن تقوم معه برحلة صغيرة لثلاثة أيام إلى المدينة.

كانت سوزان تستقبله في المكان الذي كانت ترقب منه سيارات الصيادين قبل عدة أسابيع.

قال السيد جو: ــ لم يعاملني أحد هكذا.

ضحكت سوزان. كانت تفضل هي أيضًا أن تستقبل السيد جو هناك، كانت توافق أمها في ذلك. ثم إنها الآن تستحم بكل طمأنينة بينما ينتظرها السيد جو تحت الجسر. لقد أمسى هكذا شخصية

مضحكة وتبعث على السخرية بشكل يكاد لا يُقاوم، فأضحت تحتمله أفضل من قبل.

تابع السيد جو قائلاً: ــ لو قلت ذلك لأصدقائي لما صدقوني.

كان القيظ بعد الظهر محرقًا والشمس عالية في السماء. كان الأطفال الصغار ينامون في ظل أشجار المانجو. أما الأطفال الكبار فكانوا يراقبون الجواميس، وقد تعلق بعضهم على ظهورها، والبعض الآخر يصطاد السمك في الخلجان الصغيرة. كان الكل يغنون، فترتفع أصواتهم الصغيرة، حادة، في الهواء الهادئ والمحرق.

كانت الأم تشذب أشجار الموز في حقلها. وكان العريف يسندها ويسقيها بعد أن تنتهي الأم من تشذيبها.

قال السيد جو بسخرية: ــ هناك أشجار موز كثيرة جدًا في السهل. هنا يطعمون بها الخنازير.

قالت سوزان: ــ يجب تركها تعمل.

كانت الأم تتظاهر بالاعتقاد أن أشجار الموز لديها، وقد اعتني بها بشكل استثنائي، ستعطي ثمارًا جميلة استثنائيًا وحينئذ يمكنها أن تبيعها. لكنها على الأخص كانت تحب أن تزرع، أي نوع كان، حتى أشجار الموز التي كان السهل يفيض بها. فمنذ فشل السدود، لا يمضي يوم دون أن تزرع فيه شيئًا، أي شيء ينبت ويعطي خشبًا أو ثمارًا أو أوراقًا، وبمجمل القول شيء ما ينبت. فمنذ عدة أشهر زرعت نوعًا من شجر(guau)، ويستغرق هذا النوع مائة

عام كي يصبح شجرًا ويستعمل في النجارة. كانت قد زرعته بلا شك في يوم من أيام الحزن حيث يئست تمامًا من المستقبل وحيث كانت تنقصها الأفكار. بعد أن زرعته نظرت إليه وهي تبكي وتنتحب لأنها لم تترك أثرًا أكثر فائدة لمرورها على الأرض إلاّ شجرة من ذاك النوع لن ترى حتى أزهارها الأولى. في اليوم التالي بحثت عبثًا عن مكان ذاك الزرع: كان جوزيف قد اقتلعه ورماه في النهر. غضبت الأم. شرح لها جوزيف قائلاً: "إن الأشجار التي تستغرق مائة عام كي تنبت، تغيظني رؤيتها طوال الوقت." قبلت الأم ذلك ومن حينها اتجهت نحو النباتات التي تنمو سريعًا. قال لها جوزيف: "لديك أسباب كثيرة تثير سخطك، دون أن تبحثي عن أسباب أخرى. ما عليك إلاّ أن تزرعي أشجار الموز." وهذا ما فعلته، فانصرفت إلى زراعة أشجار الموز بشكل خاص.

حين لم تكن تهتم بالنبات، فإن اهتمامها كان ينصب على الأطفال.

كان هناك كثير من الأطفال في السهل. كان ضربًا من المصائب. كانوا في كل مكان، متسلقين على الأشجار، فوق الحواجز، وعلى ظهور الجواميس، يحلمون، أو قد جلسوا القرفصاء على شواطئ الخلجان، يصطادون، أو يتمرغون في الطمي والوحل بحثًا عن السراطين الصغيرة جدًا في حقول الأرز. كذلك كان هناك أطفال يتخبطون في النهر، يلعبون أو يسبحون. وعلى رؤوس زوارق من خيزران كانت تنحدر نحو المحيط، نحو جزر الباسيفيك

الخضراء، كان هناك أطفال يبتسمون، مسرورين، وقد حُبسوا حتى أعناقهم في سلات كبيرة من الخيزران، وقد كانوا يبتسمون كما لم يبتسم أحد في العالم. وقبل أن يصلوا إلى القرى الواقعة على منحدر الجبل، وقبل أن يلمحوا أولى أشجار المانجو، كان المرء يصادف أول أطفال لقرى الغابة، وقد طلوا بالزعفران للحماية من البعوض ويتبعهم رهط من الكلاب التائهة. لأن الأطفال حيث كانوا يذهبون، يجري وراءهم رفاقهم، الكلاب التائهة والهزيلة، والجربة، والتي تسرق حظائر الدواجن، والتي كان الماليزيون يطردونها بالحجارة، ولا يقبلون أكل لحمها إلاّ في فترة المجاعة الكبرى، لأنها كانت على قدر كبير من الهزال، ومن خشونة الجلد. كان الأطفال وحدهم يألفون رفقتها، أما هي فلم يكن أمامها سوى الموت إذا لم تلحق بهؤلاء الأطفال الذين كانت تشكل أقذارهم طعامها الرئيسي.

ما أن تغرب الشمس، حتى يختفي الأطفال داخل أكواخهم المصنوعة من القش حيث كانوا ينامون على أرض ذات ألواح من قصب الخيزران، بعد أن أكلوا قصعة من الأرز. وما إن يطلع النهار حتى يكتسحوا السهل من جديد، يتبعهم دائمًا رهط الكلاب الهائمة التي كانت تنتظرهم طوال الليل، وقد تكورت بين أوتاد الأكواخ، في وحل السهل الحار والنتن.

كان شأن هؤلاء الأطفال شأن الأمطار، والفواكه، والفيضانات. فقد كانوا يصلون كل سنة، بموج منتظم، بالأحرى كموسم القطاف، أو أوان الإزهار. إن كل امرأة في السهل، مادامت

لم تزل شابة كي يشتهيها زوجها، تلد طفلاً كل سنة. في فصل الجفاف، حين كانت تتوقف الأعمال في حقول الأرز يبدأ التفكير في الحب بالتزايد لدى الرجال أما النساء فكنَّ يضاجعن بالطبع في ذاك الموسم. وفي الأشهر التالية تحبل البطون. هكذا، ما عدا هؤلاء الذين خرجوا من بطون النساء كان هناك الأجنة الذين ما زالوا فيها. كان ذلك يستمر بانتظام، بإيقاع نباتي، كأنه يتم بتنفس طويل وعميق، كل سنة، ينتفخ بطن كل امرأة بطفل، تقذفه، لتسترد أنفاسها بطفل آخر.

كان الأطفال حتى السنة تقريبًا يعيشون معلقين بأمهاتهم، في كيس من القطن يحيط بالبطن وبالأكتاف. كانت تحلق رؤوسهم حتى سن الثانية عشرة، حتى يصيروا كبارًا بشكل يستطيعون فيه أن ينظفوا رؤوسهم من القمل وحدهم، وكانوا شبه عراة حتى تلك السن أيضًا. بعد ذلك يتغطون بوزرة قطنية. حين يبلغون العام الأول كانت الأم تتركهم بعيدًا عنها وتعهد بهم إلى أطفال أكبر منهم، لا تأخذهم إلاّ لتطعمهم، وتعطيهم، من الفم إلى الفم، الأرز الذي علكته مسبقًا. حين كانت تقوم بذلك أمام شخص أبيض، كان يدير وجهه قرفًا واشمئزازًا. وكانت الأمهات تضحك منه. ماذا كان يمثل هذا القرف في السهل؟ منذ ألف عام يطعم الأطفال هكذا. في محاولة لإنقاذ بعضهم من الموت. لأن أعدادًا لا تحصى كانت تموت حتى أنّ وحل السهل كان يحوي أطفالاً موتى أكثر بكثير ممن أتيحت لهم فرصة الغناء على ظهور الجواميس. كان عدد الأطفال الذين يموتون كثيرًا جدًا لدرجة أنّ أهلهم لم يعودوا يبكونهم ومنذ زمن طويل لم يعودوا

يبنون لهم القبور. كان الأب، وهو عائد من عمله، يحفر مجرد حفرة صغيرة أمام الكوخ ويمدد فيها طفله الميت. كان الأطفال يعودون إلى الأرض بمنتهى البساطة شأنهم شأن المانجو البرية التي تنبت في المرتفعات، وشأن القردة الصغيرة الموجودة في مصب النهر. كانوا يموتون خاصة من الكوليرا التي تأتي بها ثمرة المانجو الخضراء، لكن يبدو أن لا أحد في السهل كان يعرف ذلك. كل سنة، في فصل المانجو، كان هناك أطفال قد تعلقوا على الأغصان، أو تحت الشجرة، ينتظرون، جائعين، وفي الأيام التالية كان يموت منهم أعداد كبيرة. كان أطفال آخرون، في السنة التالية، يأخذون أماكن هؤلاء، على أشجار المانجو ذاتها ويموتون بدورهم لأن نفاد صبر الأطفال الجياع أمام المانجو الخضراء أزلي. كان آخرون يغرقون في النهر. وآخرون يموتون من ضربة الشمس أو يصابون بالعمى. وآخرون يمتلئون بالديدان التي تمتلئ بها الكلاب التائهة ويموتون اختناقًا.

كان لا بد أن يموت الكثير منهم. وكان السهل ضيقًا والبحر لن يتراجع قبل قرون، على عكس ما كانت تأمله الأم دائمًا. كان المد الذي يعلو كل سنة إلى حد ما ويمتد بعيدًا، يحرق قسمًا من المحصول في كل الأحوال، وينسحب، بعد أن يكون قد أتم الأذى. لكن سواء علا المد أم لم يعلُ، فإن الأطفال، هم، كانوا يولدون دائمًا بضراوة. فكان من الضروري أن يموت بعضهم. لأنه إذا ما توقف الأطفال عن الموت خلال عدة أعوام فقط، فإنهم يعيثون فسادًا في السهل كله بلا شك، حتى استحالت إمكانية إطعامهم، وعندئذٍ يُعطوْن للكلاب، أو

يعرضون في ضواحي الغابة، وحينئذٍ، ربما انتهى الأمر بالنمور إلى أن تعافهم ولا تعود ترغب فيهم. إذن كان أطفال كثيرون يموتون وفي جميع الأحوال كان أطفال آخرون يولدون دائمًا. لم يكن السهل يعطي دائمًا إلاّ ما بإمكانه أن ينتج من الأرز، والسمك، والمانجو، وما تستطيع الغابة أن تعطي من ذرة، وخنازير برية، وبهار. وأفواه الأطفال الوردية كانت دائمًا أفواهًا زائدة، مفتوحة على جوعهم.

كان لدى الأم دائمًا طفل أو طفلان في السنوات الأولى من إقامتها في السهل. لكنها الآن قد أصيبت بشيء من الاشمئزاز نحوهم. لأن الحظ لم يحالفها حتى مع الأطفال. فآخر الأطفال الذين اهتمت بهم كانت بنتًا صغيرة عمرها سنة اشترتها من امرأة تمر على الطريق. كانت المرأة التي تشكو من رجلها قد مشت ثمانية أيام كي تأتي من رام؛ كانت طوال الطريق تحاول أن تهب ابنتها. قيل لها في القرى التي توقفت فيها: "اذهبي حتى بلدة بانتيه، هناك امرأة بيضاء تهتم بالأطفال." نجحت المرأة في الوصول إلى الأرض، شرحت للأم أن طفلتها تعوقها عن العودة إلى الشمال وأنها لا تستطيع البتة أن تحملها إلى هناك. كان جرح بليغ قد أكل رجلها بدءًا من الكعب. كانت تقول إنها تحب كثيرًا ابنتها حتى إنها مشت خمسة وثلاثين كيلومترًا على رأس قدمها المريضة كي تأتي إليها بالطفلة. لكنها لم تعد تريد الطفلة. كانت ستحاول أن تجد مكانًا على سطح سيارة ركاب كبيرة لتعود إلى بيتها في الشمال. كانت آتية من رام حيث

اشتغلت في حمل الأثقال مدة عام. أبقت الأم المرأة ثلاثة أيام وحاولت أن تعالج رجلها. طوال ثلاثة أيام كانت المرأة تنام على حصيرة في ظل البيت الخشبي، لا تنهض إلاّ لتأكل ثم تعود فورًا إلى النوم بعد ذلك، دون أن تسأل عن طفلتها. ثم ودعت الأم التي أعطتها قليلاً من النقود كي تأخذ سيارة ركاب لقسم من الطريق نحو الشمال. أرادت أن تعيد إليها طفلتها، لكن المرأة كانت ما تزال شابة وجميلة وتريد أن تستمتع بالحياة. رفضت بعناد أن تأخذ طفلتها. فاحتفظت الأم بالطفلة. كانت طفلة صغيرة في السنة الأولى من العمر لكنها تبدو كأن لها ثلاثة أشهر. لقد رأت الأم منذ اليوم الأول، وبخبرتها الطويلة، أنها لا يمكن أن تعيش كثيرًا. لكنها ربما قد دفعتها نزوة ما، فأوصت لها بسرير خشبي وضعته في غرفتها وصنعت لها ملابس.

عاشت الطفلة الصغيرة ثلاثة أشهر. وفعلا ذات صباح، بينما كانت تخلع عنها ملابسها لتغسلها، لاحظت الأم أن قدميها الصغيرتين كانتا متورمتين. لم تغسلها ذاك اليوم، مددتها في سريرها ثانية وقبلتها طويلاً. قالت: " إنها النهاية، غدًا يمتد الورم إلى ساقيها وبعد ذلك يصل إلى القلب." بقيت بالقرب منها تسهر عليها خلال يومين وكذلك الليلة التي سبقت وفاتها. كانت الطفلة تختنق وتتقيأ ديدانًا كانت تسحبها من بلعومها وتلفها حول إصبعها. دفنها جوزيف في فُرجة في الجبل، بسريرها الصغير. كانت سوزان قد رفضت أن تراها. كان موتها أسوأ بكثير من موت الحصان، وأسوأ من أي

شيء، أسوأ من السدود، أسوأ من السيد جو، ومن سوء الحظ. إلاّ أن الأم التي كانت تتوقع موتها، قد بكتها أيامًا كثيرة، كانت قد غضبت، وأقسمت أنها لن تهتم بالأطفال بعد ذلك،" لا من قريب ولا من بعيد".

ثم، عاودت الكرة كما هو شأنها في بقية الأمور،. لكنها، الآن لم تعد تأتي بالأطفال إلى بيتها.

قالت سوزان: ـــ يجب تركها تفعل ما تريد، لا أحد يستطيع أن يمنعها من القيام بما تريد.

ريثما يتحقق ما تريد، فلقد أرغمتهما على البقاء خارج البيت.

كان السيد جو يكرر قوله: ـــ كلا، حقًا، لم يعاملني أحد هكذا.

وكان يصوب نحو الأم نظرة ملؤها الحقد.

إنه الآن يجازف بحياته يوميًا بسببها. لم يكن الظل متوافرا دائمًا تحت الجسر وكان يشعر بأن ضربات الشمس تترقبه. حين أسمع الأم ذلك أجابته:

"هذا سبب إضافي لتستعجل في الزواج منها ".

قال: ـــ في هذه الأوقات، برامج السينما جيدة جدًا.

كانت سوزان، بقدميها العاريتين، تلعب بإمساك ذرات من العشب بين أصابع قدميها. على التلعة، أمامها، كانت جاموسة ترعى العشب ببطء وعلى فقار ظهرها كان هناك شحرور يستمتع بأكل

قملها. كان هذا المشهد عبارة عن كل السينما الموجودة في السهل. هذا بالإضافة إلى حقول الأرز وكذلك حقول الأرز التي تمتد وتمتد وكلها متماثلة من رام إلى كام تحت سماء رمادية بلون الحديد.

قالت سوزان: ــ إن أمها لا تريد الذهاب مطلقًا إلى السينما.

ضحك السيد جو هازئًا. في محيطه الخاص به، أي بالسيد جو، كان من المتعارف عليه أن الشابات يبقين عذارى حتى الزواج. لكنه كان يعرف أنه في أماكن أخرى، وفي أوساط أخرى، لم تكن تجري الأمور على هذا الشكل. كان يجد أن محيطه يفتقر إلى العفوية في أبسط الحالات.

قال:ــ إنك لا تعيشين كشابة، لقد نسيت صباها هي، هذا غير ممكن.

صحيح أنها سئمت السهل، وسئمت هؤلاء الأطفال الذين كانوا يموتون دائمًا، وتلك الشمس الخالدة المتربعة كالملك، وكل تلك الأماكن السائلة وبلا نهاية.

ــ ليس هذا هو الموضوع، إنها لا تريد أن أضاجعك.

لم يجب. انتظرت سوزان برهة:

ــ هل سنذهب في كل الأمسيات إلى السينما؟

أكد السيد جو: ــ أجل، كل الأمسيات.

كان قد وضع جريدة تحته كي لا تتسخ ثيابه. فهو شديد التعرق لكن ربما لم يكن ذلك بسبب الحرارة بقدر ما كان بسبب النظر إلى رقبة سوزان حيث تظهر ببطء تحت شعرها. لم يكن قد لمسها على الإطلاق. كان الآخرون يراقبون بضراوة.

ـــ كل الأمسيات إلى السينما؟

كرر السيد جو: ـــ كل الأمسيات.

كان الذهاب كل مساء إلى السينما بالنسبة إلى سوزان وكذلك إلى جوزيف، مع التنقل بالسيارة، يعد شكلاً من الأشكال التي تتخذها السعادة البشرية. وبمجمل القول كان مفهوم السعادة لديهما يكمن في كل ما يحمل الإنسان، كل ما يحملك، سواء كان روحيًا، أو جسديًا، سواء بالطرقات أو بأحلام الشاشة التي هي أصدق من الحياة، كل ما كان يبعث الأمل بأن يعيشا بسرعة ثورة المراهقة البطيئة، أجل كانت تلك الأمور هي السعادة بعينها. إن المرتين أو الثلاث مرات التي ذهبوا فيها إلى المدينة، أمضوا معظم النهار في السينما وما زالوا يتحدثون بدقة كبيرة عن الأفلام التي رأوها كما لو كانت ذكريات عن أشياء حقيقية قد عاشوها معًا.

ـــ وبعد السينما؟

ـــ سنذهب لنرقص، كل الناس سينظرون إليك. ستكونين أجمل الشابات.

ـــ هذا ليس أكيدًا. وبعد ذلك؟

لا يمكن للأم أن توافق. وإذا قبلت، فإن جوزيف لن يوافق البتة.

قال السيد جو: ـــ سنذهب للنوم، لن ألمسك.

ـــ هذا ليس صحيحًا.

لم تعد تؤمن بهذا السفر. يبدو أنها كانت تفكر في أنها استنفدت كل المفاجآت التي أعدها لها السيد جو وصار الأمر بالنسبة إليها سيان. منذ عدة أيام عادت ترقب بشكل آلي سيارات الصيادين في نفس الوقت الذي تتحدث معه فيه عن المدينة، وعن صالات السينما، وعن الزواج.

سألته، بالطريقة الآلية عينها: ـــ متى سنتزوج؟ لم يبقَ أمامك كثير من الأيام.

قال السيد جو ببطء: ـــ أكرر لك، حين تعطينني دليلاً على حبك. إذا قبلت القيام بهذه السفرة، إثر عودتنا سأتقدم إلى أمك بطلب الزواج بك.

استمرت سوزان في الضحك والتفتت نحوه. خفض عينيه.

قالت: ـــ هذا ليس صحيحًا.

احمر وجه السيد جو.

أجاب: ـــ لم يحن بعد وقت التحدث في ذلك، هذا لا يجدي نفعًا.

ـــ إن والدك يحرمك من الميراث، لا تقل العكس.

كانت الأم قد كررت على مسامعها الحديث الذي أجرته معه.

ـــ إن أباك مغفل تمامًا، كما يقول جوزيف، وينقل ذلك عنك.

لم يجب السيد جو. أشعل سيجارة. بدا أنه ينتظر أن تهدأ. تثاءبت سوزان. كانت الأم هي التي طلبت منها أن تطرح عليه السؤال يوميًا. كانت في منتهى العجلة. ما إن تتزوج سوزان، حتى يعطيها السيد جو ما يكفي لتعود إلى بناء سدودها (إنها تتوقع أن هذه السدود تفوق أهمية سابقيها بمرتين وستدعمها بعوارض من الإسمنت) وتنهي بناء البيت الخشبي، وتغير سقف البيت بكامله، وتشتري سيارة أخرى، وتصلح أسنان جوزيف. إنها تجد الآن أن سوزان هي المسؤولة عن التأخير الطارئ على مشاريعها. كانت تقول إن هذا الزواج ضروري. لا بل إنه فرصتهم الوحيدة للخروج من السهل. إن لم يتم فسيكون ذلك فشلاً إضافيًا، شأنه شأن السدود. أما جوزيف، فلقد كان يدعها تقول ما تشاء ثم يختم الحديث بقوله: " لن تتم الأمور وذلك أفضل لها." كانت سوزان تعرف أن هذا الزواج لن يتم مطلقًا. لم يعد لديها شيء تقوله للسيد جو. لقد وصف لها ثروته مائة مرة كما وصف لها السيارات التي ستحصل عليها حين يتزوجان. إنه من غير المجدي الآن التحدث في ذلك. والأمر نفسه بالنسبة إلى بقية الأمور، كتلك الرحلة الصغيرة وذاك الخاتم الماسي.

بدأ ضجرها يزيد فجأة. كانت تود أن يرحل السيد جو وأن يعود جوزيف لتسبح معه في النهر. منذ راح السيد جو يتردد عليهم، لم تعد ترى أخاها إلاّ نادرًا، أولاً لأنه كان يقول " إنه لا يستطيع التنفس " بالقرب من السيد جو، ثم لأن خطة الأم كانت في أن تتركهما وحدهما، هي والسيد جو، أطول مدة ممكنة يوميًا. كانت سوزان لا ترى جوزيف إلاّ في المطعم الشعبي في رام حيث كان يدعوها إلى الرقص أحيانًا وحيث كانا يسبحان في البحر أحيانا. لكن بما أن السيد جو لم يكن يستحم، فلقد كانت الأم تجد أنه ليس من الملائم إرغامه على الانزواء. كانت تخشى أن يجعله ذلك شريرًا. وبالفعل حين كانا يستحمان في رام، كان السيد جو ينظر إلى جوزيف نظرة قاتل. لكن جوزيف يستطيع بضربة من قبضته أن يهشم السيد جو. كان ذلك يبدو واضحًا حين يقف أحدهما بالقرب من الآخر حتى إن ذلك كان يطمئن السيد جو: إنه أضعف بكثير من جوزيف، وأخف منه كثيرًا، وكان يستطيع أن يكرهه بطمأنينة تامة.

قال السيد جو بهدوء: ــ لقد أحضرتها.

قفزت سوزان: ــ ماذا؟ الخواتم الماسية؟

ــ الماسات. يمكنك أن تختاري، يمكنك دائمًا أن تختاري، من يدري ما قد يحدث.

نظرت إليه نظرة شك. لكنه كان قد أخرج من جيبه حزمة صغيرة ملفوفة بورق من الحرير وفتحها ببطء. وقعت ثلاث ورقات

حريرية على الأرض. انبسط ثلاثة خواتم في قعر يده. لم تكن سوزان قد رأت مطلقًا ماسات إلاّ في أصابع الغير ونادرًا، ومن جميع الناس الذين رأتهم يلبسون خواتم ماسية لم تكن قد اقتربت إلاّ من السيد جو. كانت الخواتم هناك، بحلقاتها الفارغة في يد السيد جو المبسوطة.

قال السيد جو بتأثر: ــ إنها من عند والدتي، كانت تحبها حبًا جنونيًا.

فلتأتِ من حيث تشاء. كانت أصابعها خالية من الخواتم. قربت يدها وأخذت الخاتم ذا الحجر الأكبر حجمًا، ورفعته في الهواء وبوقار نظرت إليه طويلاً. أخفضت يدها، وبسطتها أمامها ولبست الخاتم في بنصرها. لم تكن عيناها تفارقان الماسة. راحت تبتسم له. حين كانت فتاة صغيرة وكان أبوها لا يزال حيًا حصلت على خاتمي طفلة، كان الواحد مزينًا بفص صغير من اللازورد، والآخر بلؤلؤة رفيعة. لقد باعتهما الأم.

ــ كم تساوي؟

ابتسم السيد جو كمن كان ينتظر ذاك السؤال.

ــ لا أعرف، ربما تساوي عشرين ألف فرنك.

نظرت سوزان عفويًا إلى خاتم السيد جو والذي يلبسه في إصبعه الصغيرة: كانت ماسته أضخم بثلاث مرات من تلك الماسة. لكن الخيال قد تاه... كان الخاتم ذا واقع مستقل، الماسة؛ لم تكن

أهميتها في بريقها، ولا في جمالها لكن في ثمنها، في إمكانية المبادلة، التي لا يمكن أن تتصورها حتى الآن . كان ذاك الخاتم شيئًا، وسيطًا بين الماضي والمستقبل. كان مفتاحًا يفتح المستقبل ويختم الماضي نهائيًا. فعلاً كان المستقبل ينبسط متوهجًا من خلال ماء الماس النقي. يدخل المرء فيه، وقد انبهر مذهولاً بعض الشيء. كانت الأم مدينة إلى المصرف بخمسة عشر ألف فرنك. قبل أن تشتري الأرض كانت تعطي دروسًا بخمسة عشر فرنكًا للساعة، كما عملت في سينما عدن كل مساء طوال عشر سنوات بأربعين فرنكًا في الليلة. في نهاية الأعوام العشرة، بما ادخرته كل يوم من الأربعين فرنكًا، نجحت في أن تشتري الأرض. كانت سوزان تعرف كل تلك الأرقام: مقدار الديون للمصرف، سعر البنزين، ثمن المتر المربع من السد، ثمن درس البيانو، ثمن زوج الحذاء. أما الذي لم تكن تعرفه حتى الآن فهو ثمن الخاتم. كان قد قال لها قبل أن يريها إياه ، إنه يساوي البيت الخشبي بكامله. لكن هذه المقارنة لم تكن محسوسة بالنسبة إليها إلاّ في تلك اللحظة التي لبسته، وهو صغير جدًا، في إحدى أصابعها. لقد فكرت في كل الأثمان التي كانت تعرفها مقارنة بالخاتم وفجأة خارت عزيمتها. انقلبت على التلعة وأغمضت عينيها على ما عرفته للتو. تعجب السيد جو، لكنه كان قد تعود على أن يتعجب، فلم يقل لها شيئًا.

سألها بلطف بعد فترة: ـــ هل هذه هي التي تعجبك أكثر من غيرها؟

قالت سوزان: ــ لا أعرف، أود الأغلى ثمنًا.

قال السيد جو: ــ إنك لا تفكرين إلاّ في ذلك.

وبعد أن انتهى من قوله، ضحك بشيء من التهكم.

كررت سوزان بجدية: ــ الأغلى ثمنًا.

تنغص السيد جو.

ــ إن كنت تحبينني...

ــ حتى إذا كنت أحبك. فإنه من المستحيل أن نبقيه ولا نبيعه، إذا ما أعطيتني إياه.

ــ من بعيد على الدرب، وصل جوزيف. لقد قرر أن يجد حصانًا آخر وراح يركض من قرية إلى أخرى منذ ثمانية أيام. ما أن لمحته سوزان حتى انتصبت. ضحكت ضحكة فرحة، حادة. نادته وذهبت نحوه.

ــ جوزيف، تعالَ لترى!

أتى جوزيف للقائها دون أن يستعجل. كان يلبس قميصًا بلون الخاكي وبنطالاً قصيرًا باللون ذاته. كانت قبعته موضوعة على مؤخرة رأسه. كان حافي القدمين كما هو حاله دائمًا. منذ أن تعرفت سوزان على السيد جو كانت تجده أكثر جمالاً منه في الماضي. حين أمسى جوزيف على مقربة، مدت سوزان يدها وفوقها الأصابع ممدودة، رأى جوزيف الخاتم الماسي. لم يبدِ أية مفاجأة. ربما لأن

الماسة شيء صغير جدًا. لاشك أن سيارة يمكن أن تؤثر فيه لكن خاتمًا ماسيًا لا يحدث في نفسه أي انفعال. لم يكن جوزيف يعرف حتى الآن شيئًا ما عن الماسات. أسفت سوزان لذلك. سيتعلم تلك الأشياء بدوره.

بعد أن نظر جوزيف شاردًا إلى الخاتم، حدثها عن حصانه.

ـ لا مجال لإيجاد واحدٍ بأقل من خمسمائة فرنك. ليس هذا بلد الخيول ، لا يصلح حتى للخيول، لقد نفقت كلها.

كانت سوزان تريه يدها الممدودة، وقد وقفت بالقرب منه.

ـ انظر!

نظر جوزيف ثانية.

قال: ـ إنه خاتم.

قالت سوزان: ـ إنه من الماس، يساوي عشرين ألف فرنك.

استمر جوزيف ينظر.

قال جوزيف: ـ عشرون ألف فرنك، اللعنة!

ابتدأ يبتسم. ثم فكر. بعد ذلك، قرر فجأة أن يهزم اشمئزازه، توجه نحو السيد جو الذي كان على بعد خمسين مترًا من هناك، تحت الجسر. تبعته سوزان. اقترب كثيرًا من السيد جو، وجلس بالقرب منه ثم راح يحدق النظر فيه.

سأله بعد فترة قصيرة: ــ لماذا أعطيتها هذا؟

كان السيد جو شاحبًا جدًا، ينظر إلى رجليه. تدخلت سوزان.

قالت سوزان وهي تنظر بدورها إلى السيد جو: ــ لقد أعطاني إياه.

بدا جوزيف أنه لم يفهم.

ــ لقد أعارني إياه، بلا مقابل، كي أجرب قياسه.

مط جوزيف شفتيه اشمئزازًا وبصق في النهر. ثم حدق ثانية في السيد جو الذي راح يدخن، وبعد أن نظر إليه جيدًا، بصق من جديد في النهر. استمر ذلك فترة. كان جوزيف يفكر ويثبت تفكيره بالبصاق في النهر.

قال أخيرًا: ــ إن كان ذلك كي لا تعطيها إياه، فلا ضرورة لقياسه.

قال السيد جو بصوت غير مميز: ــ لا عجلة في ذلك.

قال جوزيف لسوزان: ــ عليك أن تعيديه إليه.

ثم التفت ثانية نحو السيد جو: ــ إذن أحضرته لها بلا سبب، لمجرد أن تريها إياه؟

بذل السيد جو جهدًا للإجابة لكنه بلا شك لم يجد ما يجيب به. كان جوزيف أمامه قد بدا كأنه يحاول السيطرة على نفسه كي لا يقوم

بعمل شيء ما. كان صوته أجشً، سريعًا وليس حادًا تمامًا. راح السيد جو يزداد شحوبًا. نهضت سوزان بقفزة واحدة، وقفت أمام السيد جو وشرعت بدورها تنظر إليه. إذا لم تقل فورًا لجوزيف من هو السيد جو، فلن تستطيع فيما بعد أن تقول له ذلك. لقد تم شيء من الأمر. لن ينهض السيد جو من تلك الضربة. ثم إنها قد سئمت كل ذلك، حان الوقت لأن ينتهي كل ذلك.

قالت سوزان: ــ سيعطيني الخاتم إذا ما رحلت معه.

قام السيد جو بحركة من يده كأنه يريد أن يسكت سوزان. ازداد شحوبًا.

سال جوزيف: ــ الرحيل إلى أين؟

ــ إلى المدينة.

ــ نهائيًا؟

ــ لثمانية أيام.

ضرب السيد جو الهواء بيده في حركة إنكار. بدأ كأنه على وشك أن يُغمى عليه.

قال بصوت متوسل: ــ لقد أساءت سوزان التعبير...

لم يعد جوزيف يصغي. استدار نحو النهر. عرفت سوزان من مظهره وبشكل قاطع أنها لن ترحل على الإطلاق مع السيد جو سواءً متزوجة أو بدون زواج.

قال جوزيف بهدوء: ـــ إن لم تعيدي الخاتم فورًا فسأرميه في النهر.

خلعت سوزان الخاتم من إصبعها ومدته إلى السيد جو، من وراء ظهر جوزيف. بالطبع لم يكن من الممكن ترك جوزيف يستولي على الخاتم ويرميه في النهر. شعرت سوزان بأنها متواطئة مع السيد جو على تلك النقطة: يجب إنقاذ الماسة. أخذ السيد جو الخاتم ودسه في جيبه. التفت جوزيف فرآه. نهض وأخذ طريقه نحو البيت الخشبي.

قال السيد جو بعد برهة: ـــ الآن لقد أفسد كل شيء.

قالت سوزان: ـــ هذا أكيد، ثم إن الأمور تجري دائمًا على هذا النحو.

ـــ ما الحاجة لأن تقولي له ذلك؟

ـــ لا شك أنني سأقوله له يومًا، لم يكن في استطاعتي أن أمتنع عن التحدث إليه عن الماسة.

مكثا فترة دون أن يكلم أحدهما الآخر. عشية ذاك اليوم، بقوا في رام حتى ساعة متأخرة واكتشفت سوزان أنها ترغب في النوم.

كان السيد جو يبدو منهارًا. كانت سيارته تقف في الجهة الأخرى للطريق، أبعد من الجسر. إنها سيارة رائعة من طراز

الليموزين. وجب عليها أن تعود إلى الشمال، من حيث أتت وسيرحل السيد جو معها. ربما لم يفهم ما حدث.

قالت سوزان: ــ أظن أنه لا جدوى من أن تعود.

أكد السيد جو قائلاً: ــ هذا فظيع. ما حاجتك لأن تقولي له ذلك؟

ــ لم أرَ في حياتي ماسة، لم أستطع أن أمتنع عن القول، كان عليك أن لا تريني إياها، لا يمكنك أن تفهم.

كرر السيد جو: ــ هذا فظيع.

كانت تطير في السماء طيور الماء والغربان الجائعة. أحيانًا كان ينزل أحد طيور الماء ويرقص على مياه النهر العكرة. هذا كل ما سأرى من العالم خلال أشهر وأشهر قادمة.

قالت سوزان: ــ لا شك أنني سأجد يومًا صيادًا عابرًا، أو أحد الزارعين من هنا، أو صيادًا محترفًا سيأتي ليقيم في رام، وقد يكون أكوستي، إذا ما قرر ذلك.

تأوه السيد جو قائلاً: ــ لا أستطيع، هذا مستحيل.

كان يبدو كأنه يقاوم صورة بغيضة لا يتحملها. راح يضرب الأرض بقدميه.

أخذ السيد جو يردد: ــ لا أستطيع، لا أستطيع.

إذا رحل نهائيًا أستطيع أن أسبح مع جوزيف.

صرخ السيد جو بقوة كما لو كانت قد رحلت: ــ سوزان!

نهض وبدا كأنه قد نجا، مغتبطًا، مبدعًا. لقد وجد الحل الملائم .

صرخ قائلاً: ــ أعطيك إياه، بالرغم من كل شيء، اذهبي لتقولي ذلك لجوزيف.

نهضت سوزان بدورها. كان قد أخرج الخاتم ومده إلى سوزان. نظرت إليه ثانية. كان لها. أخذته، لم تلبسه بإصبعها لكنها حبسته في يدها ودون أن تودع السيد جو، ركضت نحو البيت الخشبي.

وصلت سوزان ركضًا إلى البيت الخشبي. لم يكن جوزيف هناك. لكنها وجدت الأم منهمكة في تحضير العشاء، وهي تقف قرب المدفأة. لوحت بالخاتم.

ــ انظري، الخاتم. عشرون ألف فرنك. ولقد أعطاني إياه.

ــ نظرت الأم، عن بعد إلى حد ما. ولم تنبس ببنت شفة.

كان السيد جو قد انتظر عودة سوزان وهو تحت الجسر لكن بما أنها لم تعد، فلقد انصرف.

بعد ساعة، قبيل أن يجلسوا إلى المائدة، طلبت الأم بلطف من سوزان أن تعهد به إليها كي تراه بشكل أفضل. واستطاع جوزيف الجالس في غرفة الاستقبال في تلك اللحظة، أن يسمعها تطلبه منها.

طلبت منها بلطف قائلة: ـــ أعطيني إياه، لم أره جيدًا.

مدت سوزان الخاتم. فأخذته ونظرت إليه طويلاً نظرة متفحصة في قعر كفها. ثم دون أي تبرير، ذهبت إلى غرفة نومها وأغلقت الباب على نفسها. وبهيئتها المألوفة، المتصنعة الغضب حين خرجت فجأة من غرفة الطعام، كان جوزيف وسوزان قد فهما قصدها: ذهبت لتخبئ الخاتم. كانت تخبئ كل شيء، الكينين، والمعلبات، والتبغ، وكل ما يمكن بيعه أو شراؤه. كانت قد خبأته يدفعها خوف وهمي من أن تراه يفلت من يدي فتاة لا تزال صغيرة مثل يدي سوزان. لابد أن الخاتم الآن بين لوحين من الحاجز أو في كيس من الأرز، أو في حشية فراشها ، أو مربوط بخيط حول عنقها، تحت ثوبها.

لم يتحدث أحد عنه حتى العشاء. جلس جوزيف وسوزان إلى الطاولة. أما هي، فلم تجلس إلى الطاولة. بل جلست بمنأى عنها على مقعد، قرب الحائط.

قال جوزيف: ـــ كلي

ـــ دعني وشأني. كان صوتها شريرًا.

لم تأكل، ولا حتى قطعة خبز مطلية بالزبدة ولم تطلب حتى قهوتها المعتادة. كان جوزيف يراقبها بنظرة قلقة. أما هي، فلم تكن تنظر إلى شيء، كانت تحدق في أرض البيت الخشبية دون أن تراها، وهي تقطر كراهية. إن جلوسها بمنأى، مستندة على الحائط، بينما هما يأكلان،، لم يكن جوزيف يستطيع أن يتحمل ذلك لأي سبب كان.

سأل جوزيف: ــ لماذا تبدين غاضبة؟؟؟

احمر وجهها وصرخت: ــ إن هذا الشخص يثير اشمئزازي، يثير قرفي، ولن يرى خاتمه.

قال جوزيف: ــ إننا لا نحدثك عن ذلك، نطلب منك أن تأكلي.

ضربت بقدمها وهي تتابع صراخها: ــ وما الأمر؟ كل الناس إذا كانوا في مكاننا احتفظوا به.

ثم صمتت من جديد. مضت فترة. عاد جوزيف إلى القول:

ــ يجب أن تشربي قهوتك، اشربي على الأقل قهوتك.

ــ لن اشرب قهوتي لأنني مسنة وإنني تعبة وإنني مستاءة، مستاءة من أولاد على شاكلة من عندي...

ثم ترددت.احمر وجهها من جديد احمرارًا شديدًا واغرورقت عيناها.

ــ فتاة قذرة كالتي لدي هنا...

ثم عادت إلى لازمتها الجديدة.

ـ لا شيء يثير الاشمئزاز بقدر جوهرة. إنها لا تجدي نفعًا، لا تنفع البتة. وإن الذين يلبسونها لا يحتاجون إليها، إنهم أقل حاجة إليها من أي شخص كان .

سكتت من جديد وطويلاً جدًا حتى ظُنَّ أنها قد هدأت لو لم يتشنج جسمها كله. لم يعد جوزيف يلح عليها لتأكل. كانت تلك المرة الأولى في حياتها قد أمسكت الأم بين يديها شيئًا بقيمة عشرين ألف فرنك. قالت بلطف: "أعطيني إياه". فأعطتها سوزان إياه. نظرت إليه طويلاً وأصبحت سكرى. عشرون ألف فرنك، ضعف مبلغ رهن البيت الخشبي. أشاح جوزيف وجهه، بينما كانت تنظر. دون أن تنبس ببنت شفة، ذهبت تخبئه في غرفة نومها. كان من الصعب الأكل.

ـ إن منحطًا كهذا، يعطيها خاتمه، هذا السلوك مشين، مدعاة للخجل. بعد كل تصرفاته القذرة هنا.

لم يكن كل من سوزان وجوزيف يجرؤان على أن ينظرا إليها ولا أن يجيباها. كانت تتألم لأنها أخذت الخاتم بالشكل الذي أخذته به، والذي احتفظت به. لأنه كان يستحيل عليها إعادته، وهذا أكيد. كانت تكرر كبلهاء الكلمات ذاتها، وعيناها شاخصتان في الأرض، خجلة. كان من العسير النظر إليها. ماذا فعلت سوزان حين أرتها الخاتم؟ ماذا استيقظ إذن في أعماقها من شباب، ومن حمية قديمة مكبوتة،

ومن تنشيط لشبق لم يخطر ببال حتى الآن من رؤية الخاتم؟ كانت الأم قد قررت الاحتفاظ به.

حدث الانفجار حين نهضت سوزان عن المائدة. أخيرًا وقفت الأم وهجمت عليها وراحت تضربها بقبضتيها بكل ما تبقى لها من قوة. بكل قوة حقها، وبكل قوة شكها المساوية لحقها. كانت وهي تضربها تتحدث عن السدود، وعن المصرف، وعن مرضها، وعن سقف البيت، وعن دروس البيانو، وعن مصلحة الأراضي، وعن شيخوختها، وتعبها، وموتها. لم يحتج جوزيف وتركها تضرب سوزان.

استمر ذاك الحال ساعتين. كانت تنهض، تهجم على سوزان وبعد ذلك تسترخي في مقعدها، مذهولة من التعب وقد هدأت. ثم تقف من جديد وتهجم على سوزان.

ـــ قولي ذلك لي وأتركك وشأنك.

ـــ لم أضاجعه، لقد أعطاني إياه بلا مقابل، حتى إنني لم أطلبه منه، لقد أراني إياه وأعطاني إياه هكذا، بلا مقابل.

استمرت في ضربها، كما لو كانت تدفعها حاجة لم تتركها. كانت سوزان تبكي عند قدميها، شبه عارية في ثوبها الممزق. وحين كانت تحاول النهوض، كانت أمها تقلبها بقدمها وهي تصرخ:

ـــ لكن قوليه لي إذن، بالله عليك، وأدعك وشأنك.

كان يبدو أن ما لا تتحمله هو أن ترى سوزان تنهض. ما إن تقوم سوزان بأقل حركة حتىْ تنهال عليها ضربًا. حينئذ وقد أخفت سوزان رأسها بذراعيها، لم تعد تبدي أية حركة إلاّ أن تحمي نفسها بصبر. نسيت أن تلك القوة كانت تأتي من أمها فتحملتها كما تتحمل قوة الريح، والأمواج، وأية قوة مجهولة. كانت الأم تخيفها من جديد حين تسقط ثانية في كرسيها وذلك بسبب وجهها الذي ارتسمت عليه ملامح البلاهة من الجهد الذي بذلته.

كانت تكرر: ــ قوليه لي، ويصبح صوتها أحيانًا أقرب إلى الهدوء.

لم تعد سوزان تجيب. ملت الأم ذلك، ونسيت ما تفعل. كانت تتثاءب أحيانًا وفجأة ينطبق جفناها، ويترنح رأسها. لكن إذا بدرت أقل حركة من سوزان أو بمجرد أن تفتح عينيها وقد أيقظها ترنح رأسها، وتلمحها عند قدميها، فإنها تنهض وتنهال عليها ضربًا. كان جوزيف يقلب *هوليوود ــ سينما*، الكتاب المصور الوحيد، الموجود منذ ست سنوات، الذي اقتنته الأسرة والذي لم يمل منه مطلقًا. حين كانت الأم تضرب كان جوزيف يتوقف عن تقليب صور الكتاب. وفجأة، في فترة ما، قال:

ــ اللعنة، أنت تعرفين حق المعرفة أنها لم تضاجعه،لا أفهم لمَ تلحين.

ــ وإذا أردت أن أقتلها؟ إذا كان يطيب لي قتلها؟

بقي جوزيف في مكانه لأنه لم يشأ أن يتركها وحدها مع الأم في تلك الحالة، كان ذلك أكيدًا. ربما لم يكن في تمام الاطمئنان. بعد أن صرخ، استمرت الأم في الضرب لكن بأقل ضراوة وراحت القوة تضعف مع كل ضربة. حينذاك أخذ جوزيف يوبخها.

ـ ثم إذا كانت قد ضاجعته، فإنك لا تبالين على الإطلاق، أليس كذلك؟

أجل، لقد أصبحت تضرب بثقة تتناقص. مضى عامان لم تعد تضرب فيهما جوزيف. في الماضي، كانت قد ضربته كثيرًا هو أيضًا، حتى ذاك اليوم حيث أمسكها من ذراعها وجمَّد حركتها برفق. دُهشت للوهلة الأولى، ثم انتهى بها الأمر إلى الضحك معه، وقد سعدت في أعماقها من روية جوزيف وقد أصبح قويًا بهذا الشكل. منذ ذاك الحين، لم تعد تضربه، ليس بلا شك لأنها كانت تخشاه لكن لأن جوزيف قد قال لها إنه لم يعد يحتمل ذلك. كان جوزيف يرى أنه يجب ضرب الأطفال، وخاصة الفتيات، لكن دون مبالغة وكآخر وسيلة فقط. لكن منذ انهيار السدود ومنذ توقفها عن ضرب جوزيف، راحت الأم تضرب سوزان أكثر مما كانت تفعله سابقًا. كان يقول جوزيف: "حين لن تجد أحدًا تكيل له اللطمات، فستلطم وجهها هي."

سيبقى جوزيف ما دامت الأم لم تذهب لتنام، كان ذلك أكيدًا. كانت سوزان مطمئنة لذلك.

قال جوزيف: ــ وحتى إذا ضاجعته من أجل الخاتم، أنت تتحدثين عن صفقة!

كانت الأم هادئة في أعماقها وراضية تمام الرضا. مهما فعلت. كان الخاتم هناك، في البيت. كان هناك عشرون ألف فرنك في البيت. هذا هو المهم. كان عليها أن تعرف ما هي فاعلة بذاك المبلغ. لم يكن من الممكن أن تُسأل ذاك المساء لكن بلا شك منذ الغد يستطيعون التحدث بذلك بحرية معها. أصبحت إعادته مستحيلة. كانت سوزان عادة لا تتحمل أن تضربها أمها، أما ذاك المساء، فلقد وجدت أن هذا الوضع أفضل مما لو أن أمها، بعد أن أخذت الخاتم، قد جلست إلى المائدة بهدوء كما تفعل دائمًا.

ــ الخاتم، ما قيمته في نهاية الأمر؟ يحق لنا الاحتفاظ بالخاتم في بعض الحالات.

قال جوزيف: ــ بالطبع إنه لنا!

من يمكن أن يخالف هذا الرأي؟ ربما سيستطيعون أن يشتروا سيارة جديدة وأن يبنوا ثانية جزءًا من السدود. وربما قد يتيح لهم ذلك الخاتم امتلاك ثروة تفوق بكثير ثروة السيد جو. كان صراخها بلا جدوى.

كان ذاك المساء مساءً عظيمًا. لقد استطاعوا أن يستولوا من السيد جو على هذا الخاتم والآن إنه هنا، في مكان ما من البيت ولا يمكن لأية قوة في العالم أن تخرجه من هنا. لقد تأخر هذا المساء في

المجيء ولكن لقد تم الأمر أخيرًا ووصل. فمنذ سنوات والمشاريع تفشل الواحد تلو الآخر، لم يأتِ ذلك مبكرًا. هو أول نجاح لهم. ليس ذلك حظًا لكنه نجاح. لأنهم كانوا ينتظرون منذ سنوات، لقد حققوا مكسبًا، وهم لم يفعلوا شيئًا سوى أن ينتظروا، ذاك الخاتم. كان الانتظار طويلاً، لكن الأمر قد تم، وكان الخاتم في جانبهم؛ ذلك الجانب من العالم. كانوا يمسكون به. لقد حدث ذلك لكي يقترب منها، إنَّ مجرد الاقتراب أكثر في ظل الجسر دفعه إلى أن يترك الخاتم. لكن ذاك النصر، بالرغم من كل الصعاب، لا يمكن لأحد أن يشاركها فيه، ولا حتى جوزيف.

ـــ إن خاتمًا لا يعني شيئًا. وفي حالتي يعد رفضه جريمة.

من يمكن أن يكون له رأي معاكس؟ من، في العالم بأسره، يمكن أن يكون له رأي معاكس؟ إن رفض الخاتم، وقد أهدي إليك، شيء لا يمكن حتى تصوره. هناك خواتم لا حصر لها ترقد بلا جدوى في علب مزخرفة رائعة، في حين يحتاج العالم إلى تلك الأحجار أمس الحاجة. إن الحجر الذي في يدهم بدأ طريقه، وقد تحرر، وأصبح مثمرًا. ومنذ المرة الأولى التي أخرجته أيدي الزنجي الدامية من مرقده الحجري في قعر تلك الأنهار الكابوسية لكتانغا، انطلق الحجر، وقد تحرر أخيرًا، بعيدًا عن أيادي جلاديه الشبقة وغير الإنسانية.

توقفت عن الضرب. كانت تفكر بلا شك فيما ستفعله بالخاتم، وقد شردت مستسلمة لأفكارها.

قالت سوزان بعذوبة: ــ ربما نستطيع أن نغير السيارة.

ترك جوزيف مجلة *هوليوود ــ السينما* ووضعها على الطاولة. كان هو أيضًا يفكر. لكن الأم قد ألقت نظرة سريعة نحو ابنتها وعادت إلى الصراخ.

ــ لن نغير السيارة، سنسدد ما علينا للمصرف، من دين عقاري، وقد نغير سقف المنزل. سنعمل ما أريده.

لم يكن الأمر قد انتهى كما بدا لهما ذلك. كان عليهما أن ينتظرا بعض الوقت.

قالت سوزان: ــ سنسدد للمصرف العقاري، وسنغير سقف البيت.

لماذا، بمجرد أن رأتها تبتسم دفعها ذلك إلى أن تعاود ضربها؟ نهضت، وهجمت عليها وطرحتها أرضًا.

ــ لم يعد لي طاقة على الاحتمال، يجب أن أستلقي في سريري...

رفعت سوزان رأسها ونظرت إليها.

قالت: ــ لقد ضاجعته، فأعطاني الخاتم.

انهارت الأم في كرسيها. فكرت سوزان " ستقتلني، وحتى جوزيف لن يستطيع أن يمنعها." لكن الأم حدقت في سوزان، وقد ارتفع ذراعاها، كأنها على وشك أن تقفز، ثم تركت ذراعيها يسقطان وقالت بهدوء:

ــ هذا ليس صحيحًا. إنك كاذبة.

نهض جوزيف واقترب من الأم قائلاً بلطف:

ــ إذا مسستها ثانية، مرة أخرى، فسأرحل معها إلى رام. أنت عجوز مخبولة. الآن، إنني على يقين تام من ذلك.

نظرت الأم إلى جوزيف. ربما لو ضحك لكانت قد ضحكت معه. لكنه لم يكن يضحك. حينئذٍ بقيت في مقعدها، مذهولة، وقد غير الحزن معالمها. كانت سوزان تبكي، وهي مستلقية بالقرب من مقعد جوزيف. لماذا عادت ثانية تنهال عليها ضربًا؟ ربما كانت مجنونة. كانت الحياة فظيعة وكانت الأم، هي أيضًا، تساوي الحياة فظاعة.عاد جوزيف إلى الجلوس، كانت سوزان هي الآن محط أنظاره. كان جوزيف يمثل عذوبة الحياة الوحيدة. كانت سوزان وقد اكتشفت تلك العذوبة، التي في منتهى التحفظ، والمدفونة تحت كثير من القسوة، قد أدركت في الوقت ذاته، كم يلزمها من صبر، كل ما تحتاج إليه بلا شك كي ترغم تلك العذوبة على الظهور. وحينئذٍ استغرقت في البكاء.

بعد ذلك غطت الأم في نوم عميق. وفجأة، وقد ترنح رأسها، وانفرج فمها، وغاصت تمامًا في نوم مليء بالراحة مثل نوم الأطفال الرضع، فحلقت، خفيفة، في البراءة الكاملة. لم يعد أحد يستطيع أن يحقد عليها أو يلومها. لقد أحبت الحياة حبًا مفرطًا وكان رجاؤها الذي لا يعرف الكلل، ولا كيفية الشفاء منه، قد جعل منها ما صارت عليه الآن، امرأة يئست من الأمل ذاته. لقد أضناها هذا الأمل، وحطمها، وعرّاها إلى هذا الحد،حتى إن نومها الذي كان يريحها، وحتى الموت، كما يبدو، لم يعد يستطيع أن يتخطى ذاك الأمل.

زحفت سوزان حتى باب غرفة جوزيف وانتظرت لترى ما سيفعل.

بقي مدة طويلة ينظر إلى الأم وهي نائمة، ويداه متشنجتان على ذراعي مقعده، وحاجباه مقطّبان. ثم نهض وذهب نحوها.

ــ اذهبي لتنامي، سترتاحين بشكل أفضل في سريرك.

استيقظت الأم مذعورة وبحثت في الغرفة.

ــ أين هي؟

ــ هيا لتنامي... إنها لم تضاجعه.

قبّلها على جبينها. لم تكن سوزان قد رأته يقبلها إلاّ حين كانت في غيبوبة تلت نوباتها وقد ظن أنها ستموت.

قالت الأم وهي تنتحب: ــ وأسفاه! وأسفاه! أعرف ذلك تمام المعرفة.

ــ عليك ألاَّ تقلقي بالنسبة إلى الخاتم، سنبيعه.

كان رأسها بين يديها، وهي تبكي.

ــ للأسف! إنني عجوز مخبولة...

أنهضها جوزيف وقادها إلى غرفتها. ثم لم تعد سوزان ترى شيئًا. ذهبت تجلس على سرير جوزيف. لا شك أنه سيساعدها على أن تنام. بعد فترة عاد إلى غرفة الطعام، أخذ المصباح وأتى إلى أخته. وضع المصباح على أرض الغرفة وجلس بالقرب من كيس للأرز، عند قدم سريره.

قال: ــ إنها نائمة، هيا إلى النوم أنت أيضًا.

كانت سوزان تفضل أن تنتظر. نادرًا ما كانت تذهب إلى غرفة جوزيف. كانت الغرفة التي تحوي أقل مفروشات في البيت الخشبي. لم يكن فيها أي أثاث ما عدا سرير جوزيف. بالمقابل كانت القواطع الجدارية مرصوص عليها البنادق والجلود التي قام هو بدباغتها والتي كانت تتعفن ببطء وهي تبعث رائحة مقززة ومثيرة للغثيان. في طرف الغرفة، من جهة النهر، كان هناك المستودع الذي أعدته الأم بإغلاق الشرفة. منذ ست سنوات وهي تكدس فيها المعلبات، والحليب المكثف، والخمر، والكينين، والتبغ وكانت تحمل

المفتاح، ليل نهار، وقد علقته بشريط في رقبتها. ربما الخاتم الآن موجود هناك، في ظل علبة حليب مكثف.

كفّت سوزان عن البكاء. كانت تفكر في جوزيف. لقد جلس على كيس من الأرز، وسط تلك الأشياء التي كان يحرص عليها أشد الحرص: بندقياته وجلوده. كان جوزيف صياذا، ولا شيء غير ذلك. كان يرتكب أخطاءً إملائية تفوق أخطاءها. كانت الأم تقول دائمًا إنه لا يصلح للدراسة وإن ذكاءه موجه إلى الميكانيكا، والسيارات، والصيد. ربما كانت على حق. ولكن ربما كانت تقول ذلك لمجرد أنها تبرر لنفسها عدم متابعته الدراسة. منذ وصولهم إلى السهل، راح جوزيف يصطاد. في الرابعة عشرة من عمره، كان قد بدأ الصيد ليلاً، كان يبني برج مراقبة لنفسه ويذهب وحده إلى الصيد بدون مرشد، حافي القدمين، خلسة من الأم. لا شيء كان يحبه في العالم أكثر من انتظار النمر الأسود في مصب النهر. كان بإمكانه أن ينتظره طوال ليالٍ وأيامٍ وحده، مهما كان الطقس، وهو منبطح على الطين. انتظر مرة ثلاثة أيام وليلتين وعاد بفهد أسود عمره سنتان. كان قد وضعه في مكان بارز من طرف مركبه وتجمع الفلاحون على شواطئ النهر ليروا وصوله.

حين كان يفكر، شأنه ذاك المساء، بصعوبة واشمئزاز، لا يمكن لأحد أن يمتنع من أن يجده جميلاً جدًا وأن يحبه حبًا قويًا.

كرر جوزيف قوله: ــ اذهبي، لا تقلقي...

كان يبدو تعبًا، طلب منها أن تذهب ويبدو أنه نسي بعد ذلك فورًا أنها هناك.

سألته سوزان: ــ لقد مللت من العيش هنا؟

رفع عينيه واكتشف وجودها، وقد جلست على حافة سريره، بثوبها الممزق.

ــ هذا غير مهم. هل آلمتك؟

ــ ليس هذا ما أشكو منه...

ــ هل تسأمين، أنت؟

ــ لا أدري.

ــممَ تسأمين؟

قالت سوزان: ــ من كل شيء، مثلك. لا أدري.

قال جوزيف: ــ اللعنة، يجب أن نفكر فيها أيضًا، إنها عجوز، لا أحد يدرك ذلك، ثم إنها ملت من كل شيء أكثر منا. ثم لقد انتهى كل شيء بالنسبة إليها...

ــ انتهى أي شيء؟

ــ توقفت عن المزاح. لم تمزح على الإطلاق، ولن تلهو لأنها أصبحت مسنة جدًا على ذلك، لم يعد لديها الوقت... هيا، اذهبي للنوم، أريد أن أنام.

نهضت سوزان. كانت على وشك الخروج حين سألها جوزيف:

ــ هل ضاجعته أم لم تضاجعيه؟

ــ كلا، لم أضاجعه.

ــ إنني أصدقك. ليس الأمر بالمضاجعة لكن يجب أن لا يتم ذلك معه، إنه نذل. يجب أن تطلبي منه غدًا أن لا يعود البتة.

ــ مطلقًا؟

ــ على الإطلاق.

ــ وبعد ذلك؟

قال جوزيف: ــ لا أدري، سنرى.

في اليوم التالي، عاد السيد جو كالمعتاد. كانت سوزان تنتظره في مكان بعلو الجسر.

ما إن سمعت الأم نفير سيارته حتى توقفت عن عملها في أشجار الموز ونظرت إلى الطريق. كانت لا تزال تأمل أن الأمور ستنصلح. كان جوزيف، من الجهة الأخرى للجسر، يغسل السيارة على ضفة الخليج وقد وقف مديرًا ظهره إلى الدرب. حدق في الأم ليمنعها من أن تتحرك، وأن تذهب نحو السيد جو.

كانت سوزان، وهي حافية القدمين، تلبس ثوبًا أزرق قطنيًا من ثيابها القديمة المصنوعة من ثوب قديم للأم. كانت قد أخفت الثوب الذي قدمه لها السيد جو. لم يبقَ من آثار لقائهما إلاّ قدماها ويداها ذوات الأظافر الحمراء.

أثناء الغداء أعلن جوزيف عن قراره بالتخلص من السيد جو ومن زياراته إلى سوزان.

قال جوزيف: ــ لم تعد هناك حاجة لمجيئه. يجب أن تقول له سوزان ذلك بشكل قاطع.

كان الأمر عسيرًا. فما أن استيقظت الأم حتى كانت ترتعش بالمشاريع. كانت تدعي أنها هي التي قررت الذهاب إلى المدينة لتبيع الخاتم. قبِلَ جوزيف ذلك بكل طيبة خاطر. لم يتحدث منذ الصباح عن القطيعة مع السيد جو، أما الأم فبعد أن نهضت من فراشها، سألت سوزان وهما وحيدتان، للمرة الثانية عن ثمن الخاتم. أجابت سوزان "عشرون ألف فرنكٍ". ثم انتهت إلى أن تسألها إذا كانت تعتقد أن لدى السيد جو خواتم أخرى كثيرة غيره التي يملك التصرف فيها بكل سهولة. روت لها سوزان أنه قد خيرها بين ثلاثة خواتم وكلها جميلة وإن كانت أقل أهمية من هذا، لكنه لم يلمح لها بأنه قد يعطيها الاثنين الآخرين. لقد كان يحدثها دائمًا عن خاتم واحد.

ــ بتلك الخواتم الثلاثة تتم نجاتنا، إذا ما شرحتِ له ذلك جيدًا، فسيفهم، وسنُنقَذ.

ـــ لا يهمه أن تتم نجاتنا.

لم تكن الأم تستطيع أن تصدق ذلك.

ـــ إذا فسرتِ له بوضوح، وبأرقام، فمن المستحيل ألا يفهم. بالنسبة إليه، ماذا تعني تلك الخواتم؟ بالطبع لا يمكن أن يلبسها كلها معًا، أما بالنسبة إلينا، فإنها تنقذنا .

أخبرت سوزان جوزيف بذلك لكنه بقي مصممًا على قراره في أن تقطع علاقتها بالسيد جو. أعلن ذلك أثناء الغداء.

سألت الأم: ـــ انتهى كل شيء؟ لمَ تتدخل فيما لا يخصك؟

أجاب جوزيف بهدوء: ـــ انتهى كل شيء، إن لم تقل هي له، فأنا الذي سأقول له.

احمر وجهها احمرارًا شديدًا، ونهضت عن المائدة. ألقت على سوزان نظرة تساؤل. لا شك أنها كانت تود أن تقول لها سوزان شيئًا ما. أما سوزان، فلقد راحت تأكل، وقد خفضت عينيها. حينئذٍ أدركت تواطؤهما فأصيبت بالخيبة. وقفت بينهما، وقد انهارت فجأة، فراحت تصرخ بخجل وبأقل عنفًا من عادتها.

ـــ إذن؟ ماذا سيكون مصيرنا؟

قال جوزيف بعذوبة: ـــ علينا أن نرى. حين يصل الصيادون إلى اليابسة فهم بلا نساء. الهضاب ملأى بالصيادين، وكذلك الأمر

في الشمال. يجب أن نفكر في الأمر، ربما نذهب إلى هناك. على كل حال انتهى الأمر مع السيد جو.

كانت قد أبدت مقاومة، بالرغم من وضوح نبرة جوزيف بأن المقاومة لا تجدي نفعًا.

ـ إن الصيادين يموتون جوعًا، لو كنتِ معه لكنتُ أكثر طمأنينة.

واجهها جوزيف، بعذوبة لا تفارقه. نهض واقترب منها. كانت سوزان، وقد خفضت عينيها، لا تجرؤ على النظر إليهما .

ـ اسمعي، ألم تنظري البتة إلى هذا الشخص؟ لن تضاجعه أختي. وإن كانت لا تملك شيئًا، لا أريد أن يكون هو الذي تضاجعه.

عادت إلى الجلوس. كانت تحاول الخداع.

ـ أنا لا أعتقد أن عليها فورًا أن تقطع علاقتها به. يجب الانتظار قليلاً. ما رأيك يا سوزان؟

ازداد موقف جوزيف قسوة، دون أن يتحدث عن الخاتم مطلقًا.

ـ يجب أن يتم الأمر فورًا. لا تسأليها ما رأيها، لم تضاجع أحدًا على الإطلاق، لا يمكنها أن تعرف كيف تجري الأمور.

ـ يجب أن تبدي رأيها.

قالت سوزان: ــ إنني أفضل صيادًا.

ــ دائمًا صيادوكِ التعساء. لن نخرج مطلقًا من الوضع الذي نحن فيه.

لم يجب أحد. ثم لم يعد أي منهم يتحدث في ذاك الموضوع.

وفي الساعة المعتادة، وصل السيد جو من الجسر، وقد جلس في مؤخرة سيارته الرائعة. كان المطر قد تساقط في الليل وكانت السيارة ملوثة بالوحل. لكن السيد جو كان يقوم في كل الأحوال الجوية باجتياز خمسين كيلومترًا يوميًا لرؤية سوزان. ما أن لمحها حتى أوقف سيارته قرب الجسر. اقتربت سوزان حتى باب السيارة ونزل السيد جو فورًا، وقد لبس بذلته الحريرية. لم يحصل جوزيف البتة على بذلة حريرية. كانت جميع بذلات السيد جو حريرية. وإذا ما فقدت شيئًا من بهائها، أعطاها السيد جو إلى سائقه. كان يقول إن هذا النوع من الحرير أرطب من القطن وإنه لا يستطيع أن يتحمل قماشًا من نوعٍ آخر لأن جلده رقيق وحساس. كان هناك فروق كبيرة بينهم وبين السيد جو.

قال السيد جو: ــ كنت تنتظرينني؟ هذا لطف منك...

كانت سوزان تقف بالقرب منه. أخذ يدها وقبلها. لم يكن بعد قد رأى الأم ولا جوزيف، ينتظران، جامدين. كانا، عادة، حين

،

يشاهدانه قادمًا يعملان بحمية كي لا يضطرا إلى الإجابة على تحيته. سحبت سوزان يدها من يد السيد جو وبقيت واقفة.

ــ أتيت لأقول لك أن تكف عن المجيء لرؤيتي.

تغيرت سحنة السيد جو. رفع قبعته ثم أعاد وضعها وهو يحدق بسوزان بمظهر تائه.

ــ ماذا تقولين؟

خفت صوته فجأة. جلس على الهضبة، دون أن يخشى من تلويث ملابسه، ودون أن يخرج صحيفته من جيبه ليبسطها على الأرض كما كان يفعل عادة. كانت سوزان، وقد بقيت واقفة بالقرب منه، تنتظر أن يفهم. من بعيد، كانت الأم وجوزيف ينتظران أيضًا.وأخيرًا لمحهما السيد جو. كانت الأم لا تزال تأمل بلا شك أن تتصلح الأمور وأن يعود السيد جو ثانية، وقد ساعده ذاك التهديد، بجيوب امتلأت بالماسات ليستغفر. كان جوزيف يأمل، بسبب الأم، أن يفهم السيد جو بسرعة كبيرة.

قالت سوزان: ــ عليك أن لا تعود بعد الآن، عليك أن لا تعود على الإطلاق.

بدا كأنه لم يحسن السمع. راح يعرق وتابع خلع قبعته وإعادة لبسها كأنه من الآن فصاعدًا لم يعد يعرف حركة سواها. أخذ نظره يتنقل من سوزان إلى الأم، ومن الأم إلى جوزيف، ومن سوزان إلى جوزيف، دون توقف. كان يحاول أن يفهم، وقد تاه في الفرضيات.

لقد أعلنوا له أنه لن يستطيع أن يعود، غداة اليوم الذي أعطاهم فيه الماسة. حينئذٍ تابع خلع قبعته وإعادة وضعها ولقد كان واضحًا أنه لن يتوقف عن ذلك إلاَّ حين يفهم قصدهم.

سألها بصوت واثق: ــ من قرر ذلك؟

قالت سوزان: ــ إنها هي.

سأل السيد جو ثانية بتشكك مباغت: ــ أمك؟

ــ إنها هي. جوزيف موافق.

رمى السيد جو من جديد نظرة سريعة نحو الأم.

كانت تنظر إليه دائمًا بعيون مفعمة بالحب. لا يمكن أن تكون هي.

ــ ماذا حدث؟

إذا ابتعد من هنا، فسألحق بجوزيف. كان في هذا اليوم مثل سيارته يتساويان. بالأمس كانت تلك السيارة ذات أهمية بالنسبة إليها لأنه لم يكن من المستحيل تمامًا الحصول عليها ذات يوم. أما الآن فلقد تباعدت كثيرًا عن سوزان. لم يعد هناك أي خيط، مهما كان واهيًا، يربطها بتلك السيارة. وأصبحت السيارة مربكة ودميمة.

ــ إنك لا تروق لهما. وكذلك بسبب الخاتم.

خلع السيد جو قبعته. استرسل في التفكير.

ــ بما أنني أعطيتك إياه، هكذا، بلا مقابل...

ـــ من العسير أن أشرح لك.

أعاد السيد جو وضع قبعته، بلا جدوى. لم يكن يفهم ما تقول. لم يبدُ مصممًا على الرحيل، كان ينتظر أن يُفسر له. كان لديه الوقت الكافي، أما هي، فلا: إن سماع الحديث يمتد من دقيقة إلى أخرى يدعم أمل الأم.

قال السيد جو: ـــ هذا فظيع، هذا ظلم.

كان يبدو أنه يتألم كثيرًا. لكن ألمه شأن سيارته، مزعج وأشد قبحًا من المعتاد، وليس هناك أي خيط مهما كان واهيًا يمكنه أن يربطك بها.

قالت سوزان: ـــ عليك بالرحيل.

فجأة، وقد اتخذ مظهر المتهكم، راح يضحك ضحكة متكلفة.

ـــ والخاتم؟

شرعت سوزان تضحك بدورها. إذا فكر في استرجاع الخاتم فسيكون الأمر أقرب إلى التسلية والضحك. كان السيد جو إنسانًا ساذجًا. بالرغم من ثرائه، إذا ما قورن بهم، بدا إنسانًا ساذجًا وصغيرًا. كان يظن أنهم سيعيدون ذاك الخاتم. ضحكت سوزان بنضارة وعفوية.

قالت سوزان: ـــ أنا التي، أنا التي أملكه.

قال السيد جو وقد ازداد تهكمه بضرب من الخبث:

ـ هيا إذن، أرني قليلاً ما تريدين أن تفعلي به؟

تابعت سوزان ضحكها. لم تكن ملايين السيد جو تغير شيئًا من براءتها العفوية. لأن هذا الخاتم كان لهما بقدر ما هو لها ومن العسير استرجاعه فكأنهم قد أكلوه وهضموه، كما لو أنه قد ذاب في لحم أجسادهم.

ـ سنذهب غدًا إلى المدينة لنبيعه.

أطلق السيد جو دون توقف " عجبًا، عجبًا، عجبًا " كما لو أن الأمور قد وضحت وربما بضحكة مستهزئة ذات مدلول، من يدري؟ ثم أضاف: ـ وإذا استرجعته؟

ـ لن تستطيع. الآن عليك أن ترحل.

توقف عن الضحك. نظر إليها طويلاً واحمر وجهه احمرارًا شديدًا. لم يفهم شيئًا. خلع قبعته وبصوت قد تغير، قال بحزن:

ـ إنك لم تحبيني. كل ما أردت هو الخاتم.

ـ لم أرد الخاتم بشكل خاص، لم أفكر فيه البتة. أنت الذي تحدثت عنه. كنت أطمح إلى أكثر من ذلك بكثير. لكن بما أننا نملكه الآن، أظن أنني أفضل أن أرميه في النهر على أن أعيده إليك.

لم يكن يستطيع أن يقرر الذهاب. استمر في التفكير مطولاً حتى إن سوزان أعادته إلى الواقع بقولها:

ـ يجب أن ترحل.

قال السيد جو بلهجة اقتناع عميق: ــ إن أخلاقكم شديدة الفساد.

ــ إننا هكذا. عليك أن ترحل.

نهض بمشقة. وضع يده على مقبض السيارة، انتظر لحظة وأعلن مهددًا.

ــ لن تنتهي الأمور هكذا، غداً سأكون أنا أيضًا في المدينة.

ــ لا ضرورة لذلك، فإن هذا لا يجدي نفعًا.

أخيرًا صعد إلى سيارته وقال شيئًا لسائقه الذي بدأ في تشغيل السيارة في مكانها. كان الطريق ضيقًا وكانت العملية طويلة وصعبة. عادة كانت السيارة تدور على مرحلتين، وهي تسلك الدرب المؤدي إلى البيت الخشبي. أما اليوم فلقد تجنبت الطريق بكل كرامة. كان جوزيف مع ذلك، يراقب العملية، على ضفة البحيرة. كانت الأم وقد تسمرت في مكانها، مصلوبة، تنظر إلى رحيل السيد جو الذي لا يمكن تعويضه. قبل أن تدور سيارته تمامًا، دخلت مهرولة إلى البيت الخشبي. انطلقت سوزان في اتجاه جوزيف. في اللحظة التي التقت بها السيارة، لمحت خلسة السيد جو، الذي كان يلقي عليها، من خلال الزجاج، نظرة متوسلة. انحرفت عن الطريق وهي تسلك حقل الأرز لتتصل بالقرب من جوزيف بشكل أسرع.

كان قد انتهى من غسل السيارة. إنه الآن ينفخ إطارًا للمرة الثانية.

قالت سوزان: ـــ لقد انتهى الأمر.

ـــ لم يتم ذلك بسرعة...

كان الإطار الذي يصلحه جوزيف مثقوبًا من أماكن ثلاثة. كان الإطار الداخلي لا يزال صالحًا وكان جوزيف قد وضع قطعًا من الإطارات القديمة بين الإطار الداخلي والإطار الخارجي الذي كان يصلحه ليدعمه. كان ينفخ بقوة كي لا تنزلق القطع. جلست سوزان على ضفة البحيرة ونظرت إليه ينفخ الإطار.

سألت سوزان: ـــ هل يستغرق عملك وقتًا طويلاً؟

ـــ نصف ساعة. لماذا؟

ـــ لا لشيء.

كان الطقس حارًا جدًا. توقفت سوزان عن متابعة عمل جوزيف. دارت على نفسها، رفعت ثوبها، وبللت ساقيها في البحيرة. ثم، مسحت ساقيها بيديها حتى فخذيها. أحست شعورًا لذيذًا. بدا لها فجأة، أنها منذ شهر وهي تنتظر أن تتمكن بحرية من أن ترفع ثوبها وأن تغوص بساقيها في البحيرة. جعّدت حركتها سطح الماء كله وأجفلت الأسماك. كان بها رغبة غامضة في أن تذهب إلى البيت الخشبي لتحضر صنارة لكنها لم تكن تجرؤ على العودة إلى هناك دون جوزيف. ما إن انتهى من إصلاح الإطار الأول حتى شرع في إصلاح إطار النجدة الذي كان مشقوقًا. أخرج منه الإطار الداخلي. لم

يكن أحد يستطيع أن يساعد جوزيف حين كان يهتم بالسيارة ذات الطراز (B.12)، كان يطلق السباب بين الفينة والفينة.

ــ قذارة القذارة، تلك السيارة العاهر!

في البحيرة، كان الجبل يرتسم، متموجًا، على سماء رمادية تميل إلى اللون الأبيض. ستمطر ثانية في الليل. كان يصعد من جهة البحر غيوم بنفسجية ضخمة. غدًا سيكون الطقس باردًا بعد عاصفة الليل. يمكن الوصول إلى المدينة مساءً في ساعة متأخرة شريطة أن لا تنشق الإطارات كثيرًا في الطريق. سيبيعون الخاتم في اليوم التالي صباحًا. سيكون ذلك أول شيء يفعلونه. كانت المدينة ملأى بالرجال." من هي تلك الشابة الحسناء هناك؟ " إنها آتية من الجنوب، لا أحد يعرفها." مهما قالت الأم، فهناك حتمًا رجل يناسب سوزان، في المدينة. ربما هو صياد، ربما مزارع، لا بد أن يكون هناك بشكل أكيد واحد لها.

انتهى جوزيف من تركيب الإطار.

ــ هل نذهب إلى الجبل؟ سنذهب بحثًا عن الفراريج لنأكلها في الطريق إلى المدينة؟

نهضت سوزان وضحكت لجوزيف.

ــ هيا، فلنذهب فورًا يا جوزيف.

ــ سأضع السيارة العتيقة تحت البيت الخشبي وننطلق.

مضى زمن طويل لم يذهب جوزيف فيه إلى المدينة وكان سعيدًا.

صف جوزيف السيارة تحت البيت الخشبي لكنه تجنب الصعود. لا شك أن الوقت كان مبكرًا جدًا بعد رحيل السيد جو. عادة كان لا يذهب إلى الغابة على الإطلاق بدون بندقيته.

اجتازا القسم الذي كان يفصل البيت الخشبي عن الدرب وعن الجبل. بدأت الأرض بارتفاع قليل واختفت حقول الأرز، تاركة حقولاً قصبية جرداء قاسية على شكل W ومرتفعة جدًا تدعى "عشب النمر" تنزل عبرها الوحوش مساءً. كان الوصول إلى الغابة يتطلب ربع ساعة من المشي.

سأل جوزيف: ــ ماذا قال لك؟

ــ قال لي إنه سيذهب إلى المدينة هو أيضًا.

راح جوزيف يضحك. كانت السعادة تشع منه.

ضاق الطريق، وأصبح منحدر الأرض أكثر وعورة وبدأت الغابة تظهر على شكل فرجة ترعى فيها العنزات والخنازير. قطعا قرية فقيرة جدًا مؤلفة من عدة أكواخ. بعد ذلك، ابتدأت الغابة، وفق الخط الواضح تمامًا بعد الأراضي المستصلحة. لم يستصلح سكان السهل أية أرض بعد ذاك الخط، لم يكن ذلك يجدي نفعًا: إن الأراضي الملائمة لزراعة أشجار البهار كانت موجودة في أماكن

أكثر علوًا بكثير في الجبل ولم يكن هناك حاجة ملحة لوجود مراعٍ لعدة عنزات يملكها السكان.

تابع جوزيف السؤال: ــ وبخصوص الخاتم؟

ترددت سوزان ثانية: ــ لم يقل لي شيئًا.

ما أن دخلا إلى الغابة حتى أصبح الطريق دربًا ضيقًا يساوي عرضه

عرض صدر رجل ويماثله نفق تنغلق الغابة فوقه، كثيفة، معتمة.

قال جوزيف: ــ إنه مَغفل، ليس شريرًا لكنه على درجة كبيرة من البلاهة.

كانت النباتات المتسلقة والسحلبيات، قد اكتسحت الغابة بشكل كابوسي مرعب، فائق للطبيعة، فغلفتها بكاملها وحولتها إلى كتلة متماسكة وخانقة لا يمكن اختراقها شأنها شأن الأعماق البحرية. كانت النباتات المتسلقة ترتفع على علو مئات الأمتار طولاً تربط الأشجار بعضها ببعض، وفي قممها، تزدهر في حرية ازدهارًا كبيرًا لا يمكن تخيله: "أحواض" ضخمة من السحلبيات، أمام السماء تقذف أزهارًا مدهشة لم يكن يشاهد إلاَّ أطرافها أحيانًا. كانت الغابة تقع تحت تفرع فسيح من أحواض السحلبيات الممتلئة بالمطر والتي كانت فيها الأسماك ذاتها الموجودة في خلجان السهل.

قالت سوزان: ــ لقد قال لي إننا أناس لا أخلاقيون.

ضحك جوزيف مرة أخرى.

ــ أوه، من المؤكد أننا كذلك.

كان يصعد من كل أرجاء الغابة ضجيج البعوض الهائل وقد اختلط بزقزقة الطيور المستمرة والحادة. كان جوزيف يمشي في المقدمة وتلحقه سوزان على بعد خطوتين. في منتصف الطريق بين السهل وقرية الحطابين، أبطأ جوزيف السير. قبل عدة أشهر، في ذاك المكان، كان قد قتل الفهد الذكر. كانت فرجة صغيرة تُبيت فيها الوحوش فرائسها تحت الشمس الساطعة. كانت غيوم من الذباب ترقص على عشب الفرجة الصفراء وسط كومات من الريش اليابس والنتن.

قال جوزيف: ــ ربما كان عليَّ أن أشرح له بنفسي. لا شك أنه لم يفهم شيئًا.

ــ ماذا تشرح له؟

ــ لماذا لا نريد أن تضاجعيه. من العسير على المرء أن يفهم حين يكون مليئاً بالمال مثله.

بعد مسافة قصيرة من النهر الذي يجتاز الفرجة بدأ يشعران برائحة أشجار المانجو الصمغية ويسمعان صيحات الأطفال. كانت الشمس قد اختفت في ذلك القسم من الجبل. كان عبير العالم ينبعث

من الأرض، من الأزهار، من كل الأجناس، من النمور القاتلة وفرائسها البريئة التي تضج لحمها من حرارة الشمس، وقد اختلطت كلها في سديمية بداية العالم.

أعطوهما بعض ثمار المانجو. وساعدا الأطفال على إمساك الفراريج وبينما راحت النساء يذبحنها، سأل جوزيف الرجال إذا كان الصيد حسناً في تلك الفترة. كان الجميع مسرورين من زيارتهما. كان الرجال يعرفون جوزيف تمام المعرفة لأنهم غالبًا ما اصطادوا معه. سألوهما عن أخبار الأم. كان رجال تلك القرية هم الذين أمّنوا لهم خشب بيتهم. كانوا كلهم حطابين. كانوا قد هربوا من السهل وأتوا ليقيموا في هذا القسم من الغابة التي لم تدخل في سجلات مصلحة مساحة الرجال البيض، كي لا يدفعوا الضرائب ولا يغامروا بأن تنتزع الملكية منهم.

رافق الأطفال سوزان وجوزيف حتى النهر. كانوا عراة تمامًا ومطليين بالزعفران من أقدامهم حتى رؤوسهم، كان لونهم ونعومتهم يماثلان لون ثمار المانجو ونعومتها والتي لم تنضج بعد. قبل الوصول إلى النهر بقليل، صفق جوزيف بيديه كي يهرب الأطفال ولقد كانوا يهابون الناس بريبين لدرجة أنهم هربوا وهم يطلقون صيحات حادة تذكر بصراخ بعض الطيور في حقول الأرز. كان يموت منهم أعداد كبيرة جدًا في تلك القرى التي يكتسحها وباء الملاريا حتى أن الأم قد عدلت عن الذهاب إلى تلك القرى منذ سنتين. وكان غالبًا ما يموت هؤلاء دون أن يعرفوا أفراح الدرب،

وقبل أن يشتد عودهم ليقطعوا وحدهم كيلو متري الغابة اللذين يفصلانها عنهم.

إن الأم، وقد جلست في غرفة الطعام، لم تكن بعد قد أشعلت مصباح الأسيتيلين. كانت في الظلام، بالقرب من الفرن الذي يُطهى عليه تحت نار خفيفة نوع من يخنة الطيور المائية. لا شك أنها قد رأتهما يذهبان نحو الجبل كما لاحظت أن جوزيف بدون بندقيته. كانت تترقب حتمًا، منذ ساعة، عودتهما. وإذا كانت لم تضئ المصباح فبالطبع لتراهما يصلان من بعيد دون أن يضايقها بريق المصباح. لكن حين دخل جوزيف وسوزان، لم توجه إليهما أية كلمة.

قال جوزيف: ـــ ذهبنا لنأتي بالفراريج للسفر.

لم تجب. أشعل جوزيف المصباح وأنزل الفراريج إلى العريف كي يطبخها. صعد ثانية وهو يصفر لحن *رامونا*. راحت سوزان بدورها تصفر *رامونا*. أما الأم وقد بهرها النور، فلقد رفرفت عيناها وابتسمت لولديها. ابتسم لها جوزيف بدوره. كان واضحًا أنها لم تعد غاضبة على الإطلاق وأنها كانت حزينة فقط لأن الماسة التي خبأتها ستكون الوحيدة في حياتها وأن النبع قد نضب.

كرر جوزيف قوله: ـــ ذهبنا لنأتي بالفراريج لنأكلها في طريقنا.

قالت سوزان: ـــ أترين أين؟ في القرية الواقعة بعد النهر، القرية الثانية بعد فرجة الغابة.

قالت الأم: ـــ مضى زمن طويل لم أذهب إلى هناك، إلى تلك القرية، لكنني أرى أين.

قال جوزيف: ـــ سألوا عن أخبارك.

تابعت الأم: ـــ كنتَ بدون بندقية، وهذا ليس من الفطنة، هذا...

قال جوزيف: ـــ للذهاب إلى هناك بسرعة أكبر.

ذهب جوزيف إلى غرفة الاستقبال وبدأ بتشغيل فونوغراف السيد جو. لحقت به سوزان. نهضت الأم ووضعت صحنين على الطاولة. كانت حركاتها بطيئة كما لو أن انتظارها الطويل في الظلام قد خدرها كلها حتى الروح. أطفأت الفرن ووضعت طاسة القهوة السوداء بين الصحنين. كان جوزيف وسوزان يتبعانها بعينيهما، المفعمتين بالأمل، كما كانا يتبعان بعينيهما الحصان العجوز. قد يُظَنُّ أنها كانت تبتسم لكن الملل هو الذي لطف تقاطيع وجهها، أجل الملل والزهد.

ـــ تعالوا لتأكلوا، الطعام جاهز.

وضعت يخنة الطيور البحرية على الطاولة وجلست متثاقلة أمام طاسة القهوة. ثم تثاءبت طويلاً، بصمت، كما تفعل كل مساء في ذاك الوقت. أخذ جوزيف شيئًا من طبق الطيور البحرية وكذلك فعلت سوزان. بدأت الأم تفك ضفائرها ثم تعيد ضفرها لليل. لم تكن تبدو جائعة. كان كل شيء هادئًا ذاك المساء حتى لكانت تسمع الطقطقات

الخافتة لألواح القواطع التي كانت تهتز. كان البيت متينًا، لا مأخذ عليه، فهو يقف بتماسك، لكن الأم كانت في عجلة كبيرة جدًا لبنائه وكان الخشب الذي بُني به أخضر لم ييبس. كثير من الألواح قد تشققت وانفصلت عن بعضها حتى إنه يمكن أن ترى الآن من سريرها النهار يشرق، وفي الليل، حين كان الصيادون يعودون من رام، كانت أضواء سياراتهم تكتسح جدران الغرف. لكن الأم كانت هي وحدها تشكو من ذاك الضرر. كان جوزيف وسوزان يفضلان تلك الحالة. كانت السماء من جهة البحر تشتعل بومضات حمراء كبيرة. سيهطل المطر. كان جوزيف يأكل بنهم.

ـــ إنه لذيذ.

قالت سوزان: ـــ إنه طيب، إنه رائع.

ابتسمت الأم. حين يأكلا بشهية كانت دائمًا سعيدة.

ـــ لقد وضعت فيه قليلاً من النبيذ الأبيض، وهذا هو السبب.

كانت قد طبخت اليخنة وهي تنتظر عودتهما من الجبل. لا شك أنها قد ذهبت إلى المستودع، وفتحت زجاجة نبيذ أبيض وسكبت منه بورع في اليخنة. حين كانت تقسو كثيرًا على سوزان أو حين كانت قد ملت أو ضاق ذرعها بالحياة، أو حين كانت حزينة نوعًا ما، كانت تطبخ نشاءً بالحليب المكثف أو تقلي فطائر بالموز أو تعد يخنة طيور بحرية. كانت تحتفظ دائمًا بتلك المتعة لأيام الشدة.

ـــ إذا أحببتماه، يمكنني أن أطبخه ثانية.

أخذ كل واحد مرة ثانية من طبق الطيور البحرية. حينئذ انبسطت أساريرها تمامًا.

ـــ ماذا قلت له؟

لم يحرك جوزيف ساكنًا.

قالت سوزان دون أن ترفع عينيها: ـــ لقد شرحت له.

ـــ ألم يقل شيئًا؟

ـــ لقد فهم.

فكرت:

ـــ وبخصوص الخاتم؟

ـــ قال إنه يعطيه. إن خاتمًا كهذا، بالنسبة إليه، لا قيمة له.

انتظرت قليلاً بعض الوقت.

ـــ ما رأيك في ذلك، يا جوزيف؟

تردد جوزيف ثم أعلن بصوت حازم، غير منتظر:

ـــ تستطيع هي أن تحصل على من تشاء. في الماضي لم أكن مؤمنًا بذلك أما الآن فإنني واثق من ذلك تمام الثقة. لا عليك بعد الآن أن تقلقي عليها.

نظرت سوزان بدهشة إلى جوزيف. لم يكن أحد ليعرف مطلقًا ماذا كان قد قرر. ربما لم يكن يتحدث على ذاك النحو إلاً ليطمئن الأم.

سألت سوزان: ــ ماذا تقول؟

لم يرفع جوزيف عينيه نحو أخته. لم يكن حديثه موجهًا إليها.

ــ إنها تحسن التصرف. مع من تريد ومتى تريد.

نظرت الأم إلى جوزيف نظرة عميقة أقرب إلى الألم ثم، فجأة راحت تضحك.

ــ ربما كان ما تقوله صحيحًا .

توقفت سوزان عن الأكل، واستندت بظهرها إلى مقعدها وبدورها، نظرت إلى جوزيف طويلاً.

قالت الأم: ــ يجب أن نرى كيف حصلت على من تريد.

قال جوزيف: ــ يكفي أن تريد ذلك.

نهضت سوزان ثانية وضحكت.

قالت: ــ وكذلك بالنسبة إلى جوزيف، يجب أن تكفي عن القلق هكذا طوال الوقت.

عادت الأم إلى جديتها وتفكيرها مدة دقيقة.

ــ صحيح أنني أقلق طوال الوقت...

وبعد ذلك فورًا سيطر عليها حماس عذب.

صرخت سعيدة: ــ ليست المتعة مقصورة على الأغنياء فقط. يجب عدم الاستسلام لأول غني تصادفينه.

قال جوزيف: ــ اللعنة، ليس هناك أثرياء فقط، هناك آخرون، هناك نحن، نحن أيضًا أغنياء...

كانت الأم مبهورة:

ــ نحن أغنياء؟ أغنياء؟

ضرب جوزيف بقبضته على الطاولة، وقال مؤكدًا:

ــ إننا أغنياء، إذا صح القول، إذا أردنا فنحن نساوي الآخرين ثراءً، اللعنة، يكفي أن نريد، ثم نصبح كذلك.

راحوا يضحكون. أخذ جوزيف يضرب بقوة بقبضته عدة ضربات على الطاولة. فعلت الأم مثله.

كان جوزيف كأنه يمثل دورًا سينمائيًا.

قالت: ــ ربما كان ذلك صحيحًا، إذا أردنا فعلاً، صرنا أغنياء.

قال جوزيف: ــ اللعنة، وحينئذٍ، الآخرون، نسحقهم على الطرقات، أينما سنجدهم سنسحقهم.

كان جوزيف يمر أحيانًا بتلك الحالة الغريبة. حين كان يحدث ذلك، نادرًا والحق يُقال، كان يتفوق على السينما.

قالت الأم: ــ آه! من أجل ذلك أنا موافقة، سنسحقهم، وسنقول لهم ما رأينا. وسنسحقهم...

قالت سوزان: ــ ثم لن نبالي بسحقهم. سنريهم كل ما لدينا، أما نحن، فلن نعطيهم شيئًا من ذاتنا.

الجزء الثاني

كانت مدينة كبيرة يقطنها مائة ألف نسمة وقد امتدت من جهة إلى أخرى على شاطئ نهر عريض وجميل.

وكما الحال في كل المدن الاستعمارية فلقد كانت هناك مدينتان في تلك المدينة؛ المدينة البيضاء والمدينة الأخرى. وفي المدينة البيضاء كانت هناك فوارق. كان المحيط الخارجي للحي العالي، وقد بني من دور فخمة، ومن بيوت للسكن، أكثر فساحة، وأكثر تهوية، لكنه كان يحتفظ بشيء من الدنيوية. أما الوسط، فلقد كانت تضغط عليه من كل الجوانب كتلة المدينة، فيقذف بنايات تزداد علوا عامًا بعد عام. لم يكن في ذلك القسم قصور الحكام، ولا السلطة الرسمية، بل كان هناك السلطة العميقة، كهنة تلك الكعبة، رجال المال.

كانت الأحياء البيضاء لكل المدن الاستعمارية في العالم، في تلك السنوات، ذات نظافة لا يشوبها شائبة. لم يكن الأمر يقتصر على المدن وحدها. فلقد كان الرجال البيض كذلك نظيفين جدًا. ما أن يصلوا حتى يتعلموا أن يغتسلوا يوميًا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأطفال، الذين يلبسون لباس المستعمرة الموحد، أي البزة البيضاء، لون المناعة والبراءة. حينئذ، تكون قد تمت الخطوة الأولى. كانت المسافة تزيد بقدر ما كان الفرق الأول يتضاعف، أبيض على أبيض، فيما بينهم وبين الآخرين، الذين كانوا ينظفون أنفسهم بأمطار السماء

وبمياه الأنهار الملأى بالطمي وبالسواقي الموحلة. بالفعل، فإن الأبيض يتسخ بسرعة فائقة.

هكذا اكتشف الرجال البيض بين ليلة وضحاها أنهم أكثر بياضًا من أي وقت مضى، وقد اغتسلوا، وهم جديدون، ينامون بعد الظهر في قيلولة بظلال بيوتهم الفخمة، إنهم وحوش ضخمة بثوب هش.

كان لا يسكن في الحي العالي إلاّ البيض الذين جمعوا الثروات. ولإظهار الفرق الشاسع لمسيرة البيض، كانت شوارع الحي العالي وأرصفته عظيمة الاتساع. كانت فسحة مفرطة السعة، لا نفع فيها متاحة لخطوات مهملة يخطوها أصحاب النفوذ إبان استراحتهم. وفي الشوارع العريضة المشجرة كانت تنساب سياراتهم المطاطية، وقد تعلقت بشبه صمت مؤثر.

كان كل ذلك مطليًا بالزفت، واسعًا، محاطًا بالأرصفة المزروعة بأشجار نادرة ويفصلها صفّان من أراضٍ مُعشَبة ولُحواض للزهور وقد اصطف على طولها رتل من سيارات الأجرة الفخمة اللامعة. كانت تلك الشوارع ، خضراء، مزهرة، تُسقى يوميًا مرات كثيرة، وكانت العناية بها توازي العناية بممرات حديقة حيوانات شاسعة حيث كان يسهر عليها الأصناف النادرة من الرجال البيض. كان وسط الحي العالي معبدهم الحقيقي. كانت تمتد في الوسط وحده، في ظل أشجار التمر الهندي، أسطح شاسعة للمقاهي. هناك، مساءً،

كانوا يلتقون فيما بينهم. كان خدام المقهى وحدهم ما زالوا من السكان الأصليين، وقد تنكروا بأزياء البيض، فلبسوا السترات الرسمية، شأنهم شأن أشجار النخيل الموجودة في أسطح المقاهي وقد زُرعت في أصص. كان من الممكن رؤية الرجال البيض، حتى ساعة متأخرة من الليل، وقد جلسوا في كراسي من الخيزران خلف أشجار النخيل التي في أصص ووراء خدم المقهى بستراتهم الرسمية، كان هؤلاء البيض يحتسون نبيذ (البيرنو)، والويسكي بالصودا، أو كحولاً أخرى، ويصنعون لأنفسهم كبدًا استعماريًا بحتًا، منسجمين مع المشهد كله.

كان لمعان السيارات، وواجهات المخازن، والطريق المرصوف وقد سُقي، وبياض الملابس بياضًا ناصعًا، ونضارة الأرض المبللة التي تغطيها الزهور، كان كل ذلك يجعل من الحي العالي ماخورًا سحريًا حيث كان العرق الأبيض، في سلام لا تشوبه شائبة، يستطيع أن يمتع نفسه بالمشهد المقدس لحضوره الخاص به. كانت حوانيت ذلك الشارع، للأزياء، للعطور، لأصناف التبغ الأميركية لا تبيع أي شيء ضروري. حتى إن المال ذاته، هنا ، كان لا ينفع لشيء. يجب ألاّ تثقل ثروة البيض عليهم. كان كل شيء هنا يقطر نبلاً.

كانت تلك الفترة العصر الذهبي. كان مئات آلاف العمال من السكان الأصليين يفصدون الأشجار الواقعة في مائة ألف هكتار من الأراضي الحمراء وهم يكدون في فتح أشجار المائة ألف هكتار من

الأراضي التي كانت تسمى صدفة الحمراء قبل أن يملكها بعض المئات من المزارعين البيض ذوي الثروات الضخمة. كانت عصارة نبات الجلباب تسيل. وكذلك الدماء. لكن عصارة نبات الجلباب وحدها هي التي كانت ثمينة، ويُجَمَع، وحين يُجمع، يُدفع فيه المال. كانت الدماء تضيع. وكان الجميع ما زالوا يتجنبون تخيل أن هناك أعدادًا كبيرة ستطالب ذات يوم بالثمن.

كان خط سير حافلات النقل يحرص على تجنب الحي العالي. بالطبع، لا ضرورة لحافلات النقل في ذاك الحي من المدينة، حيث كان كل واحد يسير بسيارة. كان السكان الأصليون وحدهم وحثالة البيض من الأحياء المنخفضة يتجولون بالحافلات. كان خط سير تلك الحافلات يحدد حصرًا جنة الحي العالي. كانت تلك الحافلات تلف حوله بشكل صحي وفق خط مركز تقع عليه المحطات كلها، وتبعد عن الوسط كيلومترين على الأقل.

انطلاقًا من تلك القاطرات المكتظة التي كانت تتقدم ببطء مميت، وقد ابيضت من الغبار، تحت شمس محرقة تثير الدوار، وسط جلجلة حديدية، يستطيع المرء أن يكّون فكرة عن المدينة الأخرى، تلك التي لم تكن بيضاء. كانت تلك الحافلات قديمة ولم تعد تستخدم في العاصمة، وقد صُنعت بالتالي للبلاد المعتدلة المناخ، كانت قد رُتقت وأعيدت إلى الاستعمال من الوطن الأم إلى مستعمراتها. كان المواطن الأصلي الذي يقودها يزهو بلباسه الرسمي للقيادة منذ الصباح الباكر، ويخلعه عن جسمه الساعة العاشرة، ويضعه بالقرب

منه وينهي دومًا خدمته وهو عاري الصدر، يقطر عرقًا، ويشرب قصعة كبيرة من الشاي الأخضر في كل محطة. وذلك كي يعرق وينتعش من تيار الهواء الذي وفره لنفسه منذ أيامه الأولى في الوظيفة وذلك بكسر زجاج مقصورته بكل رباطة جأش. وكذلك كان يفعل الركاب بزجاج مقصورتهم كي يخرجوا منها أحياءً. بعد أخذ تلك الاحتياطات، كانت القطارات تسير بأعداد كبيرة، ومزدحمة على الدوام، وترمز إلى الاندفاع الاستعماري العفوي. كان توسع منطقة السكان الأصليين، وتراجعها المتزايد دائمًا، يفسر نجاح تلك المؤسسة الذي لا يُصدق. وبالتالي، لم يكن هناك أي رجل أبيض جدير بتلك التسمية يمكنه أن يغامر بركوب تلك القطارات، تحت طائلة أن يفقد ماء وجهه أي وجهه الاستعماري، إذا ما رآه أحد.

كان البيض الذين لم يجنوا ثروة، وكذلك المستعمرون من السكان الأصليين يجدون أنفسهم قد أبعدوا إلى تلك المنطقة الواقعة بين الحي العالي والضواحي التي يسكنها السكان الأصليون. هناك، كانت الشوارع بدون أشجار. والأراضي الخضراء قد اختفت. وحل محل مخازن البيض مقصورات يقطنها السكان الأصليون، تلك المقصورات التي كان والد السيد جو قد وجد صيغتها السحرية. لم تكن الشوارع تُرش إلاّ مرة في الأسبوع. كان يعج فيها رهط من الأطفال الفرحين والصاخبين وكذلك الباعة الجوالون الذين كانوا يصرخون حتى تُبح أصواتهم في الغبار المحترق.

كان فندق (هوتيل سنترال) حيث نزلت الأم وجوزيف وسوزان في تلك المنطقة، في الطابق الأول لبناية نصف دائرية تطل من جهة على النهر، ومن جهة أخرى على الخط الدائري لحافلة نقل الركاب، في حين شغل الطابق الأرضي لتلك البناية مطاعم مختلطة بسعر محدد، وبمحششات لشرب الأفيون وبمسمنات صينية.

كان يشغل ذاك الفندق عدد من الزبائن الدائمين: ممثلون لبيوت التجارة، عاهرتان قد استقرتا على حسابهما، خياطة، وعدد كبير من الموظفين التابعين للجمارك وللبريد. كان الزبائن العابرون هم الموظفون ذاتهم الذين سيعادون إلى الوطن، وكان هناك صيادون، ومزارعون، وكذلك، في كل بريد، ضباط من البحرية وخاصة عاهرات من كل الجنسيات كنَّ يأتين إلى الفندق ليتدربن فترة طويلة إلى حد ما قبل أن ينزلن في مواخير الحي العالي، أو في مواخير المرفأ المكتظة حيث يحط على شكل أمواج منتظمة كل المسافرين على خط المحيط الباسيفيكي.

كانت تدير فندق (هوتيل سنترال) امرأة من المستعمرين، السيدة مارت، البالغة خمسة وستين عامًا والتي جاءت مباشرة من ماخور في المرفأ. كان لها بنت، كارمن، ولم تستطع أن تعرف قط من هو أبوها، ولم تكن تريد أن يكون مصير ابنتها مثل مصيرها، لذا كانت قد ادخرت طوال عشرين عامًا من عملها كعاهرة مبلغًا يكفي لتشتري من المؤسسة الفندقية المستعمرة حصة من الأسهم أعطتها حق إدارة الفندق.

كانت كارمن في الخامسة والثلاثين من العمر. كانوا يسمونها الآنسة كارمن، ما عدا النزلاء المعتادين، فلقد كانوا يسمونها باسمها فقط. كانت فتاة شجاعة وطيبة، مفعمة بالاحترام لأمها وقد أراحتها الآن تمامًا من جميع أعبائها وأصبحت هي وحدها مسؤولة عن إدارة الفندق. كانت كارمن طويلة القامة، حسنة الهندام، ذات عينين صغيرتين لكنهما ذاوتا زرقة صريحة وصافية. ربما لم يكن وجهها بذلك القبح، لو أن القدر التعيس الذي صاحب ولادتها لم يزودها بفك بارز جدًا، عوض عن قبحه صف أسنانها الواسع والصحيح، والواضح حتى أن المرء يخالها تريد أن تظهرها دائمًا، ويبدو فمها نهمًا، وحشيًا، وظريفًا. لكن ما جعل كارمن متميزة، وما جعل شخصها لا بديل له، ولا بديل لجاذبية إدارتها، كان ساقاها. كان لكارمن بالفعل ساقان ذواتا جمال يفوق التصور. ولو كان لوجهها جمال ساقيها، كما كان يُتمنى، لحضرنا منذ زمن طويل ذلك المشهد وهو رؤيتها تستقر في الحي العالي يحملها إليه مدير أحد المصارف أو زارع ثري من الشمال، وقد غطيت بالذهب، ولكانت لبست مجد الفضيحة بأناقة وثقة محتفظة بشخصيتها نفسها. ولكن الأمور لم تكن هكذا، لم يكن لكارمن إلاّ ساقاها، وستقوم في أغلب الظن بإدارة فندق (هوتيل سنترال) حتى نهاية عمرها.

كانت كارمن تمضي معظم أوقات نهارها وهي تتنقل في ممر الفندق الطويل جدًا الذي يشرف من ناحية على غرفة الطعام، ومن ناحية أخرى على سطح مفتوح ومن كل جانب كانت تصطف

الغرف. كان ذاك الممر، هذا الأنبوب العاري المضاء فقط من نهايتيه، قد خصص بالطبع لساقي كارمن العاريتين وكانت تلكما الساقان تتجولان في الممر طوال النهار برشاقة رائعة. حتى إنه لم يكن أحد من زبائن الفندق يستطيع تجاهلهما تمامًا، وإن رغب في ذلك بكل قواه، وإن عددًا من الزبائن كانوا يعيشون على الدوام برفقة ملحة لصورة هاتين الساقين. ولاسيما أن كارمن التي تتمتع برغبة قوية لتثار من باقي شخصها، لم تكن تلك الرغبة تؤثر على نضارة طبعها، وقد دفعتها إلى أن تلبس دائمًا أثوابًا قصيرة جدًا إلى درجة كانت تظهر كذلك من ساقيها ركبتيها كلتيهما. كان شكل تلك الركبة في منتهى الكمال، أملس، مستديرًا، وذا مرونة ورهافة قضيب من الفولاذ. كان المرء يشتهي أن يضاجعها بسبب هاتين الساقين وحدهما، لجمالهما ولذكائهما في تحريك مفصليهما، ولانحنائهما، وبسطهما، ولوقفهما، ولتشغيلهما. في الواقع كان يحدث ذلك. فبسبب ساقيها، وبالطريقة المقنعة التي كانت تستخدم فيها ساقيها، كان لكارمن ما يكفي من العشاق ويعفيها كي لا تتنازل وتذهب للبحث عنهم في الحي العالي. وكان لطفها المنبثق من رضاها عن ساقين بهذا الجمال يجعلها في منتهى الواقعية والثبات حتى إن عشاقها بالتالي يصبحون فورًا زبائن مخلصين، وبعد عامين من السفر في المحيط الباسيفيكي يعودون دائمًا إلى فندق " هوتيل سنترال ". كان الفندق يزدهر. كان لكارمن في الحياة فلسفتها التي لم تكن مريرة. كانت تقبل مصيرها، إذا صح القول، بكل رضا وكانت تمتتع

بضراوة عن كل تعلق قد يكدر مزاجها. كانت حقًا ابنة مومس وقد اعتادت على وصول رفاقها ورحيلهم بلا توقف، كما اعتادت على صعوبة الكسب، وعلى استقلالية ضارية. ولا يمنعها ذلك من أن تكون لها أفضليات، وصداقات، وكذلك قصص حب بلا شك، لكنها كانت تقبل بعذوبة ما هو مؤقت.

كانت كارمن تكن للأم شعورًا بالصداقة وبالاحترام. كانت كل مرة تنزل فيها الفندق تحجز لها غرفة هادئة من جهة النهر وتجعلها تدفع ثمن غرفة ناحية القطار. وذات مرة، منذ سنتين، ضاجعت جوزيف للمرة الأولى بالنسبة إليه، في اندفاع نبيل بلا شك لكنه ليس مجانيًا تمامًا. منذ ذاك الحين، في كل مرة يمر جوزيف، كانت تمضي معه ليالي كثيرة متتالية. كانت حينذاك تتصرف بلطف معه فلا تأخذ منه ثمن المبيت في الغرفة، وقد قنعت كرمها باللذة التي كانت تتمتع بها معه.

في هذه المرة، كانت الأم تعتمد طبعًا على كارمن لتساعدها في بيع ماسة السيد جو. ذهبت الأم إليها ليلة وصولها وسألتها إن كانت ترى إمكانية بيعها إلى زبون من الفندق. تعجبت كارمن من أن خاتمًا بتلك القيمة كان بين يديها.

قالت الأم مزهوة: ـــ إنه يدعى السيد جو، وهو الذي أعطاه إلى سوزان. كان يريد أن يتزوجها لكنها لم تقبل به لأنه لا يروق لجوزيف.

فهمت كارمن فورًا أن سفرهم إلى المدينة لم يكن يهدف إلاّ إلى بيع الماسة. لقد أدركت أهمية مسعى الأم وساعدتها. قالت لها إن زبائن الفندق في مجملهم لا يبدون معنيين بشراء خاتم بتلك القيمة، إلاّ أنها ستساعدها على أن تبيعهم إياه. منذ اليوم التالي، حدثت بعضهم عنه. بالإضافة إلى ذلك، وضعت على مكتب الفندق، وبشكل بارز للعيان، اللوحة التالية، وقد علقتها فوق الطاولة: " للبيع ماسة رائعة، فرصة استثنائية. الاتصال بمكتب الفندق."

لكن لم يهتم أحد بذلك طوال الأيام التالية. قالت كارمن إنها كانت تنتظر ذلك، ويجب ترك اللافتة معلقة ، لعلّ ضباط البحرية الذين يتوقفون، يستطيعون القيام بحماقة من هذا القبيل. لكنها نصحت الأم أن تحاول من جهتها أن تبيعها إلى صائغ أو إلى جوهري، وأن تسعى إلى ذلك في النهار وتعيدها إليها ليلاً لعدم إضاعة الفرصة في بيعها في الفندق.

لم تعطِ تلك الخطة في نهاية ثلاثة أيام أية نتيجة.

تزودت الأم بالخاتم المخبأ في كيسه والذي بقي ملفوفًا بالورق الحريري ذاته الذي كان السيد جو قد غلّفه به وبدأت تقطع المدينة لتحاول بيعه بالثمن الذي قال عنه السيد جو: إنه يساوي عشرين ألف فرنك. لكن أول جوهري عرضته عليه أعطاها فيه عشرة آلاف فرنك. أعلن لها أن للماسة عيبًا جسيمًا، به شائبة تنقص من قيمته كثيرًا. لم تصدق الأم للوهلة الأولى ما يتحدث عنه الجوهري. كانت

تطلب عشرين ألف فرنك. لكنها حين رأت جوهريًا ثانيًا حدثها ثانية عن هذه الشائبة التي تنقص الثمن. بدأت تشك. لم تكن قد سمعت البتة أحدًا يتحدث عن «علجوم» تائه في الماسات، حتى في أنقاها، والسبب بسيط هو أنها لم تحصل مطلقًا على ماسة بعلجوم أو بدون علجوم. لكن بعد أن حدثها جوهري رابع عن الشائبة، بدأت تجد علاقة غامضة بين هذا العيب الشديد الإيحاء وبين شخص السيد جو. بعد ثلاثة أيام من المساعي، بدأت حقًا تصوغ تلك العلاقة بطريقة مبهمة إلى حد ما.

كانت تقول: ــ إن ذلك لا يدهشني، فلقد كان متوقعًا.

وبعد ذلك أمست تلك العلاقة عميقة جدًا حتى إنها حين كانت تتحدث عن السيد جو كانت تخطئ بالاسم وتخلطه، بتسمية واحدة، بماسته.

ــ كان عليَّ أن أنتبه منذ اليوم الأول من هذا العلجوم، منذ إن رأيته للمرة الأولى في مطعم رام الشعبي.

كانت تلك الماسة ذات البريق الخداع، هي ذاتها ماسة الرجل الذي كانت ملايينه تستطيع أن تخدع، وكان يُخيل أن تلك الملايين تمنح ذاتها دون أي تحفظ. وكان اشمئزازها قويًا جدًا كما لو كان السيد جو قد سرق تلك الملايين.

كانت تقول: ــ علجوم يعادل علجوم، إنهما متساويان. وكانت تحمل لهما البغض ذاته.

مع ذلك كانت تريد ثمنه عشرين ألفًا ولا قرش أقل من ذلك".

كانت تتشبث. وقد تشبثت دائمًا، تشبثًا غريبًا، كان يتزايد مباشرة وفق عدد إخفاقاتها. وكلما قل المبلغ المعروض عليها تمسكت بالعشرين ألف فرنك. ركضت طوال خمسة أيام عند الصياغ. أولاً عند البيض. كانت تدخل وقد اتخذت ما استطاعت مظهرًا طبيعيًا وراحت تروي أنها تريد أن تتخلص من حلية ورثتها عن أسرتها والآن لم يعد لها نفع بالنسبة إليها. فيطلبون رؤيتها، كانت تُخرج الخاتم، فيأخذون المكبِّرة ويفحصون الماسة فيجدون الشائبة. عُرض عليها ثمانية آلاف فرنك. عُرض عليها أحد عشر ألف فرنك. ثم ستة آلاف، إلخ. كانت تعيد الماسة إلى حقيبة يدها، وتخرج مسرعة وهي توبخ سوزان، التي كانت تنتظرها مع جوزيف في سيارتهم (B.12). كانت سوزان بالطبع قد أخذت من الماسات الثلاث التي قدمها لها السيد جو " أسوأها " كأنها تعمدت ذلك.

لكنها كانت تتشبث برأيها على الدوام: سواء كانت الماسة سيئة أو حسنة كانت تريد عشرين ألف فرنك.

بعد أن زارت جميع الصياغ البيض ومحلات الجواهر، شرعت في زيارة الآخرين، هؤلاء الذين لم يكونوا بيضًا، الصفر، والسود. لم يعطها هؤلاء أكثر من ثمانية آلاف فرنك. بما أنهم كانوا أكثر عددًا من الآخرين، فلقد استغرقت وقتًا كثيرًا لتستنفدهم. لكن إذا كانت خيبة أملها تتزايد وكذلك غضبها واشمئزازها فإن متطلباتها لم

تنقص قيد أنملة. إن ما كانت تريده هو الحصول على عشرين ألف فرنك مهما كلف الأمر.

بعد أن ركضت لدى جميع الصاغة في المدينة البيض منهم وغير البيض، قالت في نفسها إن خطتها لم تكن بالخطة الجيدة. حينئذ، ذات مساء، قالت لسوزان إن الطريقة الوحيدة للخروج من ذاك الوضع، هي أن تجد ثانية السيد جو. لم تُحدث عن هذا المشروع إلاّ سوزان وحدها. كانت تقول إن جوزيف بالرغم من ذكائه، كانت له حماقته، وبما أنه لا يستطيع أن يفهم كل شيء، فيجب أن لا يُقال له كل شيء. عليك بالمهارة، أن تلتقي السيد جو دون أن يشك أننا بحثنا عنه، وأن تعودي معه إلى علاقتك القديمة. خذي ما تشائين من الوقت. يجب إعادة ربط تلك العلاقات، يجب خداعه إلى أن تثيري فيه رغبة يجازيك عليها. المهم في الأمر هو أن تخلبي لبه، فتحجبي نور عقله حتى يعود إليك، وقد يئس ثانية، ليترك لك الماستين الأخريين أو حتى واحدة.

وعدتها سوزان أن تعود إلى السيد جو إذا ما التقته لكنها رفضت أن تتصل به. أخذت الأم هذا الجزء من المهمة على عاتقها. لكن كيف تجد السيد جو في المدينة؟ لم يكن قد أعطى عنوانه، والسبب معروف. في الوقت ذاته الذي كانت تركض فيه عند الصاغة الذين أغفلت رؤيتهم، راحت تبحث عنه. انتظرته وقت الخروج من صالات السينما، استكشفت أرصفة المقاهي، والشوارع، والمخازن الراقية، والفنادق بحمية وشغف كأنها عاشقة فتية.

كان كل من سوزان وجوزيف قد بدأ بمرافقتها في جولاتها التي لا تنتهي عند الصاغة. لكن حماسهما لم يصمد أمام قصة العلجوم. في نهاية اليومين، وقد أعلنا أن تلك الجولات لا تجدي نفعا، من جهته ذهب جوزيف وحده بالطبع ومعه السيارة (B.12). اضطرت الأم أن تقبل ذلك. كانت تعرف من تجربتها أن الأسف الذي سيشعر به جوزيف إذا لم يستفد من إقامته في المدينة سيخلق لديه مرارة تفوق بكثير مرارة وحدتها، وسيرًا على الأقدام أو ركوب الحافلة، ستواجه بصيرة الصياغ الشيطانية. ولقد تحول تخلي جوزيف عنها فيما بعد إلى نعمة غير متوقعة حين قررت البحث عن السيد جو. ولم يحبطها غياب جوزيف تمامًا إلاّ حين تخلت عن إيجاد السيد جو فراحت تستلقي وتنام طوال النهار كما فعلت بعد انهيار السدود.

طوال عدة أيام بقي جوزيف يعود كل مساء عند كارمن وكانت الأم تلمحه، ولو لوقت قصير. ولكن، حدث بعد ذلك أن لم يعد جوزيف يرجع البتة إلى الفندق. لقد اختفى تمامًا مع السيارة (B.12) ولقد كان لاختفائه أكبر التأثير في إقامتهم في المدينة. لقد نجح في أن يبيع بعض الجلود الحديثة الدباغة لبعض الزبائن العابرين في الفندق، وبعد أن حصل على ذاك المال الوحيد، اختفى. نجحت كارمن في أن تخفي الأمر عن الأم، على الأقل حين كانت الأخيرة منهمكة إلى درجة كبيرة في مساعيها لدى الصاغة أو في بحثها فيما بعد عن السيد جو، وذلك كي لا تقلق كثيرًا لعدم رؤيتها لجوزيف كل صباح ولكي تبقى تكتفي بتصديق سوزان أو كارمن اللتين كانتا تقولان إنهما يريانه بعد الظهر حين كانت الأم خارج الفندق.

منذ اليوم الذي وجدت سوزان فيه أنه لا جدوى من أن توبخها كلما خرجت من محل الصاغة، صارت بالطبع فريسة اهتمام كارمن. حين تأكدت الأخيرة من أن عودة جوزيف ليست بالقريبة، راحت تأخذ بشغف سوزان على عاتقها، لدرجة أنها كانت تريد أن تنقذها من تشبث أمها الذي يدعو إلى اليأس وكأن كل واحدة منهما تبعث فيها التفاني عينه وإنما بشكل مختلف، كل ذلك دفع كارمن إلى أن تجعل سوزان تنام في غرفتها. وهكذا، بعد أن اكتشفت كارمن جوزيف، اكتشفت سوزان، وأثناء تلك الإقامة حاولت سوزان خاصة، على حد قولها، أن" تتعلم ".

راحت تصف لها مصيرها الخاص الذي كانت تراه بائسًا جدًا وحاولت أن تبعدها عن ذلك المصير بكلمات مريرة. كانت تقول إن فكرة الأم الثابتة كانت في أن تزوجها بأقصى سرعة، كي تبقى وحيدة وحرة أخيرًا في أن تموت. لم يكن ذلك حلاً. لم يكن ذلك بالحل المناسب بالنسبة إلى سوزان، وهي ما زالت في مرحلة الغباء من عمرها. لكن كارمن كانت تقول: " إننا كلنا في البدء، بلهاء ". وقد يكون حلاً أن تتزوج سوزان من رجل في منتهى الغباء والثراء معًا لدرجة أن يؤمن لها الظروف المادية كي تتحرر منه. كان جوزيف قد حدثها عن السيد جو ولقد أسفت بعض الشيء أن لم تنهج في الأمور نهجًا حسنًا معه لأنه كان يبدو المثالي في نوعه. " كنت ستخونينه بعد ثلاثة أشهر، ثم تسير الأمور من تلقاء ذاتها... " لكن السيد جو، أو بالأحرى والد السيد جو لم يكن يستسلم لأحد. ولقد

شرحت لسوزان صعوبة إيجاد زوج لها، حتى هنا، في المدينة، ولاسيما زوج مثالي، من طراز السيد جو. إن الزواج عن حب، في السابعة عشرة، لم يكن واردًا على كل حال. أما الزواج عن حب بموظف الجمارك الذي في زاوية الشارع والذي يعطيك ثلاثة أطفال في ثلاث سنوات... كلا، لقد برهنت سوزان حتى الآن مع أمها، على منتهى الليونة.

وكان ذلك أمرًا هامًا: يجب قبل كل شيء أن تتحرر من الأم التي لا تستطيع أن تفهم أنه في الحياة، يمكن للإنسان أن يكسب حريته، وكرامته، بأسلحة مختلفة عن تلك التي كانت تظنها صالحة. كانت كارمن تعرف الأم حق المعرفة، قصة السدود، وقصة الأرض، إلخ. كانت تذكرها بوحش مدمر. لقد قلبت سلام مئات من فلاحي السهل. حتى إنها أرادت أن تنتصر على المحيط الباسيفيكي. كان على جوزيف وسوزان أن يهتما بها. لقد أصابتها نوائب كثيرة جعلت منها وحشًا بجاذبية عظيمة وأصبح ولداها مهددين، كي يعوضا عنها مصائبها، بأن لا يفارقاها، وأن ينثنيا لرغباتها، وأن يستسلما لها كي تفترسهما بدورهما.

ليس هناك طريقتان، تستطيع ابنة أن تتعلمهما لتترك أمها.

إذا كان سماع ذلك عن أمها يضايق بعض الشيء سوزان، فلقد كان صحيحًا، في نهاية الأمر. منذ السدود أن الأم أصبحت خطرة. أما عن باقي الأمور، فليس موظف الجمارك المقيم في زاوية

الشارع هو المناسب بالطبع لسوزان، كما لم يكن السيد جو بالزوج المناسب. هنا، كانت كارمن تبسط الأمور.

صففت كارمن شعرها، وألبستها ملابس زاهية، وأعطتها بعض المال. نصحتها أن تتنزه في المدينة إلاّ أنها أوصتها بأن لا تستسلم لأي شخص تصادفه. قبلت سوزان من كارمن أثوابها ونقودها.

إن المرة الأولى التي تنزهت فيها سوزان في الحي العالي، كانت إذن وفق نصيحة كارمن إلى حد ما.

لم تكن تتصور أن ذاك اليوم سيكون هامًا في حياتها، فهي للمرة الأولى، في السابعة عشرة من عمرها، تذهب وحدها لاكتشاف مدينة استعمارية كبيرة. لم تكن تعرف أن نظامًا قاسيًا كان يسيطر عليها وأن فئات سكانها كانوا يختلفون كثيرًا حتى إن المرء يضيع إذا لم يجد نفسه في إحدى تلك الفئات.

كانت سوزان تحاول جاهدةً أن تكون مشيتها طبيعية. كانت الساعة الخامسة. والجو لا يزال حارًا لكن خمول فترة بعد الظهر قد انتهى. بدأت الشوارع تمتلئ شيئًا فشيئًا بالبيض الذين استراحوا بقيلولتهم وانتعشوا بحمام المساء. كانوا ينظرون إليها. يستديرون، ويبتسمون. لم تكن أية شابة بيضاء في عمرها تمشي وحدها في شوارع الحي العالي. كانت اللواتي يصادفنها يمررن زمرًا، بملابس رياضية. كان بعضهن يحملن مضرب الكرة تحت ذراعهنّ. كنّ

يلتفتن. كان الكل يلتفتون ويبتسمون وهم ملتفتون. " من أين تخرج تلك البائسة التائهة على أرصفتنا؟ " نادرًا ما كانت النساء يُشاهدن وحدهن. كنَّ يمشين في مجموعات. كانت سوزان تصادفهن. كانت تحيط بالمجموعات رائحة العطور والسجائر الأميركية، وروائح المال المنعشة. لقد وجدت كل النساء جميلات، كما رأت أن أناقتهن الصيفية تشكل إهانة لكل من كان يختلف عنهن. خاصة وإنهن كن يمشين مشية الملكات، يتحدثن، يضحكن، يقمن بحركات تتناغم تمامًا مع الحركة العامة، التي كانت حركة رغد في العيش يفوق التصور. خامرها ذلك الإحساس دون أن تشعر به، بمجرد أن وطئت قدمها الشارع العريض الذي يمتد من خط الترام إلى وسط الحي العالي، ولقد تأكد ذلك الشعور، ثم تضاعف حتى أصبح عندما وصلت إلى وسط الحي العالي، واقعًا لا يغتفر: كانت تثير السخرية ولقد بدا ذلك واضحًا. لقد أخطأت كارمن. لم يكن يحق لكل الناس أن يمشوا في تلك الشوارع، وعلى تلك الأرصفة، بين هؤلاء السادة وأطفال الملوك. لا يملك جميع الأنام القدرات ذاتها في الحركة. هم قد بدوا ذاهبين نحو هدف محدد، في إطار مألوف وبين أندادهم. أما سوزان، فلم يكن لها أي هدف، ولا شبيه، ولم تجد نفسها مطلقًا على هذا المسرح.

حاولت عبثًا أن تفكر في شيء آخر.

كان الجميع يلاحظونها على الدوام.

كانوا كلما لاحظوها زادت قناعتها بأنها مثار فضيحة، وأنها شيء يعبر عن القبح الواضح والغباء البحت. كانَ يكفي أن يبدأ أحد ما بملاحظتها، كي ينتشر ذلك كالصاعقة. بدا كل الذين صادفوها الآن على علم من أمرها، المدينة بأسرها على علم ولا يمكنها أن تفعل شيئًا حيال ذلك، لا يسعها إلاَّ أن تتابع تقدمها، وقد طوقت تمامًا، وحكم عليها أن تتجاوز تلك النظرات المصوبة إليها، والتي تعقبها نظرات جديدة، وأن تتجاوز الضحكات التي تزيد، وتمر من جانبها، وتلطخها من ورائها. لم تسقط ميتة من جراء ذلك لكنها راحت تمشي على حافة الرصيف وكم ودت أن تسقط ميتة وأن تنساب في المجرى. كان خجلها يتزايد على الدوام. أخذت تكره نفسها، تكره كل شيء، تهرب من ذاتها، وتود أن تهرب من كل شيء، وأن تتخلص من كل شيء. من الثوب الذي أعارته لها كارمن، حيث انبسطت وردات كبيرة بيضاء وزرقاء، ذاك الثوب من فندق(هوتيل سنترال)، القصير جدًا، والضيق جدًا. وأن تتخلص كذلك من تلك القبعة من القش، التي لا يلبس أحد مثلها، ومن شعرها الذي لا يشبه شعر أحد. لم يكن لكل ذلك قيمة. كانت هي، هي وحدها المحتقَرة من قدميها حتّى رأسها: بسبب عينيها، أين ترميهما؟ بسبب ذراعيها الفولاذيتين القذرتين، وبسبب هذا القلب القاسي كحيوان عديم الحياء، وبسبب ساقيها اللتين لا تقدران على حملها. ومن يجر حقيبة يد، حقيبة يد قديمة كهذه، لتلك العاهرة أمي، آه! فلتمت! رغبت في أن ترمي

الحقيبة في المجرى، لما تحويه... لكن لا أحد يرمي حقيبة يده في المجرى. وإلاّ لركض الجميع، ولأحاطوا بها. لكن، حسنًا. إذن، عليها هي أن تستسلم للموت البطيء، متمددة في المجرى، وحقيبة يدها بالقرب منها، حينئذٍ سيضطرون أن يتوقفوا عن الضحك.

في تلك الفترة، كان جوزيف ما زال يعود مساءً إلى الفندق. لم يكن الحي العالي كبيرًا. وأين يمكن أن يكون جوزيف إلاّ في الحي العالي. راحت سوزان تبحث عنه في الحشد. كان العرق يقطر على وجهها. خلعت قبعتها وأمسكتها بيدها مع حقيبتها. لم تعثر على جوزيف، لكنها رأت فجأة مدخل سينما، سينما تختبئ فيها. لم تبدأ الحفلة، لم يكن جوزيف في السينما. لا أحد فيها، ولا حتى السيد جو.

ابتدأت موسيقا البيانو تصدح. انطفأ النور. أحست سوزان أنها أصبحت الآن غير مرئية، غير مرئية وراحت تبكي من السعادة. كانت كواحة،هذه الصالة المظلمة لما بعد الظهيرة، ليل الوحيدين، الظلام المصطنع والديمقراطي، ليل السينما العظيم الذي يُساوي بين الناس، إنه أكثر صدقًا من الليل الحقيقي، أكثر جاذبية، وأكثر تعزية من جميع الليالي الحقيقية، الليل المختار، المنفتح على الجميع، والمُقَدَّم للجميع، الأكثر كرمًا، والأكثر عطاءً للخيرات من جميع مؤسسات البر ومن كل الكنائس، الليل حيث يخفف كل المخازي، حيث يختفي كل يأس، وحيث يغتسل كل الصبا من قذارة المراهقة الكريهة.

إنها امرأة شابة وجميلة. تلبس ملابس البلاط. يستحيل تخيلها في لباس آخر، لا يمكن لأحد أن يتخيلها إلاّ كما هي عليه، إلاّ ما يُشاهد، يهلك الرجال من أجلها، ويقعون في إثرها كأنهم أوتاد أوقعتهم الكرة وتتقدم وسط ضحاياها، الذين يجسمون أثرها، في الخط الأول، بينما هي بعيدة، حرة مثل سفينة، وبلامبالاة متزايدة، ومثقلة بأبهة جمالها النقي. وها هي ذات يوم تستوحي من المرارة قرارًا أن لا تحب أحدًا. لديها بالطبع مال وفير. إنها تسافر. في المهرجان التنكري لمدينة البندقية، كان الحب في انتظارها. إنه رائع الجمال، الآخر. له عينان معتمتان، وشعر فاحم، وشعر مستعار أشقر، وهو نبيل جدًا. وقبل أن يحدث أي شيء بينهما يعرف المشاهد أن الأمور ستتم على ما يرام، إنه هو الشخص المنتظر. هذا آت من روعة السينما، ويعرف المشاهد هذا قبل البطلة، ويتمنى أن يحذرها. ثم تهب إحدى العواصف، والسماء كلها تعتم. بعد تأخيرات كثيرة، بين عمودين من المرمر، وقد انعكس ظلاهما على القنال الضروري للمشهد، وعلى ضوء مصباح موجود، بالطبع لإنارة تلك الأشياء، وبضرب لما هو مألوف، يتعانقان. يقول: أحبك. تقول أحبك أنا أيضًا. تضيء فجأة سماء الانتظار القاتمة. بسبب قبلة كالصاعقة. تواصل هائل بين الصالة والشاشة. يود المشاهد أن يكون مكانهما. أجل! كم يتمنى ذلك. تتشابك أجسامهما. يتقارب فماهما، ببطء الكابوس. ما أن يصبح كل واحد قريبًا من الآخر حتى يتلامسا،

يقطعونهما من أجسادهما. حينذاك، في رؤوسهما المقطوعة، يرى المشاهد ما لا يمكن رؤيته، تنفتح شفاههما وكل شفة مقابل الأخرى لآخر، تستمر في الانفتاح، تنفصل فكوكهما شأنهما في الموت وفي استرخاء الرأسين المفاجئ والحتمي، تتحد شفاههما كأنها أخطبوطات، فتنسحق، وهي تحاول أن تختفي في الأخرى، شأنها في ذلك شأن الجياع، حتى الابتلاع المتبادل والكامل. إنها مثالية مستحيلة، لا معنى لها، وبالطبع فإن الأعضاء لا تتوافق معها. إلاَّ أن المشاهدين لم يروا إلاَّ المحاولة في حين يبقى الفشل مجهولاً منهم. لأن الشاشة تُضاء فتصبح ببياض الكفن.

كان الوقت ما زال مبكرًا. ما أن خرجت سوزان من السينما حتى صعدت شارع الحي العالي الرئيسي والفسيح. بدأ الظلام يحل أثناء حفلة السينما كأن ظلام الصالة قد استمر، الظلام الغرامي للفلم. شعرت بالهدوء وبالطمأنينة. عادت تبحث عن جوزيف لأسباب تختلف عن بحثها السابق، لأنها لم تستطع أن تقرر العودة ، وكذلك لأنها شعرت برغبة في لقاء جوزيف لم تشعر بها من قبل.

حدث ذلك بعد نصف ساعة من خروجها من السينما. لمحت السيارة (B.12) تنحدر من الشارع العريض حيث كانت والتي كانت تتجه نحو أرصفة الميناء. كانت السيارة تسير ببطء شديد. توقفت سوزان على الرصيف تنتظر أن يصل إلى علوها كي تنادي جوزيف.

كان هناك امرأتان قد انحشرتا بالقرب منه. وإن التي كانت بالقرب منه قد أمسكت به وهي تضمه إليها. بدا جوزيف غريب المظهر. كان يبدو سكران وسعيدًا.

في الوقت الذي راحت فيه السيارة (B.12) تقترب منها، أسرعت سوزان نحو حافة الرصيف وصرخت: "جوزيف" لم يسمع جوزيف. كان يتحدث إلى المرأة التي تضمه.

إلاّ أن الشارع كان مزدحمًا وكان جوزيف يسير ببطء شديد.

صرخت سوزان من جديد "جوزيف!". توقف كثير من الناس. راحت سوزان تركض على طول الرصيف محاولة أن تلحق بالسيارة. لكن جوزيف لم يكن يسمع ولم يكن يراها. حينذاك، بعد أن نادته مرتين متتابعتين، أخذت تصرخ دون توقف: " جوزيف! جوزيف!"

"إذا لم يسمعني في المرة القادمة، فسأرمي بنفسي تحت السيارة لأرغمه على التوقف."

توقف جوزيف. توقفت سوزان وابتسمت له. كانت مندهشة جدًا من لقائه وفي منتهى السعادة كأنها لم تره منذ زمن طويل، شعور أحست به كأنه يأتي من طفولتهما. اصطف جوزيف على طول الرصيف. لم تتغير سيارة (B.12). الأبواب ذاتها التي رُبطت بأسلاك حديدية، وهيكل السيارة العاري والصدئ للغطاء الذي كان جوزيف قد انتزعه ذات يوم، في سورة غضب.

سأل جوزيف: ــ ماذا تفعلين هنا؟

ــ إنني أتنزه.

ــ اللعنة، إنك ترتدين ملابس غريبة.

ــ إن كارمن هي التي أعارتني ثوبًا.

سأل جوزيف ثانية: ــ ماذا تفعلين هنا؟

سألت إحدى المرأتين جوزيف شيئًا فقال: ــ إنها أختي.

سألت المرأة الثانية الأولى: ــ من هي؟

قالت الأولى: ــ إنها أخته.

ابتسمت كلتاهما بلطف لا يخلو من الحياء. كانتا شديدتي التبرج وتلبسان ثوبين يلتصقان بأجسامهما، كان ثوب إحداهما أخضر والأخرى أزرق. كانت تلك التي تضم جوزيف الأصغر سنًا. حين كانت تبتسم، كان يظهر فمها وفي جانب منه يظهر فراغ لسنّ واحدة. لابد أنهما قد أتتا كلتاهما من ماخور من المرفأ، ولا شك أن جوزيف قد التقطهما من مكان لا يعرفه أحد، أو ربما في" الصفوف الأولى" في إحدى صالات السينما.

بقي جوزيف في السيارة، وقد بدا متضايقًا. كانت سوزان تنتظر أن يعرض عليها الصعود. لكن جوزيف لم يكن ينوي ذلك، على ما يبدو.

تابع السؤال كي يسأل شيئًا ما: ــ وأمك؟ لمَ أنت وحدك؟

قالت سوزان: ــ لا أعرف.

سأل جوزيف وهو يقرض نهاية الكلمة مظهرًا فورًا مفرداته الجديدة: ــ والماسة؟

قالت سوزان على الفور: ــ لم تُبَع.

كانت تقف وقد استندت بمرفقيها على السيارة بالقرب من جوزيف. لم تكن تجرؤ على الصعود. كان جوزيف يرى ذلك بوضوح وكان يبدو منزعجًا بشكل يتزايد. لم تكن المرأتان تشعران بما يحدث على ما يبدو.

قال جوزيف في نهاية الأمر: ــ إذن، إلى اللقاء.

سحبت سوزان فجأة ذراعها عن باب السيارة.

ــ إلى اللقاء.

نظر جوزيف إليها، بارتباك. تردد.

ــ أين تذهبين هكذا؟...

قالت سوزان: ــ لا يهمني إلى أين أذهب، أذهب حيث أشاء.

صرخ بصوت ضعيف: ــ سوزان!

لم تجب سوزان. انطلق جوزيف ببطء دون أن يناديها مرة ثانية.

صعدت سوزان ثانية الشارع العريض حتى ساحة الكاتدرائية. كانت تكره جوزيف.الآن، لم تعد تلاحظ على الإطلاق الأنظار التي كانت تثيرها في مرورها وربما كان الناس قد ضعفت رؤيتهم بسبب الظلام. لو استطاعت الأم أن تمر. لكن كان من العبث أن تأمل ذلك. لم تكن الأم تمر على الإطلاق من هنا لأنه كان مكانًا للنزهة؛ كانت تركض في المدينة مع "علجومها "، أي ماستها. ثم راحت تبحث عن السيد جو، وتطارد السيد جو. كانت نوعًا من مومس عجوز تجهل ذاتها، وقد تاهت في المدينة. في الماضي كانت تركض إلى المصارف، والآن إلى الصاغة. سيأكلونها. كانوا لمدة طويلة يرونها وهي عائدة، في قمة الإعياء حتى إنها في معظم الأحيان كانت تنام دون أن تأكل،وهي تبكي، حتى ليُظنَ أنها قد تموت سواءً من المصارف أو من الصاغة. لكنها كانت تخرج دائمًا من تلك المواقف وتعيد الكرة ثانية بالاستسلام إلى نقيصتها، وهي السعي وراء المستحيل، وراء " حقوقها" على حد قولها.

جلست سوزان على مقعد في حديقة صغيرة على طول الكاتدرائية. لم تكن ترغب في العودة فورًا. ستصرخ الأم باستمرار سواء في وجه جوزيف أو في ذاتها. قريبًا سينتهي الأمر مع جوزيف، سيرحل. لقد اقترب رحيل جوزيف إلى حد ما، وهو الذي سيذهب ليضيع وسط الحياة المألوفة، وفي الحب المبتذَل السوقي. لن يكون هناك جوزيف بعد الآن. مهما ادعى، فلن يتكفل بالأم طويلاً

وها هو الآن يعد لقتلها. كان شخصًا كاذبًا. كان هناك كذبة كثيرون. ومن بينهم كارمن بشكل خاص.

كان جوزيف قد التقاها في السينما. كانت تدخن سيجارة تلو الأخرى وبما أنه لم يكن لديها ما تُشعل به، فلقد أعطاها ذلك جوزيف. حينذاك، راحت في كل مرة تقدم سيجارة لجوزيف. هو كذلك لم يتوقف عن التدخين. كانت سجائر طيبة جدًا وغالية جدًا. الأغلى ثمنًا، لاشك أنها كانت "٥٥٥". خرجا معًا من السينما ومنذ ذلك الوقت لم يفترقا. أو على الأقل كانت تلك رواية كارمن المختصرة التي أعطتها عن قصة جوزيف.

كانت تضيف: ــ كان في حالة تكفيه فيها تقدمة السجائر.

كانت تدعي أنها صادفت جوزيف في الحي العالي وأنه روى لها كل شيء من تلقاء ذاته. لكن كيف للمرء أن يعرف إن كانت كارمن تقول الحقيقة؟ كان لها مصادرها، شبكاتها. لا بد أنها كانت تعرف أين يوجد جوزيف لكنها حرصت أن لا تبوح بشيء. وخلال ثمانية أيام وثماني ليالٍ لم يظهر جوزيف في فندق "هوتيل سنترال".

كانت الأم على وشك أن تنتهي من باعة الماس والصاغة. لم تعد تعتمد إلاَّ على زبائن الفندق، وعلى كارمن. من حين إلى آخر، في انتفاضة، كانت لا تزال تذهب إلى أحد الصاغة الذي كانت قد أهملته لكنها لم تعد تمضي أيامها وهي تركض في المدينة. حتى إنها لم تعد تبحث عن السيد جو. لقد بحثت عنه طويلاً جدًا حتى عافته

نفسها، شأنه شأن عاشق. راحت تقول إنه ما إن يعود جوزيف حتى تذهب عند أول صائغ كانت قد رأته، ذاك الذي أعطاها أحد عشر ألف فرنك عن " العلجوم " وإنها سترحل بعد ذلك إلى السهل. إنها الآن تمضي معظم وقتها في انتظار عودة جوزيف. كانت قد دفعت أجرة غرفتها وطعامها إلى يوم اختفاء جوزيف. قررت بعد ذلك أن لا تدفع شيئًا. كانت تقول لكارمن إنها لم يعد لديها مال. كانت تشك في أن كارمن تعرف حق المعرفة أين يوجد جوزيف وأنها لا تبوح بذلك على الإطلاق وبالتالي كانت تقبل ضمنيًا ألاّ يدفَعَ لها ما دام الأمر يتوقف عليها في أن تترك جوزيف يُرضي رغباته ما شاء. إلاّ أنها لم تعد تأخذ إلاّ وجبة واحدة في اليوم، ولا أحد يدري إن كان دافعها حرصها على عدم تكليف كارمن أو كي تحاول أن تخضع كارمن بسذاجة لتلك المساومة. أما سوزان فلقد كانت تأكل على مائدة كارمن وتنام في غرفتها. لم تعد ترى الأم إلاّ إبان وجبة المساء. بالفعل، كانت الأم تنام طوال النهار. كانت تأخذ حبات دوائها وتنام. كانت تنام دائمًا هكذا في الفترات الصعبة من حياتها. حين انهارت السدود، منذ سنتين، نامت ثمانيًا وأربعين ساعة متواصلة، اعتاد ولداها على حالتها ولم يعودا يقلقان كثيرًا.

منذ محاولتها الأولى للتنزه في الحي العالي، لم تعد سوزان تتبع حرفيًا نصائح كارمن. إذا كانت لا تزال تذهب إلى هناك بعد ظهر كل يوم، فلكي تدخل مباشرة إلى صالة سينما. كانت تبقى صباحًا وبشكل عام في مكتب الفندق وقد تحل مكان كارمن في بعض

الأحيان. كان في فندق " الهوتيل سنترال" ست غرف "محجوزة " وكانت تتطلب عملاً كثيرًا. كانت تؤجر بالساعة في معظم الأحيان لضباط البحرية ولبغايا وصلن لتوهن. كانت كارمن قد حصلت على رخصة تسمح بذلك. وكان ذلك يدر عليها أضخم دخل في إدارة فندقها. لكنها كانت تدعي أنها لم تطلب الرخصة لذاك الغرض وإنما قد فعلت ذلك برغبة حقيقية. كانت تدعي أنها ستسأم إذا كان الفندق طيب السمعة.

كانت البغايا يبقين شهرًا في انتظار أن يقرر مصيرهن. كن يعاملن أفضل معاملة. وقد يحدث أن بعضًا منهن، الأكثر شبابًا بشكل عام، يرحلن مع صيادين أو زارعين التقين بهم، لكنه نادرًا ما يعتدن على الحياة في الهضاب المرتفعة أو في الدغل، وبعد عدة أشهر، كن يعدن لينخرطن في المواخير. بالإضافة إلى جديدات يصلن مباشرة من العاصمة، كما كن يصلن من شنغهاي، ومن سنغافورة، ومن مانيلاً، ومن هونغ كونغ. كانت تلك النساء المغامرات الكبيرات، وأعظم المسافرات من بين الجميع. كنَّ يتنقلن في كل مرافئ المحيط الباسيفيكي ولا يقمن مطلقًا أكثر من ستة أشهر في مرفأ. كنَّ أكبر مدخنات الأفيون في العالم، والمدربات الطليعيات لكل طاقم سفن الباسيفيك.

كانت كارمن تقول:ـــ إنهن شحاذات، لكنني أفضلهن على الجميع.

لم تكن تسهب في الشرح. كانت تقول إنها تحب البغايا كثيرًا، وإنها ذاتها ابنة مومس لكن هذا السبب ليس هو الوحيد لحبها، بل لأنهن كنَّ الأكثر شرفًا، والأقل نذالة في ذاك الماخور الضخم الذي يدعى المستعمرة.

كان من البديهي أن تنصح كارمن كل اللواتي يأتين، بأن يُقدم لهن الخاتم الماسي. كانت قد وضعت في كل الغرف "المحجوزة" لافتة ثانية إضافة إلى اللافتة المعلقة في المكتب. ولقد ذهب بها الأمر أن راحت تشرح لهن حالة الأم.

كانت كارمن تقول بمرارة: ــ ولكن! ليست من النسوة اللواتي تُقدم إليهن ماسات.

كانت الأم تشاركها تلك المرارة. مع ذلك بقي الفندق المكان الوحيد حيث قد تسنح الفرصة لبيعه بالسعر الذي كانت تريده الأم. لم يكن هناك مكبرة لتكشف عن "العلجوم"، كما تقول كارمن. صار بيع الماسة لديها شغلها الشاغل، لكنه أقل استحواذًا عليها من الأم. لم تكن كارمن من النوع الذي يستحوذ عليه حقًا أي شيء. كان ما يستحوذ عليها حقًا هو حاجتها لرجال جدد مما يجعلها تخرج بانتظام وقد تركت كل شيء وراءها. كان يحدث ذلك غالبًا لديها بمناسبة وصول سفينة. بعد العشاء كانت تلبس حلة جديدة، وتتبرج وتركض نحو المرفأ على طول النهر. ذات مساء، حين رجعت إلى الفندق، ذهب بها الأمر أن قالت لسوزان، في بادرة تفيض حنانًا:

ــ سترين، إنهم رائعون في الخارج. يجب عدم حبس الرجال. فهم الأفضل في الشارع.

قالت سوزان بحرج: ــ لكن كيف، في الشارع؟

ضحكت كارمن.

حين لم تكن سوزان في مكتب كارمن، كانت في صالات سينما الحي العالي. بعد الغداء كانت تترك الفندق وتذهب مباشرة إلى أول سينما. ثم إلى سينما أخرى. كان هناك خمس صالات في المدينة وغالبًا ما كانت البرامج تتغير. كانت كارمن تفهم حبها للسينما وتعطيها مالاً كي تذهب بقدر ما يطيب لها الذهاب. كانت تدعي وهي تبتسم أنه لم يكن هناك فرق كبير بين نزهاتها على طول النهر وتردد سوزان على الصالات. كانت تقول قبل المضاجعة الفعلية، يبدأ المرء بتعاطي الغرام في السينما. إن الميزة العظيمة للسينما هي أنها تثير الرغبة في الشابات وفي الشبان وتجعلهم متلهفين على الهرب من أسرهم. ويجب قبل كل شيء التخلص من الأسرة إذا ما وجدت فعلاً. بالطبع، لم تكن سوزان تحسن فهم تعاليم كارمن، لكنها كانت تزهو برؤية كارمن تهتم بها على ذاك الشكل.

كانت سوزان حين تعود مساءً، تسأل كارمن عن أخبار جوزيف وعن الماسة. لم يعد جوزيف. والماسة لم تُبَع. والسيد جو لم يظهر. لكن ما كان يقلقها هو عدم عودة جوزيف. كلما تقدم الوقت أدركت سوزان أن أهميتها تتضاءل في حياة جوزيف، وربما تكون،

في بعض الأحيان كأنها لم توجد على الإطلاق. لم يكن من المستحيل عدم عودته البتة. لم يكن مصير الأم يطرح مشاكل فعلية، كما كانت تقول كارمن. إذا عاد جوزيف، عاشت الأم، وإذا لم يعد، فستموت. كان ذلك أقل أهمية مما حدث لجوزيف، ومما حدث لكارمن منذ زمن طويل ولكنه أثر عليها، فيما يبدو، إلى الأبد، والذي لن يتوانى عن معاودته لها في يوم قريب. لقد بدأت تشعر بتهديده. في كل زاوية شارع، في كل منعطف شارع، في كل ساعة في اليوم، في كل صورة لكل فيلم، في كل وجه رجل تلمحه، كانت تستطيع إذن أن تقول إن كل ذلك يقربها من كارمن ومن جوزيف.

لم تكن الأم تطرح عليها أي سؤال عن كيفية تمضية وقتها. لم يكن هناك من يهتم بها سوى كارمن. كانت تسألها أحيانًا، حين لا تعرف ما تقوله لها، أن تروي لها الأفلام التي شاهدتها. كانت تعطيها بعض المال لليوم التالي. وكانت تخاف عليها وكلما طال اختفاء جوزيف، اشتدت مخاوفها. وقد يبلغ الأمر حد القلق. ماذا سيحل بها؟ كانت تكرر أنه من الضروري جدًا أن تتعلم سوزان أن تفارق أمها وخاصة إذا لم يعد جوزيف البتة.

كانت كارمن تكرر: ــ إن مصائبها، في نهاية الأمر، تشبه ضربًا من الفتنة، يجب أن تنساها كما ينسى الإنسان السحر. لا أرى حلاً إلاّ في موت الأم أو الالتقاء برجل ينسيك إياها.

كانت سوزان تجد كارمن بدائية بعض الشيء في عنادها. لقد أخفت عنها أنها لم تعد تتنزه قط في الحي العالي. لم تروِ لها نزهتها الأولى، ليس لأنها قد قررت أن تسكت عنها لكن لأنها لم تفكر أن تلك النزهة يمكن أن تُروى. لم يؤثر فيها أي حدث كما لم تكن سوزان تتصور حتى ذاك الوقت أنه يمكن البوح بشيء إلاّ بأحداث ملموسة. كان الباقي مخجلاً أو أثمن من التحدث فيه، على كل حال، يستحيل قوله. كانت تترك الحديث لكارمن التي كانت لا تزال تجهل أن الإنسانية الوحيدة التي تجرؤ على مواجهتها هي إنسانية الشاشات المدهشة، والمطمئنة.

حين كانت سوزان تعود، كانت كارمن تجرها إلى غرفتها، وتطرح عليها الأسئلة. كانت غرفة كارمن نقطة ضعف وجودها. كانت قد قاومت مغريات كثيرة في الحياة، لكنها لم تقاوم جاذبية الأرائك التي تغطيها وسادات رُسمت باليد، ولا صور المهرجين بيرو وأرلوكان، وهي بقايا حفلات رقص قديمة، وقد عُلقت على الحائط، ولا الزهور الاصطناعية. كانت سوزان تختنق قليلاً في الغرفة. لكنه كان من الأفضل أن تنام فيها من أن تنام في غرفة أمها. كانت سوزان تعرف أن جوزيف قد ضاجع كارمن في تلك الغرفة. حين كانت كارمن تخلع ثيابها أمامها، كانت تفكر كل مرة في ذلك. وكان ذلك يزيد الاختلاف، ليس بينها وبين كارمن، لكن مع جوزيف. كانت كارمن طويلة القامة، ذات بطن منبسط، وثديين صغيرين ومنخفضين قليلاً وكانت ساقاها جميلتين بشكل مدهش. كانت سوزان تتفحصها

كل مساء وكل مساء كان تباينها مع جوزيف يزداد. لم تكن سوزان قد خلعت ثيابها أمام كارمن سوى مرة واحدة. ضمتها كارمن إليها قائلة: " إنك مثل اللوزة ". ومسحت دمعة بصمت. في ذلك المساء طلبت منها كارمن أن تأتيها بأول رجل قد تصادفه. وعدتها سوزان بكل ما أرادت. لكنها لم تعد تخلع ثيابها أمام كارمن على الإطلاق.

حين كانت تحين ساعة العشاء، كانت سوزان تذهب لتأتي بأمها من غرفتها. كانت الأمور تجري دائما على الوتيرة ذاتها. كانت الأم وقد استلقت على سريرها تنتظر جوزيف. كانت دائمًا في الظلام لأنها لم تعد بها رغبة في أن تشعل النور. على الطاولة الصغيرة، بالقرب منها، تحت كأس مقلوبة، كان يرقد الخاتم الماسي. حين كانت تستيقظ كانت تنظر إليه باشمئزاز. كانت تقول " العلجوم " يثير فيها الرغبة في الموت. وكانت تضيف: إنه سوء الحظ الذي لا نستطيع حتى اختراعه. وقد يحدث لها حين كانت تفرط في تناول أدويتها، أن تبول في سريرها. حينذاك كانت سوزان تذهب إلى النافذة كي لا ترى ذلك.

كانت تسأل: ــ إذن؟

كانت تجيب سوزان: ــ لم أره.

فتسترسل في البكاء. وتطلب ثانية حبة دواء. فتعطيها إياها سوزان وتعود إلى النافذة. كانت تردد على مسامعها ما كانت تقول كارمن.

ـــ سيحدث هذا عاجلاً أم آجلاً.

كانت تقول إنها كانت تعرف ذلك لكن الفظيع مع ذلك هو فقدان جوزيف بغتة بهذا الشكل. كانت تتحدث بالنبرة عينها عن جوزيف وعن الماسة وعن السيد جو حين كانت تبحث عنه وأحياناً، حين كانت تقول: "لو أنه يعود على الأقل!" لم يكن أحد يعرف إذا كانت تتحدث عن جوزيف أو عن السيد جو.

كانت تنهض، مترنحة من تأثير الأدوية. كان عليها أن تنتظرها لترتدي ثيابها للعشاء. كانت تستغرق وقتاً طويلاً. وكانت سوزان تجلس أمام النافذة. كان صوت الترام يصل صاخبًا حتى إلى داخل الغرفة. لكن كل ما كانت ترى سوزان من المدينة، من هنا، هو نهرها الكبير وقد تغطى نصفه بغيوم من السفن الشراعية الكبيرة التي كانت تأتي من المحيط الباسيفيكي وكذلك من السفن القاطرة الموجودة في المرفأ. كانت كارمن تخطئ في خوفها عليها. لأن سوزان وقد رأت الكثير من الأفلام وكثيرًا من الناس يتحابون، وعددًا كبيرًا يرحلون، وكثيرًا من العناق، وقبلات وداع نهائية، وحلولاً كثيرة، وكثيرًا وكثيرًا، كثيرًا من المصائر، كثيرًا من الهجران المؤلم، طبعًا، كل ذلك لا يمكن تجنبه لأنه قدر محتوم، مما جعل سوزان تود ترك أمها.

إن اللقاء الوحيد الذي قدر لسوزان أن تجريه، في فندق (هوتيل سنترال)، قد تم مع ممثل لمصنع خيوط من مصانع كلكوتا.

كان مارًا بالمستعمرة وسيبحر إلى الهند بعد ثمانية أيام من وصوله. كانت جولاته تستغرق عامين ولم يكن يمر في تلك المستعمرة إلاً مرة واحدة. كان في كل تنقلاته قد سعى إلى الزواج من شابة فرنسية فتية جدًا وعذراء إذا أمكن،لكنه لم ينجح البتة في العثور عليها.

قالت كارمن لسوزان: ــ هنا شخص يمكن أن يلائمك. قد يكون منفذًا للنجاة إذا قدر ولم يعد جوزيف.

كان بارنر رجلاً في الأربعين من العمر، طويل القامة،أشيب الشعر، يلبس بذلة من قماش التويد، ويتحدث بهدوء، ويبتسم قليلاً وله حقًا مظهر محترم جدًا. لم يكن منذ خمس عشرة سنة يزور عبثًا كل المصانع الكبرى للأقمشة في العالم ليمدح فيها جودة خيوطه. لذلك كان قد جال حول العالم كثيرًا من المرات وكان ذا رؤية خاصة وهي مقدرته على أن يمتص، بالكيلومترات، الخيوط القطنية لمصنع.G.M.B في كلكوتا.

حدثته كارمن عن سوزان ولقد أراد التعرف عليها في اليوم ذاته. كان في عجلة من أمره. تم التعارف في غرفة كارمن، في ساعة متأخرة بعد أن نامت الأم. نفذت سوزان رغبة كارمن كما كانت تفعل دائمًا. بعد التعارف، تحدث بارنر عن مهنته، عن تجارة

الخيوط في العالم وعن الاستهلاك الهائل الذي يجري. كان هذا كل ما دار في تلك الليلة. في اليوم التالي، بواسطة كارمن، دعا سوزان إلى الخروج معه كي يتعارفا بشكل أفضل، على حد قوله. التقت سوزان به بعد العشاء.

ذهبا إلى السينما في سيارة بارنر. كانت سيارة غريبة يفتخر بها بارنر كثيرًا. ما إن وصلا إلى السينما حتى وقف أمام سوزان وأجرى لها شرحًا مسهبًا عن ميزات تلك السيارة المدهشة. كانت سيارة بمقعدين، دُهنت بالطلاء الأحمر، ولقد تحول الصندوق الخلفي فيها إلى نوع من صندوق كبير بأدراج يضع فيها بارنر عينات من خيوطه. كانت الأدراج صفراء، زرقاء وخضراء، إلخ.، بلون الخيوط الدقيقة التي تحويها. لا شك أنه كان هناك ثلاثون درجًا تنفتح على السطح الخلفي للصندوق بكامله وكانت تُغلق كلها وتفتح آليًا بدورة مفتاح واحدة من الداخل. قال بارنر شارحًا: لا يوجد في العالم سيارتان مثلها، وكان هو، هو وحده الذي خطرت له فكرة تحويلها على ذاك النحو. أضاف أنها لم تصل بعد إلى الكمال الذي كان يوده: كان يحدث مع الزبائن، بعد أن يكونوا قد فحصوا الخيوط أن يخطئوا في الأدراج ، فلا يعيدوها إلى أدراجها وفق تناسب ألوانها. كان ذلك عيبًا جسيمًا لكنه سيصلحه. إنه يعرف الطريقة: بأن يثبت البكرات في قعر الدرج ذاته بممسك مبسط يعرف هو وحده استخدامه. كان يقول إنه يحاول على الدوام أن يُحَسن أدراجه، ولم يتم ذلك دفعة واحدة. لا شيء قد تم دفعة واحدة، قال بنبرة مسموعة وهو يعمم

قوله. تجمع عشرون شخصًا حول السيارة وراح يتحدث بصوت عالٍ كي يفيدهم من تفسيراته.

إن من رأى تلك السيارة، وسمعه يتحدث عنها، يوقن بلا شك إنه سوء الحظ عينه. كل ما تبقى لها أن تفعله هو أن تبيعه العلجوم. فكرت في جوزيف بشكل قوي.

بعد السينما، ذهبا يرقصان في صالة رقص ومسبح معًا، يقع خارج المدينة. قصده بارنر دون تردد وكان من الواضح أنه سبق وأتم البرنامج ذاته في إقاماته في المستعمرة، وفي كل مرة، مع امرأة يقترحها عليه الفندق.

كان بيتًا خشبيًا قد طلي باللون الأخضر، وسط غابة. بسبب مصابيح من مدينة البندقية تتأرجح في أعالي الأشجار كانت الرؤية واضحة كضوء النهار. على طول البيت الخشبي كان المسبح يمتد ويشكل وحده شهرة المرقص. كان عبارة عن حوض كبير محفور في الصخور تغذيه ساقية استطاعوا أن يحصروا مجراها بسد فتحة الحوض. هكذا، كانت المياه تتجدد باستمرار في أعماقها بفضل مجرى ضعيف بقي نقيًا جدًا. كانت ثلاث كشافات أنوار تضيء عموديًا حوض السباحة الذي بقي قعره وكذلك جدرانه على حالتها الطبيعية، وقد غطيت بأعشاب بحرية طويلة ظهر من خلالها قعر الحصاة البرتقالي والبنفسجي والتي كانت تزهو ألوانها من روعة الأزهار البحرية. كان الماء في منتهى الإشراق والركون حتى ليظهر

ذاك القعر في تفصيله الدقيق، في تدرج ألوانه الأشد رقة كأنه قد تجمد في الكريستال. إلى جانب كشافات الأنوار، كان المسبح مضاءً بمصابيح من البندقية متعددة الألوان، متحركة تتأرجح في سماء الغابة الخضراء. كانت أراض فسيحة من العشب المقصوص تحيط به وفي وسطها صف من غرف(كبائن) السباحة الخضراء أيضًا. كانت تنفتح أحيانًا إحدى الغرف ويظهر منها جسم امرأة أو رجل، عار تمامًا، وذي بياض مدهش ومن مادة مشعة تجعل ظلام الغابة المضيء كأنه قد كبا من أشعته. كان الجسم العاري يقطع الأراضي العشبية ركضًا، ويرتمي في الحوض، وقد فجَّر من حوله دفقة من الماء البراق. ثم يسقط الماء ويظهر الجسد داخله، مائلاً إلى الزرقة وذا لزوجة لبنية. فجأة كانت تتوقف موسيقا المرقص وتنطفئ الأنوار في الوقت الذي كان الجسم يسبح فيه. ويغطس أحيانًا هؤلاء الأكثر جرأة ويتجولون عبر الأعشاب الطويلة للقاع، ويزعجون السكون المهيب ويتيهون هناك في سباحة في الأعماق البحرية، مرتعشة وبطيئة. ثم يعود الجسم إلى الظهور على السطح في دوامة من الفقاعات المضيئة.

كان رجال ونساء ينظرون بصمت وقد استندوا بمرافقهم على شرفات المرقص. بالرغم من أن تلك الحمامات كان مسموحًا بها فإن قلائل كانوا يجرؤون على أن يعرضوا ذاتهم على الملأ بهذا الشكل. ما أن يختفي السبَّاحون، حتى تُضاء الأنوار وتعود الفرقة الموسيقية إلى العزف.

قال جون بارنر: ــ إنها تسلية أصحاب الملايين.

جلست أمامه. هنالك حولهم أناس قد جلسوا إلى طاولاتهم أو راحوا يرقصون، وكلهم من مصاصي دماء المستعمرة، من تجار الأرز، والكاوتشوك، ورجال المصرف والربا.

قال بارنر: ــ إنني لا أشرب الكحول، لكن ربما ترغبين في كأس؟

قالت سوزان: ــ أود كأسًا من الكونياك.

كانت تشتهي ألا تروق له لكنها ابتسمت له مع ذلك ، لا شك أنها كانت ترغب في أن تكون هناك مع شخص آخر لا تكلف نفسها عناء الابتسام. الآن وقد ذهب جوزيف وأن الأم ترغب كثيرًا في الموت، حقًا، كانت تشعر بتلك الرغبة بشكل متزايد.

أراد بارنر أن يسألها شيئًا ما فسألها قائلاً: ــ سيدتي، هل أمك مريضة؟

قالت سوزان: ــ إنها تنتظر أخي، وهذا يمرضها.

اعتقدت سوزان أن كارمن قد أعلمته بذلك.

ــ لا أحد يعرف أين هو، لاشك أنه التقى بامرأة.

استنكر بارنر قائلاً: ــ آه! هذا ليس سببًا. لن أترك أمي على الإطلاق. صحيح أن أمي قديسة.

كانت قداسة أمه تثير الرعشة فيها.

قالت سوزان: ــ أمي ليست كذلك، ولو كنت أنا مكان أخي لفعلت الشيء ذاته.

استدركت سوزان قائلة: ــ كان الوقت مناسبًا. إذا كنت تفكر في أنها قديسة فعليك أن تبرهن لها عن ذلك.

تعجب بارنر: ــ أن أبرهن لها؟ إنني أبرهن لها. أعتقد أنني أستطيع أن أقول إنني لم أقصر البتة في حقها.

ــ عليك أن تقدم لها نهائيًا هدية رائعة، بعد ذلك تشعر أنت بالطمأنينة.

قال بارنر بدهشة مستمرة: ــ إنني لا أفهم، كيف أكون أكثر طمأنينة.

ــ كأن تقدم لها خاتمًا جميلاً، بعد ذلك لن تكلف نفسك عناء هدية جديدة.

ــ خاتمًا؟ لماذا الخاتم؟

ــ أقول خاتمًا على سبيل المثال.

قال بارنر: ــ إن أمي لا تحب الحلي، إنها بسيطة جدًا. كل سنة أشتري لها قطعة أرض صغيرة في الجنوب الانكليزي، وهذا ما يسرها إلى أقصى درجة.

قالت سوزان: ــ أنا، أفضل المجوهرات. إن الأراضي غالبًا ما تكون كالغائط.

قال بارنر: ــ آه! ما هذه اللغة؟

قالت سوزان: ــ إنها الفرنسية. أود أن أرقص.

دعا بارنر سوزان إلى الرقص. كان يرقص بدقة كبيرة. كانت سوزان أقصر منه كثيرًا وحين ترقص وصلت عيناها إلى علو فمه.

بدأ حديثه وهما يرقصان:ــ إن الفرنسيات هن أفضل الأشياء وأسوؤها.

لكن بالرغم من أن فمه كان يصل إلى مستوى عيني الفرنسية وشعرها، فإن فمه لم يلامس قط ذاك الشعر.

تابع قوله: ــ حين نأخذهن صغيرات، نستطيع أن نصنع منهن الرفيقات الأكثر إخلاصًا، والمساعدات الأكثر أمانة.

كان سيرحل بعد ثمانية أيام لمدة سنتين وكان في عجلة من أمره. كان ينشد على وجه الدقة فتاة في الثامنة عشرة، لم يمسها رجل، ليس لأن له أفكارًا مسبقة بالنسبة إلى الفتيات اللواتي عاشرن رجالاً (كان يقول " لا بد من ذلك ") لكن لأن تجربته قد علمته أن فتيات الفئة الأولى يمكن تأسيسهن بأفضل شكل وبأسرع وقت .

ـــ لقد بحثت طوال حياتي عن شابة فرنسية في الثامنة عشرة من عمرها، هذا شيء مثالي. إنها سن رائعة، الثامنة عشرة. يمكن تشكيلها فيصنع منها تحفًا صغيرة رائعة.

قد يقول جوزيف: " إن تحفًا على ذلك الشكل، لا أتحملها، كل تلك الشابات الصغيرات يضايقنني.

قالت سوزان: ـــ إن النمط الذي أفضله هو من طراز كارمن.

أجاب: ـــ آه!

لاشك أنه حاول مضاجعة كارمن لكن كارمن لم تكن ترغب في تلك الطريدة. حاولت مع ذلك أن تبيعه الخاتم.

قالت سوزان: ـــ على طراز كارمن، ولكن بشكل أفضل.

قال بارنر: ـــ أنت لا تفهمين، لا يمكن لأحد أن يتزوج امرأة مثل كارمن.

ضحك بحنان من كل تلك السذاجة.

قالت سوزان: ـــ ذلك يتوقف على الرجل، لا يستطيع كل الناس القيام بذلك.

حين صارا في السيارة، وقد وصلا أمام الفندق، قال بارنر ما سبق بلا شك أن ردّده غالبا على نماذج من ذلك النوع:

ـــ أتريدين أن تكوني تلك الشابة التي أبحث عنها منذ زمن طويل؟

قالت سوزان: ـــ يجب أن تحدث أمي في هذا الموضوع، أما أنا فأنبهك أن نمطي سيكون من طراز كارمن.

إلاَّ أن الاتفاق قد تم على لقاء الأم، في اليوم التالي، بعد العشاء.

قال بارنر: ـــ إنني واحد من أضخم الممثلين والأكثر شهرة لذلك المصنع.

نظرت إليه الأم بقليل من الفضول.

قالت: ـــ لقد حالفك الحظ في نجاحك، لا يستطيع كل الناس أن يقولوا كذلك. إذن أنت تبيع الخيوط؟

قال بارنر: ـــ لا. يبدو هذا العمل مهمًا، لكنها صناعة على قدر كبير من الأهمية. يُستهلك في العالم أطوال من الخيوط لا يمكن تخيلها وتُباع بمبالغ لا يمكن تخيلها كذلك.

بقيت الأم مرتابة. لم تكن قد فكرت مطلقًا، على ما يبدو أنه يمكن العيش ببحبوحة من تلك الصناعة. حدثها بارنر عن ثرائه الذي راح يأخذ قدرًا من الأهمية،على حد قوله. كان يشتري كل سنة قطعة أرض في الجنوب الانكليزي حيث كان يفكر أن يعتزل العمل. كانت الأم تصغي بشرود. ليس لأنها تشك في كلمات بارنر لكنها لم تكن

ترى معنى لتوظيف المال في الجنوب الانكليزي. كان بعيدًا جدًا. مع ذلك فإثر كلمة "توظيف" مر في عينيها ما يشبه بريق الماس لكنه كان خاطفًا جداُ ولم تعلق بشيء. كانت قد بدت تعبة وحالمة. لكن الأمر كان مهمًا. وفي نهاية المطاف كانت تلك المرة الأولى التي يطلب فيها أحد منها الزواج بسوزان. كانت تبذل قصارى جهدها وبشكل ظاهر للاستماع إلى بارنر لكن فكرها كان في الواقع بعيدًا، بالقرب من جوزيف.

سألته: ــ أتبحث هكذا منذ زمن طويل؟

قال بارنر: ــ منذ سنين كثيرة، أرى أن كارمن قد حدثتك عني. كل شيء مرهون بأوانه لمن يعرف أن ينتظر، كما تقولون في الفرنسية.

قالت الأم: ــ إنك تتحدث بها جيدًا، أي الفرنسية.

فكرت سوزان هكذا، يصبح لدي مغفلان اثنان. دائمًا سوء الطالع، كما في باقي الأمور.

قالت الأم بصوت حالم: ــ لا شك أن ذلك متعب. إنني انتظرت طوال سنين، لكن ذلك لم ينفعني في شيء. ثم إنني لا أزال أنتظر، لا ينتهي الانتظار على الإطلاق.

قالت سوزان: ــ لا أحب ذلك، الانتظار. الصبر، كما يقول جوزيف، يضجرني، في نهاية الأمر.

بدا من بارنر انتفاضة لا تُذكر. لم تنتبه الأم إلاّ إلى اسم جوزيف.

قالت الأم بصوت منخفض: ــ ربما هو ميت، في الواقع لما لا يكون ميتًا...

قالت سوزان: ــ بما أنك تنتظر على هذا الشكل، فلا بد أن تساهلك في تزايد.

قال بارنر بلهجة المادح: ــ على العكس، تشددي في تزايد.

قالت الأم بصوت منخفض: ــ تحت عجلات الترام. شيء ما يقول لي إنه تحت الترام.

قالت سوزان: ــ دعكِ من ذلك، كل ما يمكن أن أقوله لك هو أنه ليس تحت الترام.

توقف بارنر لحظة عن التحدث عن نفسه. لم يضايقه عدم الاهتمام هذا. حزر أن الموضوع يدور عن جوزيف وعن هربه ولقد دلت ابتسامته أن له تجربة ما في هذا النوع من المغامرات.

قالت سوزان: ــ لا يقتصر الأمر على أنه ليس تحت الترام، لكنه أسعد منك، لا تقلقي، إنه أسعد منك بألف مرة.

كانت الأم تحدق في خط الترام المتركز وفي شارع الجنوب العريض، كما اعتادت غالبًا أن تنظر إليهما، من نافذة غرفتها، تترقب وصول سيارة (B. 12).

قال بارنر أخيرًا بصوت واضح وأضاف بابتسامة تتسم بالعمق:

ــ هذا ما يدعى هربًا مؤقتًا لشاب، يستحسن أن يمر الرجل بتلك التجربة لكن الأفضل من ذلك أن يخرج منها.

كان يلعب بكأسه. كانت يداه النحيفتان والمعتنى بهما تذكران بيدي السيد جو. كان هو أيضًا يلبس خاتمًا في بنصره لكن بدون ماسة. كان يزين ذاك الخاتم أول حرف من اسمه ومن كنيته: حرف الجيم وقد عانقه بولّه حرف الباء.

قالت سوزان مؤكدة: ــ مع جوزيف لا تنتهي الأمور مطلقًا على هذا الشكل.

قالت الأم: ــ أعتقد أنها على حق في ذلك.

قال بارنر بشيء من الزهو: ــ ستجعله الحياة أكثر رصانة، كأنه يعرف، هو، ما تخبئ الحياة لأشخاص مثل جوزيف.

تذكرت سوزان يدي السيد جو اللتين كانتا تحاولان لمس نهديها. إن يدي بارنر على نهديٍّ ستكونان كذلك. النوع ذاته من الأيدي.

قالت سوزان: ــ لن تتكفل الحياة بشيء على الإطلاق، إن جوزيف ليس شخصًا عاديًا.

لم يبدُ على بارنر أدنى ارتباك. كان يتابع فكرته.

ـــ ليس هذا النوع من الرجال الذي يسعد النساء، صدقيني.

تذكرت الأم شيئًا ما فقالت: ـــ إذن، تريد أن تتزوج من ابنتي؟

استدارت نحو سوزان وابتسمت لها بشرود وبلطف معًا. كست حمرة خفيفة وجه بارنر.

ـــ هذا صحيح. سأكون سعيدًا جدًا بذلك.

جوزيف، جوزيف. لو كان هنا لقال لن تضاجعه. قالت لي كارمن إنه قد قدم لها ثلاثين ألف فرنك كي يأخذني معه، أي بزيادة عشرة آلاف على الماسة. وقد يقول جوزيف هذا ليس مقنعًا.

سألت الأم: ـــ هل تبيع خيوطًا؟

تعجب بارنر. لقد كانت المرة الثالثة التي يقول فيها ذلك.

قال بصبر: ـــ هذا يعني أنني أمثل مصنع خيوط في كلكوتا. إنني آخذ طلبات ضخمة في العالم كله لحساب ذلك المصنع.

فكرت الأم وهي تتابع النظر في خط الترام المتراكز.

ـــ لا أعرف إن كنت أعطيك إياها أم لا. هذا غريب، لا رأي لي.

همست سوزان: ـــ يا لغرابة تلك المهنة.

قال بارنر الذي كان قد سمع لكنه في الحق قد ترك " لشقاوة " سوزان نصيبًا واسعًا جدًا: ــ إنني حر في معظم الأوقات، إنني في منتهى الحرية. إن عملي دائمًا مع المديرين. أنتم تدركون أن على هذا الصعيد تجري الأمور على الورق. لذا لدي متسع كبير من الوقت.

قالت سوزان في نفسها، إذن لن تكون لي الفرصة لأهرب مع غيره. سُد منفذ النجاة، على حد قول كارمن.

قالت الأم مرة ثانية بنبرة غريبة: ــ إنك تجيد الفرنسية

ابتسم بارنر، وقد غره هذا الإطراء.

تابعت الأم قولها: ــ ستتبعك حيث تذهب؟

قال بارنر وقد ساعده ما بقي لديه من وقاحة الشباب:

ــ تتولى شركة الخيوط .G.M.B نقل مندوبيها مع زوجاتهم... ومع أولادهم.

لم يكن واضحًا فعلاً ما يمكن أن تكون شركة بارنر. كان ذلك رأي الأم التي قالت فجأة بعد صمت:

في الواقع لست مع هذا الزواج ولا ضده. وذلك هو الغريب في الأمر.

قال بارنر الذي اعتاد على التشجيع بسهولة:

ـــ غالبًا ما تحدث الأشياء حين يقل تفكيرنا فيها إلى أدنى مستوى.

قالت سوزان: ـــ ليس هذا ما تعنيه أمي.

تثاءبت الأم طويلاً دون حرج . لقد سئمت تركيز انتباه كان يفلت على الدوام.

قالت: ـــ من الأفضل أن أفكر في ذلك هذه الليلة.

وحين أصبحتا وحدهما، سألت الأم: ـــ ما رأيك فيه؟

قالت سوزان: ـــ أفضّل صيادًا.

لم تجب الأم.

قالت سوزان: ـــ سأرحل نهائيًا.

لم تكن الأم قد انتبهت إلى هذا الأمر.

ـــ نهائيًا؟

ـــ لثلاث سنوات.

استمرت الأم في التفكير.

ـــ إذا لم يعد جوزيف، يبقى الزواج هو الحل الأفضل مع ذلك. يا لها من مهنة غريبة، لكن إذا لم يعد جوزيف؟

كانت الأم تنظر، وهي تحدق بعينيها، دون أن ترى مربع السماء الأسود الذي ظهر من النافذة المفتوحة. كانت سوزان تعرف، ولقد جرت الأمور دائمًا على ذاك النحو. فكرت الأم " ستبقى مسؤوليتها عليَّ، لن ينتهي ذلك على الإطلاق." لم تكن تفكر بمبلغ الثلاثين ألف فرنك لكنها فكرت بموتها.

صرخت سوزان: ــ سيعود جوزيف، سيعود عاجلاً أو آجلاً.

قالت الأم: ــ هذا ليس مؤكدًا.

ــ وحتى... أفضّل صيادًا.

ابتسمت الأم، وانفرجت أساريرها بغتة. داعبت شعر ابنتها.

ــ لماذا تريدين دائمًا صيادًا؟

ــ لا أدري.

ــ لا تقلقي، مع ذلك، تستطيعين أن تحصلي على صياد. غدًا سأتحدث إليه. سأقول له إنك لا تريدين أن تتركيني.

وفجأة، بلهجة من تذكر أنه نسي ما هو أساسي: ــ والماسة؟

قالت سوزان: ــ لقد حاولت، من العبث الإلحاح عليه في ذلك.

ختمت الأم قولها: ــ كلهم سواء.

للمرة الأولى منذ رحيل جوزيف، نهضت الأم باكرًا. ذهبت إلى غرفة بارنر. لم تعرف سوزان مطلقًا ما قالت له. رأته ثانية بعد ظهر ذاك اليوم في المكتب، حين كانت تعمل على الصندوق مكان كارمن. بدا مستاءً قليلاً وقال لسوزان إن أمها قد كلمته.

ـ أعترف أنني بدأت أيئس. منذ عشر سنوات وأنا أبحث. تبدين...

قالت سوزان: ـ يجب أن لا تأسف على شيء.

ابتسمت. أما هو فلم يبتسم.

أما بخصوص العذرية، فلقد انتهى ذلك منذ زمن طويل.

قال بارنر: ـ آه، لماذا أخفيت ذلك؟

ـ لن نصرخ بتلك الأشياء على رؤوس الملأ.

صاح بارنر: ـ هذا فظيع!

ـ هكذا الأمور.

في غمرة يأسه، رفع بارنر عينيه إلى السماء وبحركته أسقط لافتة كارمن: " للبيع ماسة رائعة..."

سأل بصوت منهار: ـ هل هي.... لك تلك الماسة؟

قالت سوزان: ـ طبعًا.

تابع بارنر قائلاً: ــ آه! كل تلك الإمكانيات الرائعة قد أساءت إليها تلك الإباحية.

قالت سوزان: ــ أنت، تبيع الخيط.

إلاّ أن سوزان قد قامت بلقاء ثانٍ، لقاء السيد جو. ذات يوم بعد الظهر، وقد خرجت من فندق (هوتيل سنترال) وجدت سيارة الليموزين واقفة أمام مدخل الفندق. ما إن لمح السيد جو سوزان، حتى توجه نحوها هادئ الخطوة.

قال لها بنبرة انتصار: ــ نهارك سعيد، لقد وجدتك.

ربما كان أكثر تأنقًا في لباسه من المعتاد لكنه بقي دميمًا كعهدها به

قالت سوزان: ــ جئنا لنبيع خاتمك، إنه لا يجدي نفعًا.

قال السيد جو وهو يتصنع ضحكة رياضية: ــ لا يهمني، لقد وجدتك، مع ذلك.

لا شك أنه قد بحث عنها طويلاً. منذ ثلاثة أيام وربما أكثر. هنا، في المدينة، بعيدًا عن مراقبة جوزيف والأم، بدا أقل حياءً مما كان عليه في البيت الخشبي.

ــ إلى أين أنت ذاهبة هكذا؟

ــ إنني ذاهبة إلى السينما. أذهب إليها كل يوم.

نظر السيد جو إليها نظرة ارتياب. قال لها:

ـــ هكذا، وحدك؟ فتاة جميلة مثلك، هكذا، وحدها في السينما؟ ثم أضاف بفطنته المعهودة:

ـــ سواء كنت جميلة أم لا، على كل حال، هكذا الحال.

خفض السيد جو عينيه، بقي صامتًا برهة ثم أعلن تلك المرة، بخجل حقيقي: ـــ وإذا عدلت اليوم عن الذهاب؟ لماذا تذهبين كثيرًا إلى السينما؟ هذا مفسد للأخلاق ويعطيك أفكارًا خاطئة عن الوجود.

نظرت سوزان إلى الليموزين التي تم تلميعها بشكل جيد. والسائق بلباسه الرسمي الأبيض والذي لا تشوبه شائبة، يشبه قطعة من قطع السيارة التي يقودها. كان في منتهى برودة الأعصاب، لم يكن يحرص إلاً على أن يظهر بقدر الامكان غير منتبه.لا شك أنه كان على علم، مع ذلك، بكل ما حدث بينها وبين السيد جو. حاولت أن تبتسم له لكنه بقي جامدًا كما لو كانت قد ابتسمت للسيارة ذاتها.

قالت سوزان: ـــ بالنسبة إلى الأفكار الخاطئة، ستعود إليها، كما يقول جوزيف. أما بالنسبة إلى السينما فلست راغبة في العدول عنها كما تقول.

كانت ماسته الضخمة دومًا في إصبعه. كانت تشكل على الأقل ثلاثة أضعاف الماسة الأخرى. لكنها كانت بدون شك بلا "علجوم". يمكن التساؤل عما كانت تفعل هنا، فوق إصبعه، كما يمكن التساؤل عما يفعل صاحبها بكل شخصه في المدينة، وفي الحياة.

قال ووجهه يحمر: ــ نستطيع أن نقوم بنزهة. أود أن أتحدث معك عن آخر لقاء لنا... هل تعرفين، لقد تألمت بشكل فظيع.

قالت سوزان: ــ ربما، أما بشأن السينما فلي مع ذلك رغبة في الذهاب إليها.

نظر إليها السيد جو من رجليها حتى رأسها. للمرة الأولى منذ معرفته بها وجد نفسه معها بدون شاهد إلاّ سائقه وكانت نظرته تماثل قليلاً نظرته إليها حين كانت تظهر له في غرفة الحمام. كان قد نظر إليها بتلك النظرة رجال صادفتهم في الحي العالي وهي ذاهبة إلى السينما. حدث مرة أو اثنتين، حين كانت عائدة إلى الفندق، أن اقترب منها جنود من المستعمرة. لكن ذلك قد وقع لا شك بسبب أثواب كارمن لأن جنود المستعمرة لا يقتربون إلاّ من العاهرات. كانت ترى بعضهم وهي على استعداد لأن تتبعهم لكن هؤلاء لم يكونوا يقتربون منها. في السينما، ذات مرة بشكل خاص، كان هناك جندي وكانت مستعدة لأن تتبعه. غالبًا، أثناء الفيلم، نظر كل واحد إلى الآخر بصمت، وقد اجتمع مرفقاهما على ذراع الكرسي. كان مع رجل آخر وعند الخروج ضاعا كلاهما وسط الحشد. وجدت نفسها وحيدة. ومن ذراع ذاك الشخص المجهول أتاها نوع من الحرارة المواسية لا تعرف عن أي حزن ولقد ذكرتها بقبلة جان أغوسطي. منذ ذاك الحين ازداد يقينها من أنها ستلتقي بهم في صالات السينما، في عتمة السينما المثمرة. لقد التقى جوزيف بتلك المرأة في السينما.

كان هناك، كذلك، منذ ثلاث سنوات، أن التقى بأول امرأة ضاجعها، بعد كارمن. كان الأمر على ذاك النحو، بسيطًا، أمام الشاشة. أن نكون مع مجهول أمام الصورة ذاتها، يثير فيك الرغبة في المجهول. يصبح المستحيل في متناول اليد، فتنبسط الموانع وتصبح وهمية. هناك على الأقل يكون المرء متساويًا مع المدينة في حين تهرب منك في الشوارع ويهرب منها المرء.

قال لها السيد جو: ـــ إذا ذهبت إلى السينما، فسأرافقك.

ذهبا في سيارة (Léon Bollée). انتظرهما السائق أمام الباب. طوال الفيلم كان السيد جو ينظر إلى سوزان بينما راحت هي تنظر إلى الفيلم. لكن ذلك لم يكن أكثر إزعاجًا منه في السهل. حتى إنه كان من الأفضل، في معنى ما، أن تكون مع السيد جو ومع سيارته الليموزين وحدها مرة أخرى. من وقت إلى آخر كان يأخذ يدها، يضمها، ينحني ويقبلها. وهناك، في ظلام السينما كان الأمر مقبولاً.

بعد السينما قدم لها السيد جو مشروبًا كحوليًا في مقهى من الحي العالي. كان يبدو سعيدًا كالمعتاد وهو يخطط لمشاريع يفكر فيها، تحدث في مواضيع شتى، وقد أجل بلا شك ما أراد أن يقوله إلى وقت آخر. كانت سوزان هي التي حدثته عن الخاتم.

سألها: ـــ وجوزيف؟

كان قد مضى عشرة أيام على اختفاء جوزيف.

ـ إنه في أحسن حال. لا بد أن يكون في السينما. إننا نستفيد من المدينة قبل أن نرحل. لم نحصل في حياتنا على مال بتلك الوفرة. هي، سددت قسمًا من ديونها وهي مسرورة كثيرًا.

إن ما كان يود السيد جو معرفته هو إذا تراجعت الأم وكذلك جوزيف عن قرارهما بالنسبة إليه.

قالت سوزان: ـ وحتى لو أرادت أن تراك ثانية، عليك أن لا تقبل. لأنها ستجردك من كل أموالك. في نهاية الأمر، إن ما يلزمها هو خاتم يوميًا، وليس أقل من ذلك. الآن وقد ذاقت الطعم...

قال السيد جو وقد احمر وجهه: ـ أعرف، لكنني كي أراك ما الذي لا افعله...

تجنب السيد جو السؤال.

سألها بنبرة تعاطف عميق: ـ ما هو مصيرك؟ إنها حياة قاسية تلك التي تعيشينها في السهل.

قالت سوزان وهي تحدق بالسيد جو الذي راح وجهه يحمر بقوة :

ـ لا تقلق، لن يستمر هذا الوضع طويلاً.

سألها وهو يتعذب: ـ هل لديك... مشاريع ما؟

قالت سوزان وهي تضحك: ـــ ربما أقيم عند كارمن. لكن ثمني غالٍ جدًا. دائمًا بسبب جوزيف.

ولكي يضع السيد جو حدًا لهذا الحديث الذي لم يستطع أن يكون فكرة عنه قال: ـــ إذا أردت، أوصلك بالسيارة إلى الفندق.

قبلت سوزان. صعدت إلى سيارة السيد جو. كانت مريحة جدًا. وعرض السيد جو على سوزان القيام بجولة في المدينة.راحت السيارة تنساب في المدينة الممتلئة بسيارات مماثلة، وهي تلمع. حين أقبل الليل كانت السيارة مازالت تنساب في المدينة وفجأة أضيئت المدينة لتصبح حينذاك سديمًا من المساحات اللامعة والمعتمة، وحيث كانت السيارة تغوص بلا عناء وكان السديم يتلاشى حول السيارة ويتشكل ثانية وراءها... كانت تلك السيارة حلاً في حد ذاتها، وكانت الأشياء تتخذ معناها بمجرد أن تتقدم فيها، كان ذلك شأن السينما أيضًا. خاصة وأن السائق كان يسير بلا هدف، وبلا نهاية، كما لا يفعل الإنسان ذلك في الحياة...

حين حل الظلام، اقترب السيد جو من سوزان وضمها إليه. كانت السيارة تتابع سيرها في سديم المدينة المضيء والمعتم، كانت يدا السيد جو ترتجفان. لم تكن سوزان ترى وجهه. لقد تمكن بشكل لم تحسه من الالتصاق بها وتركته يفعل دون مقاومة. كانت ثملة من المدينة. كانت السيارة تسير، وكانت المدينة تتهاوى بأكملها، تنهار متلألئة، زاخرة، بلا نهاية وهذا هو الواقع الوحيد والرائع في ذلك

المشهد. كانت يد السيد جو تصادف أحيانا نهدي سوزان. وقال لها مرة:

ــ لك نهدان جميلان.

قال تلك الجملة بصوت منخفض. لكنها قد قيلت، وللمرة الأولى. وفي الوقت الذي كانت فيه اليد مباشرة على النهد العاري. وعلاوة على المدينة المخيفة، رأت سوزان نهديها، رأت انتصاب نهديها أعلى من كل ما انتصب في المدينة، وقد يكونان هما على حق في ذلك. ابتسمت. ثم، أخذت يدي السيد جو ووضعتهما حول خصرها، باندفاع جنوني، كما لو كان الأمر مستعجلاً لتعرف ذلك فورًا.

ــ وهذا؟

قال السيد جو بدهشة: ــ ماذا؟

ــ ما رأيك في خصري؟

ــ جميل جدًا.

كان ينظر إليها عن قرب. كانت هي، وهي تنظر إلى المدينة لا تنظر إلاَّ إلى ذاتها. كانت تنظر بعزلة إلى إمبراطوريتها، حيث يهيمن نهداها، وخصرها، وساقاها.

قال السيد جو بصوت منخفض: ــ أحبك.

في الكتاب الوحيد الذي ربما قد قرأته، وكذلك في الأفلام التي قد شاهدتها منذ حين، إن كلمة أحبك لم تكن تُلفظ إلاّ مرة واحدة إبان اللقاء بين العاشقين والتي لا تكاد تستغرق عدة دقائق لكنها تخلّف أشهرًا من الانتظار، وفراقًا فظيعًا، وآلامًا لا نهاية لها. لم تسمع بعد سوزان تلك الكلمة إلاّ في السينما. لقد ظنت طويلاً أن قول تلك الكلمة أشد خطورة في نهاية الأمر، من الاستسلام إلى رجل بعد قولها، وأنه لا يمكن قولها إلاّ مرة واحدة طوال الحياة وبعد ذلك لا يمكن قولها بتاتًا، طوال العمر، وإلاّ يُعَرّض المرء نفسه للعار المشين. لكنها عرفت الآن أنها كانت على خطأ وأنه يمكن قولها عفويًا، تبعًا للرغبة حتى للعاهرات. كانت تلك حاجة يشعر الرجال أحيانًا بضرورة لفظها ليحسوا في تلك اللحظة القوة المضنية، كما أن سماعها كان ضروريًا أحيانًا للأسباب عينها.

ردد السيد جو: ــ أحبك.

انحنى قليلاً بشكل متزايد على وجهها، وفجأة، كما الصفعة، تلقت شفتيه على شفتيها. تملصت منه وصرخت. أراد السيد جو أن يحتفظ بها في ذراعيه. اندفعت نحو باب السيارة وفتحته. حينئذ ابتعد السيد جو عنها وطلب من السائق العودة إلى الفندق. أثناء قطع المسافة لم ينبسا ببنت شفة. حين وصلا إلى الفندق، نزلت سوزان من السيارة دون أن تلقي أية نظرة على السيد جو.

حين صارت في الخارج، فقط، قالت له:

ـــ لا أستطيع، من العبث المحاولة، معك لن أستطيع مطلقًا.

هكذا اختفى من حياة سوزان. لكن لم يعلم أحد بشيء، ولا حتى كارمن. ما عدا الأم، ولكن بعد زمن طويل.

بعد ظهيرة ذات يوم، اندفعت كارمن إلى غرفة الأم تطلب منها الماسة.

صرخت كارمن: ـــ إنه جوزيف،إن جوزيف هو الذي نجح في بيعها

هبت الأم كنابض وصرخت بأنها تريد أن ترى جوزيف. قالت لها كارمن إنه لم يأتِ إلى الفندق لكنه اتصل بها هاتفيًا لتذهب إلى لقائه فورًا في مقهى في الحي العالي. من الأفضل أن لا ترافقها الأم. قد يظن جوزيف أنها قد جاءت لتستعجله في العودة إلى السهل إلاَّ أنه من الواضح ، في رأي كارمن، أن جوزيف لم يكن قد قرر العودة.

رضخت الأم وأعطت كارمن الخاتم التي ركضت للقاء جوزيف في مكان الموعد المجهول.

حين عادت سوزان من السينما، ذاك المساء، وجدت الأم في لباسها الكامل تقطع الممر جيئة وذهابًا، أمام غرفتها. كان في يدها رزمة من الأوراق المالية من فئة الألف فرنك.

أعلنت بانتصار: ــ إنه جوزيف. ثم أضافت بصوت أكثر انخفاضًا:

ــ عشرون ألف فرنك. ذاك ما كنت أريده ثمنًا.

ثم، غيرت نبرتها فورًا وراحت تشكو. قالت إنها سئمت البقاء في السرير وإنها ترغب في الذهاب فورًا إلى المصارف لتدفع فوائد ديونها، لكنها حصلت على النقود متأخرة جدًا، وإن المصارف قد أغلقت الآن أبوابها وذلك من دواعي نحسها المعتاد. ما أن سمعت كارمن الأم تتحدث إلى سوزان حتى خرجت من غرفتها. كانت تبدو سعيدة جدًا وقبّلت سوزان. لكنه لم يكن هناك مجالٌ لتهدئة الأم. اقترحت كارمن عليها أن تتناول عشاءها بسرعة كبيرة وتخرج بعد العشاء. كادت الأم ألا تأكل شيئًا. راحت تتحدث دون توقف عن ميزات جوزيف، أو عن مشاريعها. بعد العشاء، تبعت سوزان وكارمن إلى مقهى في الحي العالي لكنها رفضت الذهاب إلى السينما بحجة أن عليها أن تكون موجودة في اليوم التالي باكرًا عند افتتاح المصارف.

حين أمستا وحيدتين، أعلمت كارمن سوزان أن جوزيف قد باع الماسة إلى المرأة التي التقاها. كانت قد رأته مدة قصيرة من الزمن. لم يسأل عن أخبار الأم ولا عنها، أي سوزان. كان يبدو في منتهى السعادة، حتى إنها لم تحدثه عن نفاد صبر الأم. كانت متأكدة من أن أي شخص يتصرف بالطريقة ذاتها. لا أحد يجرؤ على أن

يعكر سعادة جوزيف العارمة. حين افترقا، قال لها إنه سيعود قريبًا جدًا إلى الفندق ليصطحبهما إلى السهل. لكنه لم يكن يعرف اليوم بالتحديد. نصحت كارمن سوزان ألا تحدث الأم بذلك. كانت تقول إن جوزيف نفسه لم يكن متأكدًا من العودة.

هكذا، حصلت الأم، خلال بضع ساعات على الأقل، على مبلغ عشرين ألف فرنك بين يديها.

في اليوم التالي، ركضت إلى المصرف وسددت قسمًا من ديونها. نصحتها كارمن بالعدول عن ذلك لكنها لم تصغ إليها. كانت تقول إنها تهدف إلى إعادة الثقة لتستطيع بالتالي أن تستدين المبالغ الضرورية لبناء سدود جديدة. بعد أن سددت ذلك، قامت بشكل متتابع بنوعين من المساعي. الأول يهدف إلى الحصول على موعد من مدير المصرف كي تطلب منه قروضًا جديدة. إن الموظفين الصغار قد قبلوا بكل رضا استلام المال الذي كانت تحرص على تسديده، لكنهم رفضوا أن يتخذوا مبادرة دعم طلبها بدين جديد. أما المسعى الثاني فلاستعجال الموعد الذي حصلت عليه إثر الأول، بالطبع، ولكنه في مدة طويلة الأمد حتى إن الانتظار قد يكفي ليبتلع المبلغ الهزيل المتبقي من بيع الخاتم، بعد دفع الفوائد.

كانت المساعي الثانية هي الأكثر طولاً وغير المجدية بتاتًا. حين أدركت الأم ذلك، اتجهت إلى مصرف آخر حيث قامت بسلسلتين من المساعي. وتبين ثانية أن تلك المساعي لا جدوى منها

مطلقًا بسبب التعاضد الذي لا يمكن فكه والذي كان سائدًا في مصارف المستعمرات.

كانت الفوائد أعلى بكثير مما كانت تظنه الأم. وكانت المعاملات أطول كثيرًا مما كانت تتوقع.

بعد عدة أيام لم يبقَ للأم إلاَّ قليل جدًا من المال. حينذاك استلقت على سريرها، وتناولت حباتها ونامت النهار كله. بانتظار جوزيف، على حد قولها، مصدر كل آلامها.

عاد جوزيف، ذات صباح، حوالي السادسة، دق على باب كارمن ودخل دون أن ينتظر، قال لسوزان: ـــ سنرحل، انهضي بسرعة.

بقفزة واحدة، كانت سوزان وكارمن خارج السرير. لبست سوزان ثيابها وتبعت جوزيف. دخل إلى غرفة الأم دون أن يدق الباب ووقف أمام السرير.

قال: ـــ إذا أردتما الذهاب فسنرحل فورًا.

انتصبت الأم على سريرها بهيئة تائهة. ثم دون أن تنبس ببنت شفة شرعت في البكاء بصوت منخفض. لم يلقِ عليها جوزيف نظرة واحدة. ذهب إلى النافذة، فتحها واستند إليها وشرع ينتظر. بما أن الأم لم تحرك ساكنًا، التفت إليها بعد عدة دقائق قائلاً:

ـــ إذا أردت الرحيل، فيجب أن تسرعي فورًا.

نهضت الأم بصعوبة من سريرها وقد لزمت الصمت. كانت شبه عارية في قميص عتيق للنهار وغير نظيف. لبست ثوبها، ورفعت ضفيرتيها، وهي مستمرة في البكاء، ثم سحبت حقيبتين كانتا تحت السرير.

كان جوزيف، الواقف أمام النافذة، يدخن سجائر أميركية بدون توقف.لقد نحف جسمه. كانت سوزان وقد جلست على كرسي وسط الغرفة،مشدودة النظر إليه.لا شك أنه لم ينم منذ ليالٍ كثيرة وكان مظهره هو ذاته إلى حد ما حين كان يعود من الصيد، في مطلع الصباح. كان غضب مخنوق يشنجه بكامله ويمنعه من الاستسلام إلى التعب. لاشك أنه لم يقرر من تلقاء ذاته أن يأتي ليأخذهما. ربما قد قيل له شيء من هذا القبيل " اصحبهما على الأقل " أو " يجب أن ترجعهما على الأقل، أعرف أن ذلك شاق لكنك لا تستطيع أن تتخلى عنهما هكذا".

طلبت الأم قائلة: ــ ساعديني، يا سوزان.

قالت سوزان: ــ سأرحل إذا طاب لي ذلك. يروق لي العيش هنا، لم أسر قط في أي مكان كما سررت هنا. إذا أردت فسأبقى هنا.

لم يستدر جوزيف. انتصبت الأم وحاولت أن تكيل عبثًا صفعة لسوزان. لم تهرب سوزان لكنها أمسكت بيدها وجمدتها تمامًا. نظرت إليها الأم، وكأنها لم تفاجأ، ثم أفلتت يدها، ودون أن تنبس ببنت شفة، راحت تضع الأشياء في الحقائب بلا ترتيب. لم يكن

جوزيف قد رأى شيئًا، لم يكن ينظر إلى شيء ولا إلى أحد. راح يدخن السجائر الأميركية الواحدة تلو الأخرى. حينئذ، شرعت الأم وهي تنضد الحقائب، تروي قصة بائع كلكوتا الذي أراد أن يتزوج بسوزان مقابل ثلاثين ألف فرنك.

قالت: ــ تصور أنه طلب منا الزواج بها منذ ثلاثة أيام فقط.

لم يكن جوزيف يصغي.

قالت سوزان: ــ إذا أردت فسأبقى. تبقيني كارمن عندها . لست في حاجة إلى أن يصطحبني أحد. إن الأشخاص الذين يظنون أنه لا يمكن الاستغناء عنهم، قد سئمتهم، وهم يعترفون بذلك جيدًا.

لم يبدُ على الأم أي رد فعل.

تابعت الأم: ــ بائع خيوط، من كلكوتا. إنه وضع جيد.

قالت سوزان: ــ أنا أيضًا، أستطيع الاستغناء عن كل الناس.

قالت الأم: ــ إنني لا أحب هذا النوع من المهن. فالمرء مستقل دون أن يقوم بذلك. ثم لا شك أن بيع الخيوط طوال الوقت أجل طوال الوقت يصيب بالخبل.

قالت سوزان: ــ إنه غير مبالٍ بقصتك. من الأفضل أن ترحلي.

لم يستدر جوزيف على الإطلاق. مرة ثانية، انحنت الأم نحو سوزان ثم غيرت رأيها وعادت إلى حقائبها.

تابعت دون أن تغير نبرتها: ـــ ثلاثون ألف فرنك. لقد عرض عليَّ ثلاثين ألف فرنك. ماذا تعني الثلاثون ألف فرنك؟ لقد كان الخاتم وحده يساوي عشرين ألفًا ولا مجال للمقارنة كما لو كنا نأكل من هذا الخبز.

دُق الباب. إنها كارمن. أحضرت صينية عليها ثلاثة فناجين من القهوة، وقطعًا من الخبز مع الزبدة وكذلك حزمة مربوطة.

قالت كارمن: ـــ يجب أن تشربوا القهوة قبل أن تذهبوا. لقد أعددت لكم شطائر محشوة.

كانت بملابس البيت ولم تكن قد سرحت شعرها، وراحت تبتسم. نهضت الأم من فوق حقائبها وابتسمت لها أيضًا، بعينيها اللتين كانتا مغرورقتين بالدموع. انحنت كارمن، وقبلتها وخرجت على أطراف أصابعها دون أن تنبس ببنت شفة.

لم يكن جوزيف يسمع شيئًا، وبدا لا يرى شيئًا. أخذت سوزان فنجانًا من القهوة وبدأت تأكل ببطء شديد قطع الخبز. شربت الأم قهوتها دفعة واحدة، دون أن تأكل الخبز. حين انتهت أخذت الفنجان الثالث وحملته إلى جوزيف.

قالت له بعذوبة: ـــ خذ، قهوتك.

أخذ جوزيف الفنجان دون أن يشكرها، وشرب قهوته بحركة تعبر عن الاشمئزاز، كما لو أن القهوة ذاتها قد تغيرت. ثم وضع الفنجان الفارغ على الكرسي وقال:

ـ حين لا يملك الإنسان قرشًا، يجب أن لا يتسلى بلفت الأنظار إليه في المدينة. يجب عدم المحاولة، وإلاّ فنصيبه الهلاك. هناك أناس لا يصلحون إلاّ للقيام بمهام شاقة، المهام ذاتها دائمًا. لا يستطيعون أن يخطوا خطوة بسهولة...

لم تتعرف سوزان على لغة جوزيف تمامًا. لم يكن يتحدث في الماضي بهذا العمق ونادرًا ما كان يصوغ أحكامًا عامة. لا شك أنه كان يردد شيئًا سمعه وأثر فيه. لكنه إذا كان قد عاد فلأن المال الذي حصل عليه من بيع جلوده قد نفد، ولأنه لم يعد هناك شيء في جيبه. وليس لأن أحدًا قد نصحه بذلك. إذن، فالأمر مختلف عما كان يُظن.

لم ينبس جوزيف ببنت شفة طوال قسم من الطريق. أما الأم، فعلى العكس، راحت تتحدث عن مشاريعها بلا توقف. قالت إنها قد حصلت من المصارف على ضمانات جدية عن إمكانية دين جديد وبفائدة أدنى من فائدة الدين القديم.

كانت تقول: ـ لقد أجريت عملية رابحة. فبدلاً من خمسة حصلت على اثنين بالمائة بالنسبة إلى الفوائد المستقبلية. وأبطلت كل الفوائد المتبقية. وهكذا فإن وضعي واضح لا غبار عليه.

كان جوزيف يقود سيارة (B. 12) بأقصى ما يمكن أن تقدمه من سرعة. كان يشبه القاتل الذي يهرب من المدينة حيث ارتكب جريمته. من وقت إلى آخر، كان يتوقف، يغترف بسطل ماءً من حقل الأرز، ويصبه على جهاز تبريد محرك السيارة، يبول، ويبصق

بقرف لا أحد يعرف من أي شيء، لا شك لأن الاثنتين كانتا معه هنا، مرة ثانية ، ثم يصعد إلى السيارة دون أية نظرة إليهما.

ـ لقد أحببت دائمًا المواقف الواضحة. هكذا تدبرت أمري دائمًا.

ـ إنني سعيدة في العودة إلى بيتي. ما يلزمني هو أن أحصل على رهن عقاريٍ جيد. ليس على حقول الأرز، طبعًا، لكن على الهكتارات الخمسة التي هي فوق. بالنسبة إلى البيت، واأسفاه إنه مرهون منذ زمن طويل.

كانت تتحدث من أجل جوزيف. إنما للمرة الأولى في حياته لم توجه له أي لوم. لم تلمح ولا مرة واحدة إلى الأيام الثمانية التي أمضتها في انتظاره في الفندق. إن من يسمعها يظن أن أمورها تجري بسهولة فائقة.

ـ إن دفع فوائد سنتين متبقيتين قد أحدث أفضل الأثر. يلزمني بعد ذلك رهن عقاري جيد كي أدبر أموري. قد يعطونني الهكتارات الخمسة الباقية كملكية نهائية، ويحق لي ذلك لأنها كانت مزروعة كل تلك السنين. لا يمكن طلب رهن عقاري على ارض لا تملكها، وهذا شيء طبيعي.

كانت تتحدث بنبرة مرحة، أقرب إلى البهجة. من يصغِ إليها يعتقد أنها قامت بأفضل عملية مالية ممكنة.

سيعرفون جيدًا في دائرة مصلحة الأراضي أنني قد سددت كل فوائدي. أعرف جيدًا أن ما يضايقهم هو أن يعطوني الملكية الكاملة للبيت وللأراضي العالية، وأن يقطعوا الأرض إلى قسمين، ولكن سواء أزعجهم ذلك أم لا، فإنه من حقي. ما رأيك في ذلك يا جوزيف؟

قالت سوزان: ــ كفّي عن إزعاجه، في مساحة تقدر بثلاث مائة كيلومتر، ربما ذلك حقك لكنك لن تحصلي عليها، كما حدث دائمًا، تظنين أن لك الحق في كل شيء ولكن ليس لك الحق في شيء.

حاولت الأم أن ترفع يدها نحوها لكنها تذكرت. لم يعد ذلك يجدي. تماسكت وضبطت نفسها.

قالت: ــ من الأفضل لك أن تسكتي، فأنت لا تعرفين حتى عمَّ تتحدثين. إذا كان حقًا، فسأحصل عليه. إن ما يؤسف في تلك العقارات المرهونة، هو أن الناس يسيئون استعمالها. إن أكثر من نصف السهل أراضٍ مرهونة. إن الناس ليسوا بجديين: يرهنون أراضيهم للمصرف أولاً ثم لحساب شخص ما. حينئذٍ يبيع المصرف الأرض. وهذا ما انتهى الأمر بأسرة أغوستي...

تحدثت طوال قسم من النهار، وحدها، دون أن تحصل من سوزان أو من جوزيف على أدنى تشجيع. لم يتلفظ جوزيف بأولى كلماته إلاّ حين وصلوا إلى آخر محطة قبل الدرب المؤدي إلى بيتهم.

نزل، وفحص المحرك، ثم ذهب إلى بئر القرية وملأ احتياطيه بالماء بخمس صفائح معدنية. ثم قدر كمية البنزين، وصب منه في المستودع، وسبر الزيت وصب منه كذلك. كان ذلك ضروريًا لأنهم قبل أن يصلوا إلى السهل لن يجتازوا قرية واحدة وسيسيرون في قلب الغابة طوال مائتي كيلومتر. ثم لم يعد لدى جوزيف شيء يعمله، جلس على مرقاة السيارة ومرر يديه على شعره، ببطء، وبقوة، كما يفعل الإنسان حين يستيقظ. تخلى عنه نفاد صبره دفعة واحدة وبدا كأنه غير مستعجل مطلقًا في الرحيل. كانت سوزان والأم تنظران إليه أما هو فلم يكن يراهما. كان يُستَشف من مظهره أنه في عزلة جديدة وقد فقدتا نهائيًا القدرة على انتشاله منها. أو بالأحرى لم يعد في عزلة. لم تكن الأخرى تحتاج إلى أن تكون هنا كي يشعر الجميع بأنه معها. ولم يبقَ لسوزان ولأمها دور آخر تلعبانه إلاّ دور الشهود العاجزين والمتطفلين والمشكوك بكفاءتهم إلى حد ما. كانت أفكاره بعيدة كل البعد وفي الوقت ذاته منفردة ومحددة حتى أصبح بالنسبة إليهما وهو جالس على درجة السيارة غائبًا كأنه يغط في سبات عميق." لن ينظر إليَّ إلاّ حين أموت " كان يقود السيارة منذ الصباح. الساعة الآن السادسة مساءً. كان حول عينيه دوائر من الغبار الأبيض شكل طلاءً جعله أكثر غربة عنهما. بدا خائرًا من التعب لكنه هادئ، واثق، قد وصل إلى غايته. لقد حدث أنه بعد أن مرر يديه طويلاً على شعره وبعد أن فرك عينيه، أن تثاءب وهو يتمطى، شأنه شأن من يصحو من النوم. قال:

ـ إني جائع.

أسرعت الأم بفك حزمة كارمن وأخرجت ثلاث شطائر. قدمت شطيرتين إلى جوزيف وواحدة إلى سوزان. أكل جوزيف واحدة منهما، وصعد إلى السيارة، وابتلع الثانية بعدة لقم وهو يقود السيارة. أما الأم فقد أغفت بينما كان ولداها يأكلان وقد خارت قواها فجأة. ربما لأنها كانت تشك حتى ذاك الحين بأن عليها أن تطعمه. حين استيقظت، بعد ساعة، كان الظلام قد حل. استرجعت أفكارها مجراها الطبيعي والقديم.

قالت: ـ ربما كان عليَّ أن لا أسدد الديون المتأخرة كما فعلت.

ثم أضافت بصوت منخفض، لها وحدها:

ـ لقد ابتزوا مني كل شيء، كل شيء.

لقد حذرتها كارمن لكنها لم تعر كلامها أدنى اهتمام .

ـ إنه تصرف شريف في غير محله، كانت كارمن على حق. إن ما دفعته بالنسبة إليهم، هو نقطة ماء في البحر، لا بل أقل من ذلك، وبالنسبة إليَّ، بالنسبة إليَّ... كنت أظن أنهم سيقرضونني خمسين ألف فرنك، على الأقل.

فجأة، وقد رأت أن لا أحد يجيب، راحت تبكي.

ـــ لقد سددت لهم كل الدين، بكامله. أنتم على حق، إنني غبية، عجوز معتوهة.

قالت سوزان: ـــ إن قول ذلك لا يجدي نفعًا، كان عليك أن تفكري قبل فعل ذلك.

راحت الأم تشكو: ـــ لم أكن متأكدة، أما الآن فإنني على يقين، لست سوى عجوزٍ معتوهة. حين أفكر بحالة أسنان جوزيف السيئة...

للمرة الثانية فتح جوزيف فمه:

ـــ لا تقلقي على أسناني، نامي.

للمرة الثانية، أغفت.

كانت الساعة الثانية صباحًا حين استيقظت. أخذت الغطاء الذي كان تحتها، على المقعد وبسطته فوقها. كانت تشعر بالبرد. كانوا في قلب الغابة. والسيارة تسير بانتظام، ودواسة البنزين تعمل بأقصى قدرتها. لم يكونوا بعيدين عن كام. تابعت الأم ثانية، بصوت متباكٍ:

ـــ في الواقع، إذا كنتما غير مباليين، يمكننا أن نبيع كل شيء ونرحل.

قال جوزيف: ـــ ماذا نبيع؟ نامي، هذا لا يجدي نفعًا.

راح يبحث في كل جيوبه وهو يقود السيارة، ثم وجد ما كان يبحث عنه، أخذه ومده إلى الأم بيد وهو يتابع القيادة باليد الأخرى. على انعكاس أضواء مصابيح السيارة، ظهر الشيء غير واضح في البدء، ثم راح يلمع صغيرًا براقًا، ثم فجأة، بشكل أكيد، لا يدعو إلى الشك، ظهرت الماسة.

قال جوزيف: ــ خذي، استعيديها.

أطلقت الأم صرخة رعب: ــ إنه هو ذاته! العلجوم!

كانت تنظر إلى الماسة دون أن تأخذها وقد انهارت.

قالت سوزان بصوت يخلو من الانفعال: ــ يمكنك أن تفسر عملك.

كانت يده مرتفعة في الهواء تمسك الماسة. انتظر جوزيف أن تأخذها الأم. لم ينفد صبره. كانت الماسة ذاتها غير أنها لم تكن ملفوفة بالورق الحريري.

قال أخيرا بصوت تعب: ــ لقد أعادوها إليَّ بعد أن اشتروها. لا تسعي إلى أن تفهمي شيئًا.

بسطت الأم يدها، وأخذت الماسة وأعادتها إلى حقيبة يدها. ثم بهدوء، عادت إلى البكاء بصمت.

سألتها سوزان: ــ لمَ البكاء؟

ــ يجب البدء من جديد، يجب البدء ثانية.

قالت سوزان: ــ عليك ألاّ تشكي.

ــ إنني لا أشكو، لكنه لم يعد لي القوة لأبدأ من جديد مرة أخرى.

كانت الأم قد ألحقت العريف في خدمتها منذ الأيام الأولى لوصولها إلى السهل. مضى الآن ستّ سنوات وهو في خدمتها. لم يكن أحد يعرف عمر ذاك العجوز الماليزي، وهو نفسه كان يجهل ذلك. كان يظن أنه بين الأربعين والخمسين من العمر، لم يكن يعرف عمره بدقة، لأنه كان قد أمضى حياته في البحث عن عمل وأن هذا البحث قد استحوذ عليه حتى إنه نسي أن يعد السنين التي كانت تمر. كل ما يعرفه، هو أنه قد وصل إلى السهل منذ خمس عشرة سنة، ليمهد الطريق السالك، ومنذ ذاك الوقت لم يخرج من السهل إطلاقًا.

كان رجلاً طويل القامة، بساقين هزيلتين جدًا وقد زرعتا في قدمين ضخمتين على شكل مضرب وانبسطتا واتسعتا لأنهما كانتا تغوصان كثيرًا في وحل مزارع الأرز وكان يمكن أن يأمل أن تحملاه ذات يوم على المياه ذاتها، لكن واأسفاه! لم يكن يحدث ذلك مع العريف. كان في بؤس كامل ومدقع، وحدث أن جاء ذات يوم إلى الأم ليطلب منها قصعة من الأرز كحسنة وقد عرض بالمقابل أن يحمل جذوع الأشجار طوال اليوم من الغابة حتى البيت الخشبي. منذ انتهاء العمل في الطريق حتى ذاك الصباح، أمضى العريف حياته ترافقه زوجته وابنة زوجته في البحث في السهل، وتحت الأكواخ،

وفي نفايات ضواحي القرى لإيجاد ما يأكلونه. كانوا طوال سنين قد ناموا تحت أكواخ بانتيه وهو كفْر تتبع له ملكية الأم. حين كانت زوجة العريف شابة كانت تعمل عاهرة في كل السهل مقابل بضعة قروش، أو بعض السمك الجاف، ولم يكن للعريف أي اعتراض على ذلك البتة. منذ خمس عشرة سنة وهو يجّر قدميه في السهل، لم يكن يعترض إلاّ على قليل من الأشياء. وعلى الجوع الشديد والطويل الأمد.

كان الأمر العظيم في حياته هو إنشاء الطريق الممهد. كان قد جاء لبنائه. وقيل له: "إنك أصم، عليك أن تذهب لبناء طريق رام". لقد الحقَ بالعمل منذ الأيام الأولى. كان العمل يقتصر على استصلاح الأرض، وردمها، ورصف الطريق ودقه بمدقات ذات أذرع تخط الدرب. لا شك انه كان عملاً شأنه شأن أي عمل آخر لو لم يكن قد تم من سجناء محكوم عليهم بالأشغال الشاقة يمثلون ثمانين بالمائة من العمال ويراقبهم حرس من السكان الأصليين كانوا في الأوقات العادية يعملون في حراسة سجن المستعمرة. كان هؤلاء السجناء، هؤلاء المجرمون العظام "المكتَشَفون" من البيض كما يُكتَشَف الفطر، كان محكومًا عليهم بالأشغال الشاقة مدى الحياة. لذا كانوا يجعلونهم يشتغلون ست عشرة ساعة يوميًا، وقد كُبِل كل واحد بالآخر، أربعة بأربعة، بصفوف متراصة. ويراقب كل صف حارس يلبس اللباس الرسمي ويدعى "حارسًا من السكان الأصليين للسكان الأصليين" يهبه البيض. كان هناك، إلى جانب السجناء، المتطوعون كالعريف.

إذا كانوا في البدء يميزون بين السجناء والمتطوعين فإن هذا الفرق راح يتضاءل بشكل غير ملحوظ أللهم إلاّ أن الفرق اقتصر على أن المساجين لم يكونوا يُطرَدون في حين كان المتطوعون يطردون، وأن السجناء كانوا يُطعمون وأن المتطوعين لم يكن يقدم لهم الطعام. كما كان للسجناء ميزة أخرى وهي أنهم بدون نساء في حين كان المتطوعون مع نسائهم اللواتي يتبعنهن وقد أقمن في خيام متنقلة، في مؤخرة الورشات، يلدن دائمًا وجائعات على الدوام. كان الحرس يحرصون على وجود متطوعين كي يستطيعوا الحصول على نساء في متناول أيديهم، حتى حين كانوا يشتغلون طوال أشهر في الغابة، على بعد كيلومترات من أول كفْر. على كل حال، كانت النساء، شأنهن شأن الرجال والأطفال، يمتن من الملاريا وفق إيقاع سريع كاف ليسمح للحرس (الذين كانوا يوزعون الكينا ليحموا بلا شك سلطتهم التي تتوطد يومًا بعد يوم، وتكبر في تصورهم) أن يغيروا النساء في أغلب الأحيان. لأن موت زوجة متطوع يسبب للزوج طرده الفوري.

هكذا، فإن لزوجة العريف أكبر الفضل، بالرغم من صمم زوجها، في بقائه في عمله. ولأنه منذ الأيام الأولى لانخراطه في العمل، وقد دفعته روح الحيلة والمراوغة التي لم يلجأ إليها حتى ذاك الوقت، إلى أن يدرك أن من مصلحته أن يندمج بقدر ما يستطيع بالسجناء بشكل يجعل الحراس ينسون عفويًا وضعه المؤقت باعتباره متطوعًا. بعد عدة أشهر، اعتاد هؤلاء عليه حتى راحوا يكبلونه مع

بقية السجناء دون أن ينتبهوا إلى ذلك، ويضربونه كما يضربون السجناء ولم يعودوا يفكرون البتة بصرفه وقد اعتبروه مجرمًا كبيرًا فعلاً. أثناء ذلك الوقت، كانت امرأة العريف، شأنها في ذلك شأن كل نساء المتطوعين، تلد الأطفال دون توقف، ودائما من نتاج الحرس وحدهم. كانت ساعات العمل الست عشرة في دق المدقات بالهراوة تحت شمس حارقة تمتص طاقة المتطوعين وكذلك السجناء في المبادرة، حتى تلك الطاقة الطبيعية. طفل واحد من بين الأطفال عاش منتصرًا على المجاعة والملاريا، إنها بنت، احتفظ بها العريف لديه. كم مرة طوال ست سنوات، ولدت امرأة العريف وسط الغابة، في جلجلة المدقات والفؤوس، وصراخ الحراس وفرقعة سياطهم لم تعد تذكر ذلك بشكل واضح. كل ما تعرفه هو أنها لم تنقطع البتة عن الحمل من الحرس وإن العريف هو الذي كان ينهض ليلاً ليحفر قبورًا صغيرة لأطفالها الموتى.

كان العريف يقول إنه قد ضُرب بقدر ما يمكن أن يُضرب الإنسان دون أن يموت، لكنه سواء ضُرب أم لم يُضرب، إبان إنشاء الطريق، فلقد كان يأكل يوميًا. حين انتهى تمهيد الطريق، اختلفت الأمور. فلقد عمل أو حاول القيام بكل المهن: من جامع للبهار، إلى حمال في مرفأ رام، إلى حطاب ثم مراقب الساحات، إلخ. إن الأعمال الوحيدة التي وجدها والتي استمرت بعض الوقت، كانت بسبب صممه، كانت أعمالاً يقوم بها الأطفال وحدهم. اشتغل حارسًا للجواميس، كما عمل خاصة، كل سنة، وقت الحصاد، كفزاعة لإخافة

الغربان في حقول الأرز الناضج. كانت قدماه في الماء، وجذعه عارٍ، ومعدته خاوية، تحت شمس حارقة، لسنوات طويلة كان يتأمل صورته البائسة وقد انعكست بين غرسات الأرز في مياه حقول الأرز الكامدة، حين كان يجتر جوعه الطويل. أمام كل ذاك البؤس، الكثير والكثير، صمدت رغبة واحدة من رغبات العريف القديمة، وهي أعظم رغبة له، هي أن يصبح مراقبًا في سيارات النقل الكبيرة بين رام وكام. لكن بالرغم من محاولات كثيرة مع السائقين، لم يَشْغله أحد بسبب صممه، الذي لا ينسجم مع هذا النوع من العمل. لم يقتصر الأمر على أنه لم يجد من يَشْغله، ولو على سبيل التجربة، لكنه لم يصعد البتة في إحدى تلك السيارات الكبيرة، التي تسير على الطريق الممهد بفضله. كل ما كان يعرف أنها تجري وهو ينظر إليها تمر متمايلة، تطن وترعد في السكون. منذ أن ألحقته الأم في خدمتها، كان جوزيف يأخذه في سيارة (B.12) حين كان يقوم بجولات طويلة إلى حد ما كي يؤمن احتياطي الماء من المستودع المثقوب. كان يربطه على رفراف السيارة ويعطيه مسقاة يمسكها العريف بيديه ويصبح حينذاك أسعد رجل في السهل، سعادة لم يكن يتصور أنها توجد في هذه الدنيا. لم يكن ينتظر تلك النزهات مطلقًا والتي كانت تتوقف على إرادة جوزيف لكنه راح فيما بعد يختلق حدوثها: حين كان جوزيف يخرج السيارة من تحت البيت الخشبي، كان العريف يحضر المسقاة، ويصعد على رفراف السيارة الأمامي، مكان المصباح الغائب ويربط نفسه بحبل يثبته على مقبض الغطاء.

حين كانت تسير السيارة، كان يرى الطريق الذي أمضى في إنشائه ست سنوات، وهو في اندهاش كامل، يجري بسرعة ستين كيلومترًا في الساعة.

كانت زوجة العريف وابنته، في الأوقات العادية، يدقان الأرز غير المقشور، ويطبخان الطعام، ويصطادان السمك، ويعتنيان بفناء الدواجن. أما العريف فلقد كان يساعد الأم في كل مبادراتها وأعمالها. كما كان يؤمن تشتيل الهكتارات الخمسة المرتفعة وكذلك حصادها، كما كان ينفذ كل نزوات الأم فيرصف الأرض، ويزرع، وينقل الشتلات، ويقلم، ويقتلع، ثم يزرع ثانية كل ما تريده. وفي الليل، حين كانت تكتب إلى مصلحة المساحة أو إلى المصرف أو تقوم بحساباتها، كانت تلزمه بالبقاء هناك حتى ذاك الوقت، وقد جلس أمامها على مائدة غرفة الطعام يؤيدها على الدوام بحضوره الصامت. كم من مرة، وقد اغتاظت من صممه، أرادت طرده لكنها لم تفعل ذلك على الإطلاق. كانت تقول إن غيظها بسبب ساقيه، اللتين لم تكن تتحمل في آن واحد رؤيتهما وطرده أيضًا. وبالفعل، فطالما قد ضُرب حتى إن جلد ساقيه كان أزرق ورقيقًا كنوع من القماش الرقيق جدًا والمعروف (بالإيتامين). فبسبب رجليه، وكذلك بسبب صممه الذي راح يزداد عامًا بعد عام، قد أبقته دائمًا في خدمتها، مهما ارتكب من أخطاء.

كان العريف الخادم الوحيد الباقي والذي يقيم عند الأم. إثر عودتهم من المدينة أعلنت له أنها لم تعد تستطيع أن تدفع أجره لكنها

تطعمه. قرر أن يبقى ولم تفتر حميته من ذلك. كان يعي بؤس الأم لكنه لم يكن يجد قياسًا مشتركًا بين بؤسه وبؤسها. كان الجميع يأكلون يوميًا عند الأم وينامون تحت سقف واحد. كان يعرف حق المعرفة قصتها وقصة الملكية. غالبًا ما روتها له الأم وهي تصرخ في حين كان يعزق أشجار الموز. لكن بالرغم من جهودها لتجد علاقة له بين مصيره هو، العريف المسكين، وبين استيلاء مصلحة الأراضي في رام على السهل، فلم تستطع مطلقًا أن تبرّئه من عدم فهمه الذي لا شفاء له: كان يقول إنه بائس، لأنه أصم وابن أصم، ولم يكن يحقد على أحد، ما عدا موظفي كام الذين سببوا للأم أضرارًا بالغة.

بعد عودتهم لم يكد يبقى للعريف أي عمل يقوم به. أهملت الأم أشجار الموز لديها ولم تعد تزرع شيئًا. كانت تنام طوال قسم كبير من النهار. لقد صار الجميع كسالى جدًا وراحوا ينامون حتى الظهر أحيانًا. كان العريف ينتظر صابرًا أن يستيقظوا ليحضر لهم الأرز والسمك. لم يعد جوزيف يصطاد إلاّ نادرًا. وقد يحدث أحيانًا، أن يطلق النار من الشرفة على طير مائي قد تاه فوصل إلى مشارف الغابة. حين ذاك كان العريف يستعيد الأمل فيركض ليأتي به إليه. لكن جوزيف لم يعد يصطاد ليلاً، والعريف الذي كان يجهل أن انتظار امرأة يمكن أن يمنع من الصيد كان يتساءل بلا شك أي مرض قد أصابه. مع ذلك فإن الأم كانت قد اشترت له حصانًا جديدًا بما تبقى لديها من المال، وأحيانًا كان جوزيف يقوم ثانية بنقل الركاب بعد الظهر. كان يفعل ذلك ليتمكن من شراء سجائر أميركية، من

الأغلى ثمنًا، من نوع ٥٥٥. أما باقي الوقت فلقد كان يُشغل فونوغراف السيد جو. لقد غير رأيه في الاسطوانات الانكليزية، ولم يعد يحب إلاَّ تلك الاسطوانات، ما عدا *رامونا*. كان ينام كثيرًا، أو يدخن سيجارة تلو الأخرى، وقد تمدد على سريره. كان ينتظر تلك المرأة.

كان العريف يستعيد الأمل، ليلاً. وبالفعل فإن الأم، وفق عادة قديمة، كانت تجري حسابات ومشاريع. وحتى قبل أن تطلب الملكية النهائية لأرضها، كانت تود أن تعرف إذا كان رهن عقاري جديد لأراضيها العليا يكفيها لتبني سدودًا جديدة، سدودًا " صغيرة " هذه المرة وتقوم وحدها بتلك المحاولة. كان العريف يسهر معها. أي أنها كانت تحسب بصوت عالٍ وكان يؤيدها دائمًا. كانت الأم تقول : " إذا سمعني، فإنني أكثر ثقة من أنه لن يفهم شيئًا، ولكن في الوضع الذي أنا فيه، من حسن الحظ أنه ما زال موجودًا معي. حدث في تلك الليالي أن كتبت آخر رسالة لها إلى موظفي مصلحة المساحة. كانت تقول إن ذلك لا يجدي نفعًا على الإطلاق، لكنها حرصت على القيام به للمرة الأخيرة. " إن سَبهم يريحني. " وللمرة الأولى حافظت على كلمتها: كانت تلك الرسالة آخر رسالة لها إلى موظفي كام. أما الشيء الجديد، فهو أنها بعد أن بعثت برسالتها، قررت أن تكف عن نشر البذار إلاَّ لتشتل الهكتارات الخمسة للأراضي العالية. حتى ذاك الوقت، وبالرغم من إخفاقاتها السنوية، كانت تزرع دائمًا قطعة الأرض الواقعة أبعد ما تكون عن البحر، على سبيل التجربة، وفق ما

تقول. حتى منذ سنتين، تابعت المحاولة، منذ سدودها. كان الأمر دائمًا أقرب إلى العبث لكنها استمرت في المكابرة. أما تلك السنة فلقد تخلت عن المحاولة. قررت أن البذار لا يجدي نفعًا. خاصة وأنه لم يعد لديها شيء من المال على الإطلاق.

هكذا، منذ إقامتهم في المدينة، قرروا أن يتصرفوا بتعقل وبدوا أنهم قد صمموا أن يعيشوا وضعهم بكل حقيقته وبلا زيف مألوف لأمل غبي. إن أمل الأم، الوحيد الذي وضعته في الأرض قد تضاءل حتى أصبح صغيرًا جدًا يكاد يخبو عاجلاً. كان يقتصر على تسلم خطاب ما من موظفي المساحة وفي حال عدم وصول الإجابة، أن تذهب إلى كام لتشتمهم للمرة الأخيرة.

كانت تقول: ـــــ إذا ما ذهبت إلى هناك، فسأقول لهم أشياء كثيرة وأنا واثقة من أنني سأقنعهم بالنسبة إلى الهكتارات الخمسة على الأقل.

إذا لم تعد تكتب إليهم بعد أن بعثت رسالتها الأخيرة، فلقد كانت تدون كل ليلة بلا نهاية الحجج والأسباب التي يجب أن تبرر طلبها إذا نجحت ذات يوم في الذهاب إلى كام. خلال فترة أملت قليلاً أن يعطيها جوزيف حصيلة النقل الذي يقوم به. طلبت منه ذلك. لكن جوزيف رفض بحجة أنه إذا لم يبقَ لديه ما يشتري به سجائره الفاخرة من النوع ٥٥٥ فسيرحل أسرع مما يعتقد. أطاعت الأم. حينذاك بدأت بشكل غير ملحوظ ترنو إلى فونوغراف السيد جو.

ـــــ ما العمل بفونوغرافين؟ ما الحاجة إلى اثنين في وضعنا الحالي؟

لم تكن سوزان ولا جوزيف يقترحان عليها أن يتكفلا ببيع الفونوغراف. على كل حال لن تستطيع سوزان ذلك. جوزيف وحده هو الذي يستطيع بيعه. ولقد كان من العسير معرفة إذا كانت الأم تدعي أنها تريد بيع الفونوغراف في محاولة أخيرة لتظهر سيطرتها على جوزيف وذلك بان تخرجه عن طوره أو أنها كانت تنوي حقًا الذهاب بالمال إلى كام خلال ثمانية أيام لتحث موظفي مصلحة المساحة. بدأت تتحدث شيئًا فشيئًا عنه كما لو كان الجميع موافقين على بيعه، أما الأمر الوحيد الذي بقي غامضًا فهو المهلة التي سيعطونها لأنفسهم ليُحرَموا من الفونوغراف.

كانت الأم تقول: ـــــ لم نفكر مطلقًا في ذلك، لكن لدينا هنا فونوغرافان بينما ليس لجوزيف حذاءان.

وبعد ثلاثة أيام راحت تخطط المستقبل بناءً على بيع الفونوغراف كما كانت قد فعلت بالنسبة إلى رهن الهكتارات الخمسة، وبالنسبة إلى خاتم السيد جو وبشكل أكثر شمولية ولأطول مدة بالنسبة إلى السدود.

ـــــ بالنسبة إلى وضعنا، فإن فونوغرافًا واحدًا كثير جدًا، أما اثنان، فلا أحد قد يصدق ذلك... وأقصى ما هنالك أن لا أحد قد فكر في ذلك مطلقًا...

لم تعد بعد ذلك تقول بدقة ماذا تنوي أن تفعل بالمال الذي سيجلبه بيع الفونوغراف. كانت تقول في البداية إن هذا المال سيسمح لها بالذهاب إلى كام "لتقول للموظفين أقسى الكلمات". لكنها تجاوزت ذلك بسرعة. راحت تردد أن الفونوغراف كان جميلاً حتى أنه يساوي وحده ثمن السيارة B.12، ونصف ثمن ترميم سقف البيت الخشبي، أو ثمن إقامة خمسة عشر يومًا في فندق (الهوتيل سنترال). لم تكن تصرح بذلك، لكن إقامة كهذه، ربما تسمح لها ببيع ماسة السيد جو.

أما جوزيف، فلم يكن له أي رأي في بيع الفونوغراف أو في أي شيء يوجد في ذاك الجزء من العالم. لم يكن مؤيدًا للبيع كما لم يكن معارضاً له. لكنه حدث ذات يوم، وقد سمع الأم تتحدث كثيرًا عن بيعه، أو ربما لأنه كان ضجرًا، أن قرر الذهاب إلى رام لبيعه. أثناء الغداء، قبل أن ينهضوا عن المائدة، أعلن:

ـــــ سأذهب لبيع الفونوغراف.

لم تجبه الأم لكنها نظرت إليه بعينين فزعتين. إذا وافق على بيع الفونوغراف، فذلك يعني أنه يستطيع الاستغناء عنه، وأن رحيله النهائي يقترب. هذا يعني أنه يعرف تاريخ ذاك الرحيل، وإنه يعرفه منذ عودته إلى فندق (الهوتيل سنترال).

أخذ جوزيف الفونوغراف، وضعه في كيس، ووضع الكيس في العربة وذهب في اتجاه رام دون أن يعطي أي كلمة يشرح فيها

الطريقة التي يفكر بها في بيعه. كان العريف الشخص الوحيد، الذي دُهِش، حين رأى تلك الآلة الغريبة ترحل دون أن يسمع منها أقل نغم.

هكذا غادر الفونوغراف البيت الخشبي دون أن يثير أية كلمة أسف من أي واحد منهم. عاد جوزيف مساءً بالكيس الفارغ وحين جلس على المائدة مد ورقة نقدية إلى الأم.

قال جوزيف: ـــ خذي، بعته لذاك النذل العجوز بارت، إنه يساوي ضعف ثمنه على الأقل لكنني لم أستطع أن أفعل غير ذلك.

أخذت الأم الورقة النقدية، وذهبت تضعها في غرفتها وعادت إلى غرفة الطعام. ثم قدمت الطعام وتم كل شيء كالمعتاد ما عدا أن الأم لم تأكل شيئًا. في نهاية العشاء أعلنت:

ـــ لن أذهب إلى كام لرؤية هؤلاء الكلاب في دائرة المساحة لأنني إذا ذهبت فستجري الأمور كما حدث مع المصارف، سأحتفظ بالمال.

قال جوزيف بعذوبة كبيرة: ـــ هذا أفضل ما تفعلينه.

كانت تبذل جهدًا لتتحدث بهدوء. كان جبينها قد غُطي بالعرق.

تابعت قائلة: ـــ لا جدوى على الإطلاق من الذهاب إلى كام، سأحتفظ بالمال لنفسي.

وفجأة، استغرقت في البكاء.

ـــــ لي وحدي، لمرة واحدة، لي وحدي.

وقف جوزيف وانتصب أمامها.

ـــــ اللعنة، ستعودين ثانية إلى البكاء. كان صوته عذبًا ومنخفضًا، كأنه يتحدث مع ذاته. كأن اليقين القطعي لرحيله، ولسعادته، كان لهما وجه آخر قاسٍ جدًا كانت الأم وابنتها تجهلانه. ربما كان هو أيضًا موضع رثاء. بدت الأم قد فوجئت بنبرة جوزيف التي كانت في منتهى العذوبة. نظرت إليه وقد وقف أمامها يحدق فيها بإلحاح، فهدأت فجأة.

سألت الأم: ـــــ لماذا بعت هذا الفونوغراف، يا جوزيف؟

ـــــ كي لا يبقى شيء للبيع. للتأكد من أنه لم يعد هناك شيء يُباع. لو كان بإمكاني أن أحرق البيت الخشبي لفعلت، اللعنة وكيف أحرقه!

قالت سوزان: ـــــ هناك السيارة B.12 كذلك.

سألت الأم: ـــــ من سيقود سيارة B.12؟

لكن جوزيف لم يجب.

تابعت سوزان بغتة: ـــــ هناك الخاتم معروض دائمًا للبيع، وإذا لم نذكره فليس ذلك يعني أننا لا نبيعه، لا يزال هناك على الدوام هذا الخاتم للبيع .

منذ عودتهم، كانت تلك المرة الأولى التي يتحدثون فيها عن موضوع الماسة. توقفت الأم عن البكاء وأخرجت الماسة من صدرها. منذ عودتها كانت تلبسها بخيط حول رقبتها بالقرب من مفتاح المستودع.

قالت بخبث: ــــ لا أدري لماذا أحتفظ بها،على الرغم من رخص ثمنها!

سألها جوزيف: ــــ قد يسألك سائل لمَ تضعين خاتمًا في عنقك؟ ألا تستطيعين أن تلبسيه في أصبعك، شأنك شأن كل الناس، أليس كذلك؟

قالت الأم: ــــ في تلك الحالة سأراه على الدوام، وهو يثير اشمئزازي إلى أقصى الحدود.

قالت سوزان: ــــ هذا ليس صحيحًا.

كان العريف قد جلس القرفصاء في زاوية من غرفة الطعام، فرأى الماسة للمرة الأولى. وبما أنه لم يفقه شيئًا بالطبع، فلقد تثاءب طويلاً. لم يشك أن تلك الماسة، كانت ثروتهم الوحيدة من الآن فصاعدًا.

قال جوزيف لسوزان: ــــ ذهبت إلى السينما، وأنا أقول في نفسي، سأذهب إلى السينما لأبحث عن امرأة. لقد مللت من كارمن، كان الأمر معها حين أضاجعها كأنني أضاجع أختًا إلى حد ما، خاصة تلك المرة. منذ فترة، قل شغفي بالسينما. وهذا ما أدركته بعد فترة

قصيرة من وصولنا إلى المدينة. حين كنت في السينما، كنت مسرورًا بذلك، لكن الصعوبة كانت في أن أقرر الذهاب إليها، لم أعد أذهب كما كنت أفعل في الماضي. كنت أحس أن لدي شيئًا أفضل أقوم به، كما لو كنت أضيع وقتي فيها ويجب أن لا أضيع وقتًا بعد الآن. ولكنني لم أكن أجد ما عليَّ أن أفعله بدلاً من الذهاب إلى السينما، كان الأمر ينتهي بي إلى الذهاب. هذا أيضًا، عليك أن تقوليه لها، إنني لم أعد أحب السينما كما كنت أحبها سابقًا. ربما في النهاية، حتى هي، سينتهي بي الأمر أن أحبها أقلّ مما كنت أحبها في الماضي. حين كنت في الصالة، كنت آمل دائمًا، حتى الدقيقة الأخيرة، أن أجد ما ينبغي عليَّ أن أفعل بدلاً من أن أكون هنا في الصالة، وإنني سأجد ذلك قبل أن يبدأ الفيلم لكنني لم أكن أجد شيئًا. وحين كانت تطفأ الأنوار، وتُضاء الشاشة، ويصمت كل الناس، حينذاك كنت على ما أنا عليه في الماضي، لم أعد أنتظر شيئًا، كنت سعيدًا. إنني أقول لك كل ذلك كي تتذكريني جيدًا وتتذكري ما قلته لك، حين سأرحل. حتى إذا ماتت. لا يمكنني التصرف بشكل مغاير.

"لقد أخطأت. فلقد التقيت بها في السينما. وصلت متأخرة، حين كانت الأنوار قد أطفئت. أود أن لا أنسى شيئًا وأن أقول لك كل شيء، كل شيء، لكنني لا أعرف إن كنت سأنجح في ذلك. لم أرها جيدًا فورًا:

"هيا، هذه امرأة، بالقرب مني." هذا كل ما قلته لنفسي، كالمعتاد. لم تكن وحدها. كان هناك رجل معها. كنا متلاصقين، هي

عن يمينه وأنا عن يسارها. لم يكن هناك أحد عن يساري، كنت في آخر مقعد في الصف. الآن لم أعد أعرف جيدًا، لكنه بدا لي أنني خلال الفيلم القصير في المقدمة، ربما خلال نصف ساعة، نسيتها. نسيت أن ثمة امرأة بالقرب مني. إنني أتذكر تمامًا أول الفيلم وأكاد لا أذكر النصف الثاني منه. حين أقول إنني قد نسيته، فذلك ليس صحيحًا تمامًا. ففي السينما لم أنسَ قط أن امرأة بجانبي، لا بد أن أقول إنها لم تمنعني من رؤية الفيلم. كم مضى من وقت على بداية الفيلم؟ أقول لك، ربما نصف ساعة. بما أنني لم أكن أعرف ما ينتظرني لم أنتبه كثيرًا إلى تلك التفاصيل وإني آسف لذلك لأنني منذ عودتي إلى هذا الماخور، هنا، أحاول أن أتذكر ذلك طوال الوقت. لكنني مهما حاولت، فلن أفلح.

"هكذا ابتدأت القصة. فجأة سمعت تنفسًا صاخبًا ومنتظمًا، قريبًا مني.انحنيت والتفتت إلى الصف، إلى مصدر الصوت. كان يأتي من الرجل الذي وصل معها. كان نائمًا، وقد انقلب رأسه على المقعد، وفمه شبه مفتوح. كان يغط في نوم كشخص منهك. رأت أنني أنظر فاستدارت نحوي مبتسمة. رأيت ابتسامتها على ضوء الشاشة. "دائمًا هكذا" قالت لي ذلك بصوت أقرب إلى العلو، بصوت عالٍ يكفي لإيقاظ الرجل. لكن الرجل لم يستيقظ. سألت: "دائمًا هكذا؟" أجابتني: "دائمًا. "حين ابتسمَت وجدتُها جميلةً أما صوتها بشكل خاص فلقد كان رائعًا. فورًا، حين سمعتها تقول "دائمًا" اشتهيت أن أضاجعها. لقد قالت تلك الكلمة كما لم أسمع أحدا يقولها على الإطلاق، كما لو أنني

لم أفهم البنة ماذا تعني قبل أن أسمعها تتلفظ بها. كما لو أنها قد قالت لي، بالضبط، لم يكن هناك أي فرق: " إنني أنتظرك منذ الأبد". تابعنا مشاهدة الفيلم أنا وهي. أنا الذي ابتدأت ثانية في التحدث معها: "لماذا؟ ـــ آه، لا شك لأن الفيلم لا يهم ذلك الرجل." لم أعد أعرف ما أقوله لها. خلال مدة كنت أبحث بمشقة حتى إنني كففت عن متابعة الفيلم تمامًا. ثم في نهاية الأمر سئمت من البحث وسألتها ما كان يهمني معرفته: "من هو هذا الشخص؟" حينئذ ضحكت كثيرًا، واستدارت نحوي استدارة كاملة، رأيت فمها، أسنانها، قلت في نفسي حين تخرج من السينما مع الشخص سأتبعهما. فكرت. ربما لم تكن واثقة من أن عليها أن تجيبني، ثم في النهاية قالتها: "إنه زوجي." قلت: "اللعنة إذن، هذا زوجك؟" بدا لي، زوجها، مثيرًا للاشمئزاز لأنه ينام في السينما بالقرب منها. حتى والدتي، العجوز وبالرغم من المصائب التي ألمت بها في حياتها لا تنام في السينما. بدلاً من أن تجيبني، سحبت علبة سجائر من حقيبة يدها. كانت سجائر ٥٥٥. قدمت لي واحدة وطلبت مني إشعالها. أيقنت فورًا أنها طلبت مني ذلك لتراني بشكل أفضل على ضوء عود الكبريت. هي أيضًا، اشتهت فورًا أن تضاجعني. دون أن أراها، ما إن طلبت مني إشعال سيجارتها حتى أدركت أنها امرأة أكبر مني سنًا، امرأة لا تخجل من أن تشتهي مضاجعة شخص. فجأة، راحت تتحدث بصوت منخفض كي لا توقظ الرجل. "ربما معك كبريت؟" في حين لم تكلف نفسها عناء المجازفة بإيقاظه. أشعلت عودًا وقربته منها. حينئذ رأيت يديها، وأصابعها

الطويلة والبراقة وأظافرها المطلية، الحمراء. رأيت كذلك عينيها: بدلاً من أن تحدق بالسيجارة حين كانت تشعلها، راحت تنظر إليَّ. كان فمها أحمر، حمرة أظافرها عينها. إن رؤيتهما مجتمعتين بذاك القرب قد أحدث صدمة فيَّ. كأنها قد جُرحت في أصابعها وفي فمها وكأنني أرى دماءها، أرى شيئًا ما داخل جسدها. حينذاك انتابتني رغبة عارمة في مضاجعتها وقلت في نفسي سأتبعهما حين خروجهما، بسيارة B.12 لأعرف أين يسكنان وإذا اقتضى الأمر فسأترقبها وأنتظرها طوال ما تبقى من إقامتي في المدينة. كانت عيناها تبرقان على ضوء الثقاب وطوال الوقت الذي اشتعل فيه كانتا تنظران إليَّ دون أدنى حرج. "إنك شاب صغير." قلت عمري عشرون عامًا. رحنا نتحدث بصوت منخفض جدًا. سألتني ماذا أعمل. شرحت لها أننا في رام، غارقون في المصائب حتى أعناقنا بسبب الأرض التي ورطونا بها. كان زوجها قد ذهب إلى الصيد في رام أما هي، فلم تكن تعرفها. إنها في المستعمرة منذ فترة قصيرة، منذ سنتين. وضعت يدي على يدها التي كانت منبسطة على ذراع المقعد. لم تبدِ أية ممانعة.

كان زوجها قد مكث هنا فترات أطول، أما هي فلم تأتِ لتلحق به إلاَّ منذ عامين. ابتدأت بوضع يدي على يدها. قبل أن تأتي عاشت سنتين في مستعمرة إنكليزية، لا أعرف ما هي. ثم بدأتُ بمداعبة يدها التي كانت حارة في الداخل وطرية في الخارج. كانت ضجرة في هذه المستعمرة، كثيرًا، كثيرًا. لماذا كانت تضجر؟ بسبب

عقلية الناس. فكرت بموظفي مصلحة المساحة في كام وقلت لها إن كل المستعمرين حثالة. أيدتني وهي تبتسم. لم أعد أرى شيئًا من الفيلم، وقد شُغلت بيدها التي راحت تصبح حارقة، شيئًا فشيئًا، في يدي. مع ذلك فإنني أتذكر أن رجلاً على الشاشة قد وقع، وقد أصيب في قلبه من شخص آخر كان ينتظر ذلك من بداية الفيلم. بدا لي أنني تعرفت على هذين الرجلين كما لو أنني كنت قد عرفتهما منذ زمن طويل. لم أشعر قط بأنني أمسكت بيد كتلك اليد في يدي. كانت نحيلة، كنت ألفها بإصبعين، كانت مرنة، مرنة، كزعنفة. على الشاشة راحت امرأة تبكي بسبب الرجل الميت. وقد استلقت فوقه، كانت تنتحب. لم نعد نستطيع أن نتحدث. لم يعد لدينا القوة. بهدوء، كانت يدها تغوص في يدي. كانت تلك اليد في منتهى العذوبة والأناقة حتى إن المرء يشتهي أن يُتلفها. لا شك أنني كنت أولمها. حين كنت أضمها بشدة كانت تبدي شيئًا من المقاومة. كان الشخص الذي في جانبها مستغرقًا في النوم. حين أجهشت بالبكاء على الرجل الميت.

قالت لي بصوت منخفض: "إنها نهاية الفيلم. ــــ إذن؟ ــــ هل أنت حر هذا المساء؟". كنت مستعدًا أن أفعل أي شيء من أجلها. طلبت مني أن أدعها تتصرف، وأنه لم يبقَ لي إلاَّ أن أتبعهما. لا أدري لماذا خانتني شجاعتي حينذاك. خفت من النور الذي سيُضاء، خفت من أن أراها بعد أن داعبت يدها بالشكل الذي فعلته، في الظلام. قلت في نفسي "سأهرب بسرعة". لا يمكنك أن تتصوري كم خفت. كان خوفي من النور، أجل كان ذلك مصدر خوفي، كأن النور

سيضع حدًا لوجودنا، أو يجعل كل شيء مستحيلاً. حتى أظن أنني تركت يدها، لا بل إنني متأكد من ذلك، لأنها استرجعتها مني: وضعتها على مسند المقعد ووضعت يدها بدورها على يدي. أخذتُها، وحاولت أن تغطيها، دون أن تنجح بالطبع في ذلك. كانت يدها كمقشطة مع ذلك ولم يعد بإمكاني الهرب. قلت في نفسي لا شك أنها معتادة على جمع الرجال، بتلك الطريقة، في صالات السينما وأن عليَّ أن أستسلم. عاد النور. سُحبت يدها. لم أجرؤ على النظر إليها في الحال. أما هي، فقد جرؤت، قامت بذلك، وأنا، وقد خفضت نظري، تركتها تنظر إليَّ. استيقظ الشخص فجأة حين كنا كلانا واقفين. كان أكبر منها سنًا بشيء يسير، كان أنيقًا، طويل القامة، ضخمًا. وجدته جميلاً إلى حد ما. كان يبدو لا مباليًا وفي حالة حسنة، ولم يكن يبدو متضايقًا لأنه نام. أنت تعرفين ذاك النوع من الرجال الذين نراهم يمرون على الطريق السهلي، بأقصى سرعة، يأتون في سيارات رائعة، ويطلبون برجًا للمراقبة، يمضون فيه ليلة، أي ما يكفي من الوقت لقتل نمر، ويصحبون معهم ثلاثين مراقبًا طلبوهم بالهاتف من الأب بارت، من فندق فخم من فنادق المدينة. قلت في نفسي: ها هو نوع الأشخاص الذي أراه. قالت المرأة "يا بيير، إن هذا الشاب صياد من رام. هل تعرف رام؟" فكر: "لا بد أنني ذهبت إلى هناك، منذ سنتين." شعرت أنني في أمان. "بيير، ما رأيك في أن نمضي معه السهرة؟ ـــ طبعًا." لا شك أنهما قالا لبعضهما شيئًا

آخر لكن بما أنهما كانت يتحدثان وقد أدارا ظهرهما لم أستطع سماع شيء. على كل حال لم أكن أرغب في سماعهما. خرجنا بتمهل من السينما، ونحن نتبع الحشد. كنت خلفها. كان جسمها منتصبًا، ضخمًا كذلك، وبخصر نحيل. كان شعرها قصيرًا وقد قُصَّ بشكل غريب، وبلون عادي.

"توقفنا بالقرب من سيارة رائعة مكشوفة من ماركة (Delage) بثماني أسطوانات. التفت الشخص نحوي قائلاً: "هل تصعد؟" قلت إن سيارتي معي وإنني سألحق بهما. كان لطيفًا. كان يبدو أنه قد وجد طبيعيًا أن أكون هناك. أما هي، في حينها، فلم تعد تعيرني أقل اهتمام كما لو كنا نعرف بعضنا منذ الأزل. قالت لي: "أين سيارتك؟ ربما يمكنك أن تتركها هنا، ونركب كلنا في سيارتنا." قبلت ذلك. قلت سأذهب لأصفها في ساحة المسرح لأن الوقوف أمام صالات السينما ممنوع بعد نهاية العرض. كانت سيارة (B.12) على بعد عدة أمتار من سيارتهما. حين رأى أنني ذاهب نحو (B.12) جاء الرجل لملاقاتي: "ويحك! هل هذه لك؟" أضاف أنه كان قد لاحظها حين وصل إلى السينما وأنه لم يرَ قط سيارة مثلها. جاءت تنضم إلينا دون أن تستعجل. قال الشخص "لقد لاحظت تلك السيارة". نظر إليها كلاهما، هو بجدية، أما هي فبمظهر حالم. كان بإمكانهما أن يسخرا منها، حقًا كان بإمكانهما ذلك لأن تلك السيارة قد بدت تعيسة جدًا بالقرب من سيارتهما الفخمة (Delage)، كانت كعلبة من المعلبات.

كلا، لم يضحكا منها. حتى إن الشخص قد بدا لي أكثر لطفًا بعد رؤية السيارة. صفقتها في ساحة المسرح، ولحقت بهما، ثم ذهبنا جميعًا في سيارتهما.

"هنا تبدأ أعجب ليلة في حياتي.

"جلست في المقدمة وأرادت أن تأتي هي أيضًا لتجلس بيننا. لم أكن أعرف أين نذهب ولا كيف سينتهي الأمر معها، بمجرد أنه كان هناك. لكنني كنت جالسًا بالقرب منها، كانت السيارة تجري، والشخص يقود بمهارة فائقة. قلت في نفسي عليَّ أن أستسلم. كنت ألبس بنطالاً قصيرًا وقميصًا، بخفين رياضيين أما هما فلقد كانا متأنقين، ولكن ذلك لم يضايقني لأنهما لم يلاحظا ثيابي على ما يبدو. كانا قد رأيا سيارتي ولا بد أن ذلك كان كافيًا ليفهما الباقي، مثلاً لم يكن عندي طقم. كانوا أناسًا يقدرون هذا النوع من الأمور.

"ما إن خرجنا من المدينة حتى ابتدأت أشتهيها. بدا الشخص مستعجلاً للوصول، لم أكن أعرف مطلقًا إلى أين. ازدادت سرعة قيادته للسيارة. لم يكن ينتبه إلينا البتة. شعرت بجسدها متشنجًا وقد التصق بي. كان ذراعاها متصالبتين، إحداهما حول كتفيها، والأخرى حول كتفيَّ. كانت الريح تلصق ثوبها على جسمها واستشففتُ شكل نهديها بدقة كما لو كانت شبه عارية. كانت تبدو حقًا قوية البنية. كان لها نهدان جميلان، عريضان، متماسكان. بعد أن خرجنا بفترة قصيرة من أضواء المدينة، أخذت كتفي وشدتها. ظننت حينذاك أنني

أنهال عليها دفعة واحدة، وأنني كنت في تمام الاستعداد لذلك. كنا نجري مسرعين، وكانت الريح قوية، كان يبدو كل شيء سهلاً، كما يحدث في السينما إلى حد ما. أمسكت ذراعي بيدها بكل قواها وحين تيقنت من أنني لن أحرك ساكنًا، سحبت ذراعها. تصرفت بتلك الطريقة طوال السهرة.

"توقفنا في أول نادٍ ليلي. قال الشخص" سنأخذ كأسًا من الويسكي. دخلنا إلى مشرب صغير يقع في طرف حديقة. كان ممتلئًا. ظننت أننا سنتعشى هناك. كانت الساعة العاشرة. طلب الشخص: "ثلاث كؤوس من الويسكي. ما إن ابتدأ الشرب وزاد منه، حتى راح اهتمامه بنا يتناقص تدريجيًا. حين رأيته يشرب كأسه من الويسكي بدأت أفهم. حين كنا نشرب كأسينا، كان قد طلب كأسين أخريين له وحده. شربهما بالتتابع الواحدة تلو الأخرى. أما نحن فلم نكن بعد قد أنهينا الكأس الأولى. كان ظمآن، شأنه شأن من لم يشرب منذ ثلاثة أيام. رأت أنني شُدهت وابتسمت لي. ثم قالت لي بصوت منخفض: "عليك أن لا تنتبه إلى ذلك، إن الشرب متعته." كان الرجل ظريفًا، لم يكن يكلف نفسه أي عناء ولا حتى التحدث، كان لا مباليًا، بها، بي، وبكل شيء، وكان يشرب بمتعة فائقة. كان كل الناس ينظرون إليه وهو يشرب، لم يكونوا يستطيعون أن يمتنعوا عن ذلك. كان الجميع ينظرون إليها كذلك. كانت جميلة جدًا. لقد تشعث شعرها بفعل الريح. كانت عيناها ذواتا لون فاتح جدًا، ربما كانتا رماديتين أو زرقاوين،

لا أدري. قد يظن المرء أنها عمياء أو بالأحرى، بعينين هكذا لم تكن ترى كل ما يراه الآخرون، ولكن ترى جزءًا من الأشياء فقط. حين لم تكن تنظر إليَّ، كانت تبدو لا ترى شيئًا. وحين كانت تنظر إليَّ، كان وجهها يُضيء فجأة، ثم ينخفض جفناها قليلاً كأن ذلك أكثر من أن تتحمله عيناها. حين نظرت إليَّ ونحن نغادر المشرب، أدركت أنني سأضاجعها في الليل، مهما حصل وأنها كانت تشتهي ذلك شهوة تعادل شهوة الشخص في الشراب.

"غادرنا المكان. لم نكن ننبس ببنت شفة اللهم إلاَّ حين كانت تقول له أحيانًا:"احذر ذاك المفرق"، أو كان يتأفف وحده من شدة حركة السير. اجتزنا ثانية قسمًا من المدينة وكان يتذمر كما لو كان مرغمًا على ذلك، ولقد أدركت بالتالي أنه كان في استطاعته تجنب ذلك تمامًا. وصلنا إلى مشرب آخر قرب المرفأ. تناول كأسين أُخريين من الويسكي أما نحن، فأخذ كل واحد منا كأسًا. مع ذلك، كانت ثالث كأس أشربها وابتدأت أحس بعض السكر. هي أيضًا كانت سكرى قليلاً. كانت تشرب بلذة. قلت في نفسي لاشك أنها تتبعه كل ليلة هكذا إلى كل النوادي الليلية، وأحيانًا مع شخص وجدته، لتشرب معه. قالت لي بصوت منخفض ونحن نخرج من المشرب: "يجب أن نتوقف نحن عن الشرب. ما علينا إلاَّ أن ندعه يشرب وحده." لا شك أنها كانت ترغب في مضاجعتي رغبة تتزايد. في اللحظة التي صعد فيها الشخص بصعوبة إلى السيارة انحنت عليَّ وقبلتني من فمي.

حينئذٍ شعرت بأنني سأطيح بالشخص، وآخذ المقود وأهرب معها. كنت أود أن أضاجعها فورًا. لا شك أنها حزرت ذلك للمرة الثانية، فدفعتني بقوة وقادتني نحو الباب.

"انطلقنا ثانية. ابتدأ الشخص يصبح ثملاً ولا شك أنه قد أدرك ذلك. راح يقود السيارة بسرعة أقل، وقد انتصب خلف المقود، ليرى الطريق بشكل أفضل، بدلاً من أن يستند بظهره على المقعد. اجتزنا المدينة مرة أخرى. اشتهيت أن أساله لماذا كان يقطعها هكذا، دون أن يتوقف، لكنني أعتقد أنه لم يكن يعرف السبب. ربما ليطوّل المسافة. وربما لم يكن يعرف الطرق الأخرى، كما لم يكن يعرف من المستعمرة إلاّ وسط المدينة والمشارب المحيطة به. بدأ ذلك يضايقني بهدوء وخاصة إنه راح يقود فعلاً ببطء شديد. ثم إننا كنا تحت رحمته، هكذا كان يتصرف دون أن يسألنا إن كان ذلك يروق لنا، كان يطلب لنا كؤوس ويسكي بالصودا، لمجرد أنه هو، يحب ذلك. توقفنا في مشرب ثالث. طلب هذه المرة ثلاث كؤوس من مشروب (المارتيل) وكذلك دون أن يسألنا إن كنا نحب أن نشرب هذا النوع من المشروب. قلت: "لقد مللت، يمكنك أن تشرب كأسي من (المارتيل). لقد اشتهيت أن أضربه. كانت قد مضت ساعة على تركنا سينما عدن ولم أكن أرى حقًا متى سيتوقف الأمر. قال الشخص: "أعذرني، كان عليَّ أن أسالك ما تحب أن تشرب." أخذ كأسي من (المارتيل) وأفرغها كلها في جوفه. قلت أيضًا:" ثم إنني أتساءل لماذا لا تشربها كلها في مشرب واحد." قال: "أنت طفل، لا تفقه شيئًا من

ذلك". تلك هي الجملة الأخيرة ذات المعنى التي قالها. شرب بعد ذلك كأسين من (المارتيل) بعد أن شرب كأسي. ثم بعد ذلك، انحنى ظهره وتكور ببطء على ذاته. كان ينتظر، وقد جلس على مقعد المشرب. بدا في منتهى السعادة. طلبت من المرأة أن تغادر معي المكان وتتركه. أجابت أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك لأنها لم تكن تعرف جيدًا أصحاب ذاك المشرب كما أنها لم تكن واثقة من أنهم سيعيدونه إلى بيته صباح اليوم التالي. ألححت عليها. لكنها رفضت. بالرغم من رغبتها المتزايدة بمضاجعتي. بدا الأمر جليًا كأنه مكتوب على وجهها. ذهبَتْ نحوه، وهزته برفق وذكرته أننا لم نتعشَ بعد، وأن الساعة تقترب من الحادية عشرة. أخذ ورقة نقدية من جيبه، ووضعها على المشرب ودون

أن ينتظر أن يعيدوا له الباقي نهض وخرجنا.

"حينذاك بدأ يسير ببطء شديد. كانت تدله على الطريق، أين يجب أن يدور، أي طريق يسلك. كنا نسير كأننا في شراب سُكَري. وبينما كانت تدله على الطريق، رفعتُ ثوبها وببطء رحتُ أداعب جسمها كله. تركتني أفعل. لم يكن الشخص يرى شيئًا. كان يقود السيارة. كان ذلك رائعًا، كنت أداعبها، هناك، تحت أنفه ولم يكن يرى شيئًا. وأظن أنه حتى لو رأى، سأتابع مداعبتها لأنه لو قال شيئًا ما لكنت استَغْلَلْت ذلك كي أطيح به من السيارة. وصلنا إلى ملهى، نوع من بيت خشبي عالٍ فوق أوتاد، حيث الرقص والعشاء. كانت حلبة الرقص من جهة. من الجهة الأخرى، كان هنالك مقصورات

للعشاء. صفّ السيارة تحت البيت الخشبي وصعدنا. كانت تسنده وتساعده على صعود الدرجات. كان ثملاً تمامًا. بدت تحت النور منهارة ومنهكة. أما أنا فلقد كنت أعرف السبب، لأنها كانت تشتهي مضاجعتي بقوة وبسبب ما فعلته لها في السيارة. ما إن رأيت الناس ينظرون إلينا بمظهر غريب وقد بدوا يسخرون منه، حتى توقفت رغبتي في الإطاحة به. كنت معه ضد العالم بأسره ما عداها. وفي الوقت ذاته كنت ضجرًا، لا يمكن أن تعرفي إلى أية درجة. كانت في منتهى اللطف معه، أما هو فلقد كان بطيئًا، بطيئًا، كان قد مضى ثلاثة أرباع الساعة على مغادرتنا المشرب الثالث. وكنت أداعبها طوال ذاك الوقت. كانت مداعبتي لا تتوقف. اختارت مقصورة تشرف على حلبة الرقص، من الطرف المعاكس من المدخل. تهالك على المقعد، وقد ارتاح بشكل رائع لتوقفه عن القيادة، وعن عمل أي شيء، حتى عن المشي. تساءلتُ خلال ثانية ما أنا فاعل هنا، مع هؤلاء الناس لكن لم يكن في استطاعتي أن أتركها. مع ذلك فلقد كانت تغيظني لأنها كانت في منتهى الرقة معه، وفي منتهى الصبر، أما هو فلقد كان بطيئًا جدًا، في منتهى البطء. كنا نتقدم واحدنا نحو الآخر كأننا غرقى في ذاك الشراب السُكري، لا نخرج منه. منذ ساعتين، منذ سينما عدن، وأنا ابحث عنها في نفق كانت تقف في نهايته وتناديني بعينيها، بنهديها، بفمها، دون أن أستطيع الوصول إليها. عُزفت أغنية *رامونا*. حينذاك، فجأة اشتهيت أن أتحرك، أن أرقص. أظن أنه لو لم يكن أحد في الحلبة لرقصت وحدي على لحن

رامونا. كنت أعتقد حتى ذلك الوقت أنني لا أجيد الرقص وفجأة أصبحت راقصًا. ربما قد أتوصل إلى الرقص على حبل قاسٍ. كان عليَّ أن أرقص أو أن أطيح بالشخص. وفي الحقيقة، إن *رامونا*، في بعض الحالات، أجمل بكثير مما نظن. نهضت. ودعوت إلى الرقص أول واحدة كانت هناك. كانت شابة قصيرة القامة، جميلة. كنت وأنا ارقص، أشتهي الأخرى بعنف حتى إنني لم أكن أشعر بالشابة القصيرة بين ذراعيَّ. كنت أرقص وحدي، وبين ذراعيَّ، امرأة من ريش. حين عدت إلى المقصورة أدركت أنني كنت ثملاً جدًا. كانت عيناها الواسعتان، تلمعان، وهي تحدق فيَّ. قالت لي فيما بعد: " حين رأيتك ترقص مع أخرى، صرخت لكنك لم تسمع. " فهمت أنها كانت متضايقة، وربما تعيسة، لكنني لم أعرف السبب. ظننت أن ذلك بسببه، وأنه ربما، حين كنت أرقص، قد قال لها شيئًا ما، قد لامها. كان على الطاولة ثلاث بيضات بصلصة المايونيز. أخذ الشخص بيضة كاملة بشوكته، ووضعها كلها في فمه ومضغها. كانت البيضة تسيل من فمه، على شكل جداول، حتى ذقنه لكنه لم يكن يشعر بها. أخذت واحدة لي، مثله، كاملة، وقد غرزت الشوكة داخلها، ووضعتها كلها في فمي كما فعل هو. أخذت تضحك. كما راح الشخص يضحك بقدر ما بقي في أستطاعته، ولقد تم ذلك كما لو كنا ثلاثتنا يعرف بعضنا بعضًا، منذ الأمد. قال الشخص ببطء وقد امتلأ فمه بالبيض: "هذا الشخص يعجبني." وطلب زجاجة شمبانيا. منذ مراقصتي للشابة القصيرة، بدت كأنها قد صممت على شيء. فهمت ماذا تريد حين

وصلت زجاجة الشمبانيا، وذلك من الطريقة التي صببت له منها. ملأت كأسه حتى الحافة، والزجاجة في يدها انتظرت أن يشرب الكأس. تهالك على شربها. حينئذٍ صببت كأسًا لنفسها، وكأسا لي وصببت له كأسًا ثانية. ثم انتظرت مرة أخرى والزجاجة في يدها، أن ينتهي من شرب الكأس الثانية. ثم صببت له كأسًا أخرى، هذه المرة، له وحده. أربع مرات متتالية. كنت أنظر إليها دون أن أبدي أقل حركة. أدركت أن الوقت قد اقترب حيث سنكون وحدنا تمامًا.

"أحضروا ثلاث سمكات مقلية من نوع سمك الموسى مع شرائح من الليمون فوقها. لا بد أنها كانت مع البيض بالمايونيز كل ما يقدم لنا. كان منتصف الليل. كانت الصالات ممتلئة لدرجة أنه لم يعد يُقدمَ إلاً المشروب. أكل الشخص نصف سمكته ثم استغرق في النوم. شربت كأسي من الشمبانيا وطلبت منها كأسًا أخرى. أكلت سمكتي كاملة وكذلك سمكتها التي أعطتني إياها. منذ بداية حياتي لم أشعر بجوع كهذا ولا بظمأ كالذي شعرت به ولا بشهوة إلى امرأة كالتي أحسستها نحوها.

"فجأة اتسعت عيناها وراحت يداها ترتجفان قليلاً. نهضت ثانية، وانحنت من فوق الطاولة التي كان عليها رأس الشخص وتبادلنا القبلات. حين انتصبت واقفة كانت شفتاها قد شحبتا وبقي في فمي طعم اللوز الخاص بأحمر شفتيها. استمرت ترتجف. وبقي الشخص مستغرقًا في النوم.

"انحنينا وأخذت فمها. قالت: "ينظرون إلينا". كنت لا مباليًا.

"بدأ الشخص بالاستيقاظ. كان يمكن استشفاف وقت استيقاظه: كان يدمدم ويهتز بكل جسده، كان لدينا بعض من الوقت لننفصل قبل أن يرفع رأسه. "ماذا نفعل هنا؟" أجابته بعذوبة كبيرة: "لا تقلق، يا بيير، إنك تقلق دائمًا." شرب وعاد إلى النوم. انحنينا وتبادلنا القبلات من فوق الطاولة، من فوق رأسه الضخم ذي العينين المطبقتين. أي أنه ما دام نائمًا، بقينا فمًا بفم دون أن نستطيع أن ننفصل. لم يكن يتلامس منا سوى فمينا. استمرت ترتجف. حتى فمها الذي في فمي بقي يرتجف. استيقظ قائلاً: "لو كان لدينا على الأقل شيء نشربه." كان يتحدث بصوت بطيء جدًا، مخدر. صببت له كأسًا من الشمبانيا. بالفعل لقد كان ثملاً تمامًا وحين كان نائمًا كان يبدو كأنه يرتاح من ألم رائع، من ألم ينام معه في الوقت ذاته ويعود ذاك الألم حالما يفتح عينيه. تساءلت إن كان لا يشك فيما نفعل. لكنني لا أظن ذلك، أعتقد أن ما ليس له طاقة على احتماله هو أن يستيقظ، وإن ما كان يزعجه هو رؤية الأنوار ثانية، وسماع الفرقة الموسيقية ومشاهدة الناس يرقصون في الحلبة. نهض، وفتح عينيه مدة عشر ثوانٍ، ووبخ بصوت واهن لا نعرف من واستغرق في النوم وقد وقع رأسه على الطاولة. "يا بيير، أنت مرتاح هنا. ماذا تريد أكثر من ذلك؟ نم ولا تقلق. "ربما ابتسم حينذاك: "أنت محقة يا لينا، إنك لطيفة." كانت تدعى لينا، وهو الذي أعلمني ذلك. كانت تحدثه برقة فائقة. إنني أعتقد الآن وقد عرفتها، أنها لم تكن تفعل ذلك لكي نستطيع أن نتبادل

القبلات بطمأنينة لكن لأنها تَكُنُّ له مودة كبيرة وربما بعض الحب كذلك. كل مرة كان يحاول فيها أن يستيقظ تصب له الشمبانيا في كأسه. فيبتلعها. كانت الشمبانيا تنفذ إليه كأنه رمل. لم يكن يشرب، كان يصب الشمبانيا في جسمه. ويقع ثانية. كانت تنحني ونتبادل القبلات. لم تعد ترتجف. كانت شعثاء الشعر، شاحبة الوجه، لم تكن جميلة إلاَّ بالنسبة إليَّ وحدي أنا الذي أكلت أحمر شفتيها وعبثت بشعرها. كانت مفعمة بسعادة رائعة، لا تدري ما تفعل بها، وكانت تبدو وقحة. كان الشخص يتذمر. افترقنا. نهض الشخص قائلاً: "كنت أود كأسًا من الويسكي." قالت له، وإنني أتذكر ذلك جيدًا: "أنت تطلب دائمًا المستحيل، يا بيير. لا أعرف أين الخادم. عليَّ أن أذهب للبحث عنه." أجاب الشخص: "لا تزعجي نفسك يا لينا، إنني نذل." كان الناس ينظرون إلينا. لا أظن أن أحدًا قد ضحك منا. إن الذين كانوا على طاولة مجاورة لطاولتنا حيث الصغيرة التي رقصت معها قد توقفوا عن تبادل الحديث فيما بينهم ولم يكفوا عن النظر إلينا.

"شعر الشخص برغبة في التبول. نهض بمشقة. أخذته من ذراعه وساعدته على اجتياز الصالة بكاملها. كان يصرخ وهو يقطع الصالة. "يا للفوضى!" بصوتٍ عالٍ جدًا يُسمع من خلال ضجة الفرقة الموسيقية. كانت تهمس في أذنه. لاشك أنها كانت تهدئه. أثناء غيابهما احتسيت عدة كؤوس من الشمبانيا، ربما أربعًا، لم أعد أعرف. كنت ظمآن جدًا لكثرة ما قبلتها. وكنت أشتهيها بقوة كبيرة حتى إنني كنت أتلظى.

"هناك، وأنا وحدي، قلت في نفسي إنني على وشك أن أتغير إلى الأبد. نظرت إلى يديَّ فلم أتعرف عليهما: لقد نبت لي يدان أخريان وذراعان أخريان يختلفان عما كانت لي حتى ذاك الوقت. حقًا لم أعد أعرف ذاتي. بدا لي أنني أصبحت ذكيًا في ليلة واحدة، وأنني افهم أخيرًا كل الأشياء المهمة التي كنت قد لاحظتها حتى ذاك الحين دون أن أفهمها حقًا. بالطبع، لم أكن أعرف قط أناسًا مثلهم. ولكن ليس بسببهما تمامًا. كنت أعرف حق المعرفة أنهما إذا كانا حرين تمامًا، مفعمين بالحرية، فلأنهما كانا يملكان مالاً وفيرًا. كلا، ليس بسببهما. أعتقد أن السبب هو أنني كنت قد اشتهيت أولاً امرأة كما لم أشتهِ أية امرأة حتى الآن، ثم لأنني شربت وكنت ثملاً. كل ذاك الذكاء الذي شعرت به، لا بد أنه كان فيَّ منذ زمن طويل. وكان هذا المزيج من الكحول ومن الرغبة هو الذي أخرجه. كانت تلك الشهوة هي التي جعلتني أستهتر بكل المشاعر، وحتى بذاك الشعور الذي يكنه الإنسان لأمه والذي جعلني أدرك أنه لم يعد هناك ما يجعلني أخاف منها، لأنني، وهذا ما حدث، حتى ذاك الوقت، كنت أظن أنني في الواقع أغرق في الشعور حتى عنقي وخفت من ذلك. إن الكحول هو الذي كشف لي تلك البداهة: كنت رجلاً قاسيًا. كنت أعد نفسي دائمًا لأكون رجلاً قاسيًا، رجلاً يترك أمه ذات يوم ويرحل ليتعلم العيش، بعيدًا عنها، في مدينة ما. لكنني كنت أخجل من ذلك حتى ذاك الحين أما الآن فلقد أدركت أن ذاك الرجل القاسي كان هو

المحق. أتذكر أنني قد فكرت إذا ما غادرتها فسأتركها إلى موظفي كام. فكرت في موظفي كام. قلت في ذاتي يجب عليَّ أن أعرفهم عن قرب شديد. يجب عليَّ ذات يوم ألا أكتفي بمعرفتهم كما عرفتهم في السهل، بأعمالهم الدنيئة، لكنني يجب أن أدخل في حيلهم وألاعيبهم، أن أعرف تلك النذالة دون المعاناة منها وأن أحتفظ بكل الشر الذي في أعماقي كي أحسن الفتك بهم. إن فكرة العودة إلى السهل قد عاودتني... إنني أتذكر، لقد أقسمت بصوت عالٍ، كي أكون متأكدًا من أنني هو الرجل الذي كنته هناك وقلت في نفسي إن الأمور قد انتهت. فكرت فيك، فكرت فيها، وقلت في نفسي لقد صفيت أموري معك ومعها. لم أعد أستطيع أن أصبح طفلاً من جديد، حتى ولو ماتت، قلت في نفسي، حتى إذا ماتت، فسأرحل.

"لقد عادا. كانت تمسك ذراعه، أما هو، فلقد هده الجهد الذي قام به ليقطع الصالة ثانية، راح يترنح. لو كان أحد قد سخر به أو قال شيئًا ما ضده لكسرْتُ فكه. شعرت بأنني أقرب منه بكثير ، هو الذي كان في منتهى الحرية وإن كان ثملاً ، بالنسبة إلى كل الذين كانوا هناك ولم يسكروا. بدا كل الناس سعداء ما عداه. أما هي، التي أسكرته كي نكون هانئين في تبادل القبلات، فقد كانت تسنده بكل تلك الرقة والتفهم كما لو كان ضحية الآخرين، هؤلاء الذين لم يكونوا سكارى. حين عادت، رأت في الحال أن الزجاجة فارغة، نهضت وذهبت تطلب من الخادم الذي كان في الطرف الآخر للمرقص أن

يحضر زجاجة أخرى. تأخر الخادم في المجيء. عادت ترتجف ثانية. كانت تخشى أن يصحو من سكره. ذهبت أبحث عن الخادم. كنت أمشي كأنني على قطن. أتيت بزجاجة مشروب.

أدركت الآن أن الوقت قد دنا. أعطته ثانية ثلاث كؤوس من الشمبانيا. عاد إلى النوم فأيقظته لتسقيه. كانت اللحظة تزداد اقترابًا. بعد أن شرب، وقع ثانية على الطاولة. قلت: "هيا نغادر المكان. أجابت: ـــ إذا لم يستيقظ خلال عشر دقائق، فسنرحل". حينئذ قلت لها: ـــ إذا استيقظ فسأطيح به في الهواء". لكنه يستحيل أن يستيقظ بعد الآن. أعتقد أنه لو استيقظ لانقضضت فعلاً عليه، لأننا كنا قد وصلنا إلى أقصى ما يمكن أن نقوم به، لشخص آخر غيرنا. حين تأكدتْ من أنه لن يستيقظ أخذته من كتفيه وجرته إلى المقعد الطويل كي يكون مستلقيًا. ثم فتحت سترته وأخذت حافظة نقوده. بعد ذلك وقفت ونادت الخادم. لم يأتِ الخادم. وجب أن أذهب لأبحث عنه ثانية. قالت له: "دعه ينام، حين يستيقظ تحضر له سيارة أجرة. هذا هو العنوان الذي ستعطيه للسائق". أعطته مالاً وبطاقة العنوان. رفض الخادم المال وقال إنه يجب أن تطلب ذلك من رئيس الخدم، وهو لا يعرف إن كان يستطيع أن يبقى هنا مستلقيًا على المقعد حتى نهاية السهرة، بينما هناك كثير من الزبائن ينتظرون للحصول على طاولة. لم نستطع أن نفعل شيئًا مع ذاك الخادم، لم نستطع أن نرغمه على تلبية طلبنا. كان علينا أن ننتظر بعض الوقت كي يذهب للبحث عن رئيس الخدم. قال رئيس الخدم: "المكان مكتظ، لا يمكنه أن

يحتفظ له وحده بالطاولة." ظننت أنها على وشك أنْ تبكي. أما أنا، فلقد بدأت أشعر برئيس الخدم بين يديَّ، رقبته، أحسستها بين أصابعي. أخرجَتْ كثيرًا من الأوراق النقدية من محفظته: "أدفع لك الطاولة لكل الليل." وضعت كثيرًا من الأوراق النقدية في يد رئيس الخدم. فقبل. ألقت نظرة أخيرة على الشخص ونزلنا. ما إن صرنا في السيارة تحت البيت الخشبي، حتى دفعتها على الكرسي الخلفي وضاجعتها. كانت الفرقة الموسيقية تعزف فوق رأسينا وكنا نسمع وطء أقدام الراقصين. بعد ذلك أخذتُ مقود سيارة (Delage) وذهبنا إلى فندق دلتني عليه. بقينا فيه ثمانية أيام.

"طلبت مني ذات مساء أن أروي لها قصةَ حياتي ولماذا غادرنا السهل. حدثتها عن الماسة. طلبت مني أن أذهب فورًا لإحضارها لأنها تشتريها مني. حين رجعت إلى فندق (الهوتيل سنترال) لأصطحبكما وجدتها في جيبي."

كان رحيل جوزيف يقترب. كانت الأم تذهب أحيانًا لتجد سوزان في قلب الليل ولتتحدث إليها. أخيرًا من شدة تفكيرها في رحيله، راحت تتساءل إن لم يكن الحل في ذلك.

كانت الأم تقول:ـــ لا أرى كيف أمنعه من الرحيل، أعتقد أنه ليس لي الحق في ذلك لأنني لا أدري كيف ينجوْ بطريقة أخرى.

لم تكن تتطرق إلى هذا الموضوع مع سوزان إلاَّ في الليل فقط. بعد ساعات أمضتها تقوم بحساباتها وحدها مع العريف، كانت

تجد الشجاعة للتحدث عن جوزيف. أثناء النهار ربما كانت لا تزال تغرق في أوهامها أما في منتصف الليل، فلا، حيث تصبح واضحة الرؤية ويمكنها أن تتحدث بهدوء في هذا الموضوع.

كانت تقول: ـــ إذا كان حاقدًا عليَّ، فمعه حق. إن أفضل ما يمكن أن يحدث لكما هو أن أموت. سترأف مصلحة المساحة بكما. فتعطيكما نهائيًا امتياز ملكية الهكتارات الخمسة. يمكنكما بيعها والرحيل

كانت سوزان تسأل: ـــ الرحيل إلى أين؟

ـــ إلى المدينة. ربما يجد جوزيف عملاً. أما أنت فتذهبين عند كارمن بانتظار أن تجدي زوجًا.

لم تكن سوزان تجيب. كانت الأم تكاد تذهب فورًا بعد أن تكون قد أفلتت دائمًا تلك الكلمات ذاتها. بالطبع إن ما تقوله لم يكن ذا أهمية بالنسبة إلى سوزان. لقد بدت لها كما لم تبدُ حتى الآن على ذلك القدر من الكهولة والجنون. كان اقتراب رحيل جوزيف يبعدها، بمخاوفها ووساوسها، إلى ماضٍ بلا أهمية. كان جوزيف وحده يهمها. ما وقع لجوزيف. قلّما كانت سوزان تفارقه منذ عودتهم إلى السهل. حين كان يذهب إلى رام بالعربة، كان يصطحبها معه في أغلب الأحيان. إلاّ أنه، منذ أن روى لها قصته، أي منذ الأيام الأولى التي تلت عودتهم، كان قليل التحدث معها. ولكن مهما كان قليل التحدث معها فلقد كان مع ذلك يتحدث إليها أكثر بكثير مما يتحدث

إلى أمه، وقد بدا أنه لم تعد لديه الشجاعة ليوجه الحديث إليها. ما يقوله لم يكن يقتضي أي جواب. كان يتحدث لمجرد أنه لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبته في التحدث عن تلك المرأة. لم يكن يدور الموضوع في معظم الأحيان إلاَّ عنها. لم يكن يتخيل قط أن بإمكان المرء أن يكون سعيدًا بذاك الشكل مع امرأة. كان يقول عن كل اللواتي عرفهن قبلها لا أهمية لهن على الإطلاق. وإنه متأكد أنه يستطيع أن يبقى في السرير معها أيامًا وأيامًا. وإنهما قد بقيا ثلاثة أيام بكاملها يتطارحان الغرام لا يأكلان إلاَّ النزر اليسير وإنهما قد نسيا كل ما يحيط بهما. ما عداه هو، لم ينسَ الأم. وهذا السبب هو الذي جعله يرجع إلى فندق (الهوتيل سنترال) وليس الحاجة إلى المال.

حدث إبان رحلة إلى رام أن أقر جوزيف لسوزان بأن المرأة ستأتي لأخذه. إنه هو الذي طلب منها أن تنتظر خمسة عشر يومًا قبل أن تأتي. لم يكن يعرف أن يقول لماذا على وجه الدقة: " ربما كنت أشتهي أن أرى تلك الفوضى للمرة الأخيرة، كي أكون متأكدًا من قراري. " الآن لم تعد تستطيع أن تتأخر. كان قد فكر فيما سيحل بهما بعد رحيله من السهل. لقد فكر في ذلك طويلاً. لم يكن يرى بالنسبة إلى الأم مستقبلاً ممكنًا خارج الملكية. كان نقيصة لا شفاء منها: "إنني متأكد من أنها كل ليلة ستبني من جديد سدودها على الباسفيك. مع فرق واحد وهو أن تلك السدود قد تعلو مئة متر أو مترين، وذلك يتوقف على مدى صحتها إذا كانت جيدة أو سيئة. ولكن سواء أكانت

صغيرة أم كبيرة، فإنها ستعيد بناءها كل ليلة. إنها فكرة في منتهى الجمال." لا يمكنه أن ينساها على الإطلاق حسب ما يدعي. لا يمكنه أن ينساها هي البتة، أو بالأحرى أن ينسى ما قد عانت.

ـــــ كأنني أنسى من أنا، وهذا مستحيل.

لم يعد يظن أنها تستطيع العيش بعد الآن طويلاً ولكن على خلاف الماضي كان يعتقد أن لا أهمية كبيرة لذلك. حين يشتهي أحد ما بقدر كبير أن يموت يجب ألاّ نمنعه من ذلك. ما دام يعرف أن الأم ما زالت على قيد الحياة فلن يستطيع أن يقوم بعمل مُجدٍ في الحياة، لا يمكنه أن يفعل شيئًا ما. كلما كان يضاجع تلك المرأة كان يفكر فيها، تذكر أنها هي لم تضاجع أحدًا منذ وفاة والدهما لأنها كانت تظن، كبلهاء، أن لا حق لها في ذلك، كي يستطيعا هما أن يفعلاه ذات يوم. روى لها أنها قد أحبت حبًا كبيرًا موظفًا في سينما عدن طوال سنتين، هي التي روت له ذلك، ولكنها لم تضاجعه ولا مرة واحدة ودائمًا بسببهما. حدثها عن سينما عدن. والهول الذي عانته الأم هناك طوال السنوات العشر وهي تعزف على البيانو. كان يتذكر كل ذلك أفضل منها لأنه كان أكبر سنًا. ولأنها هي ذاتها قد حدثته بذلك أحيانًا.

اضطرت الأم أن تسترجع فجأة عزفها على البيانو حين عُرضت عليها وظيفة عازف في سينما عدن. لم تكن قد عزفت منذ عشر سنوات، منذ تخرجها في مدرسة إعداد المعلمين. قالت له:

"إنني أبكي أحيانًا من رؤية يديَّ قد صارتا في هذا الغباء أمام التوزيعات الموسيقية، حتى إنني كنت أشتهي أحيانًا أن أصرخ، وأن أبتعد، وأن أغلق البيانو." لكن رويدًا رويدًا عادت المرونة إلى يديها. لا سيما أن التوزيعات الموسيقية ذاتها كانت تعزف دائمًا بلا تغيير وأن مدير سينما عدن قد سمح لها أن تتدرب صباحًا. كانت تعيش في هوس مخافة أن يستغنوا عنها. وإذا كانت قد اعتادت أن تصحب معها طفليها ، فليس لأنها لم تكن تجرؤ على أن تتركهما وحدهما في البيت فقط ولكن كي ترأف الإدارة بمصيرها. كانت تصل قبل العرض بقليل، وتضع أغطية على مقعدين، من كل جهة من البيانو وتمدد طفليها عليهما. كان جوزيف يتذكر ذلك جيدًا. ولقد انتشر الخبر سريعًا، وبينما كانت الصالة تمتلئ، كان المشاهدون يأتون بالقرب من مكان البيانو المنخفض ليروا طفلي الموسيقية ينامان. أصبح ذلك بسرعة ضربًا من التسلية لم تستأ الإدارة منه. كانت الأم تقول لجوزيف: "لأنكما كنتما جميلين جدًا، كان الناس يأتون لينظروا إليكما. كنت أجد أحيانًا بالقرب منكما لعبًا، وحلوى." لا زالت تعتقد ذلك. كانت تظن أن الناس كانوا يعطونهما لعبًا لأنهما كانا جميلين. لم يجرؤ مطلقًا على أن يقول لها الحقيقة. كانا ينامان فورًا بعد إطفاء الأضواء وبداية الفيلم القصير لأحداث الساعة. كانت الأم تعزف طوال ساعتين. كان يستحيل عليها أن تتابع الفيلم على الشاشة: لم يكن البيانو على مستوى الشاشة ذاتها لكنه كان أخفض بكثير من مستوى الصالة.

-

خلال عشر سنوات لم تستطع الأم أن ترى فيلمًا واحدًا. لكنها في النهاية، أصبحت يداها على قدر كبير من المهارة حتى إنها لم تعد تحتاج إلى أن ترى ملامس البيانو. لكنها لم تكن ترى شيئًا من الفيلم الذي كان يمر فوق رأسها. "كان يبدو لي أحيانًا أنني أنام وأنا أعزف. حين كنت أحاول النظر إلى الشاشة كان الأمر فظيعًا، كان رأسي يدور. كانت عصيدة حارة سوداء وبيضاء ترقص فوق رأسي وتصيبني بدوار البحر." حدث ذات مرة، مرة واحدة فقط، أن كانت رغبتها في أن ترى الفيلم عنيفة جدًا حتى أنها ادعت المرض وجاءت متخفية إلى السينما. لكن حين الخروج تعرف عليها مستخدم في السينما فلم تجرؤ بعد ذلك على معاودة الكرة. لقد جرؤت على القيام بذلك مرة واحدة طوال عشر سنوات. اشتهت أن تذهب إلى السينما طوال عشر سنوات ولم تستطع أن تذهب إلاَّ مرة واحدة وهي متخفية. بقيت تلك الرغبة فيها، غضة، أما هي فلقد كانت تهرم. وفي نهاية السنوات العشر فات الوقت، ورحلت إلى السهل.

كان تذكر تلك الأشياء عنها لا يُطاق حتى أنه كان من الأفضل بالنسبة إليه وإلى سوزان أن تموت الأم: "يجب أن تتذكري تلك القصص، عن سينما عدن، وأن تفعلي دائمًا عكس ما فَعَلَتْ." مع ذلك، فلقد كان يحبها. حتى إنه كان يؤمن، على حد قوله، أنه لن يحب أية امرأة كما كان يحبها. لا يمكن لأية امرأة أن تنسيه إياها. "أما العيش معها، كلا، فليس ممكنًا."

ما كان يؤسفه هو أنه لم يستطع أن يقتل موظفي كام قبل أن يرحل. لقد قرأ الرسالة التي وجهتها إليهم الأم قبل أن تعطيها سائق سيارة النقل الكبيرة كما كانت قد طلبت منه ذلك وبعد أن قرأها، قرر ألاَّ يسلمها وأن يحتفظ بها دائمًا. يشعر حين كان يقرؤها بأنه قد أصبح على ما يحب أن يكونه، قادرًا على قتل موظفي كام إذا ما التقاهم. كان يود أن يبقى هكذا طوال حياته، مهما حدث له، وإن صار غنيًا جدًا. ستكون تلك الرسالة أكثر فائدة مما لو كانت بين أيدي موظفي كام على الإطلاق.

هكذا إذن كانت مشاريعه ستسبب لها العذاب فإنها قد حيكت وفق ما عانت الأم. وإذا كان قد صار شريرًا معها فلقد كان يقول إن ذلك ضروري بقدر ما كان ضروريًا مع موظفي كام.

لم تكن سوزان تدرك كل مرمى كلمات جوزيف لكنها كانت تسمعها بورع كأنها أنشودة للرجولة وللحقيقة. حين تفكر في تلك الكلمات، تدرك بانفعال أنها قد أصبحت قادرة، هي ذاتها، على أن تُسَيِّر حياتها كما كان جوزيف يقول ما يجب فعله. رأت حينذاك أن ما تعجب به لدى جوزيف كان ينبثق منها أيضًا.

في الأيام الثمانية التي تلت عودتهم كان جوزيف تعبًا وحزينًا. لم يكن ينهض إلاَّ لوجبات الطعام. لم يعد يغتسل على الإطلاق. ثم راح بعد ذلك، على العكس، يصوب على بعض الطيور المائية من الشرفة ويغتسل يوميًا بعناية فائقة. كانت قمصانه نظيفة جدًا دائمًا

وكان يحلق لحيته كل صباح. لذلك عرفت الأم أن رحيله يقترب. إن من يراه، كائناً من كان، يستشف ذلك ويدرك أن لا أحد يستطيع أن يمنعه من الرحيل. كان على أتم الاستعداد في كل ساعة من النهار.

دام الانتظار، بمجمله، شهرًا. ولم تتسلّم الأم أي جواب من مصلحة المساحة، ولا حتى من المصرف، والسبب معروف. لكنها لم تعد مبالية. في النهاية، لم تعد توقظ سوزان لتحدثها عن جوزيف. ربما كانت تتمنى أن تراه يرحل بأسرع ما يمكن بمجرد أن قرر الرحيل. لابد أنه قد خطر لها بشكل غامض أنها لن تستطيع أن تعرض الماسة على العجوز بارت ما دام جوزيف هنا. لأنه منذ أن اشترى العجوز بارت الفونوغراف، راحت تفكر فيه. كانت تتحدث عن ذلك، لا تتحدث، إن صح القول، إلاّ عنه، عن ثروته، عن الإمكانات التي يملكها، عن توظيف أمواله التي قد تقوم بها لو كانت مكانه بدلاً من أن يعمل في تهريب الخمور، إلخ. هل كانت تحاول أن تنظم مستقبلها مرة أخرى؟ لم يكن لديها رؤية واضحة عن ذلك. ولا عما ستفعل بالمال، إذا ما نجحت في بيع الخاتم إلى الأب بارت، بعد أن يكون جوزيف قد رحل.

كان أحد مشاريع الأم الأشد إلحاحًا هو أن تستطيع ذات يوم أن تستبدل بسطح البيت الخشبي الذي هو من القش سقفًا من القرميد. ليس لأنها لم تستطع البتة أن تقوم بذلك، لكنها لم تستطع، منذ ست سنوات، أن تجدد سقف البيت القديم الذي هو من القش. وكانت إحدى مخاوفها، التي لا تقل رسوخًا، هو أن تشرع الديدان بأكل القش قبل

أن تجمع ما يكفي من المال لتبدله. إلاَّ أنه قد حدث قبل عدة أيام من رحيل جوزيف أن تحققت مخاوفها فبرزت فتحة ضخمة أحدثتها الديدان في القش المتعفن. ببطء، وبانتظام، بدأت الديدان تتساقط من السقف. كانت تصر تحت الأقدام العارية، وتسقط في الجرار، وفوق الأثاث، وفي الأطباق، وفي الشعر.

إلاَّ أن جوزيف، وكذلك سوزان، ولا حتى الأم لم يبد منهم أقل تلميح عن ذلك. لم يكن يتأثر من ذلك إلاَّ العريف. بما أن البطالة كانت تثقل عليه، فلقد راح، دون أن ينتظر أن تأمره الأم، يكنس أرض البيت الخشبي طوال النهار.

قبل عدة أيام من رحيله، عهد جوزيف إلى سوزان برسالة الأم الأخيرة إلى موظفي كام. كان يحرص على أن تقرأها قبل أن يرحل. قرأتها سوزان ذات مساء، خلسة عن الأم. لم تكن تلك الرسالة إلاَّ لتؤكد كلمات جوزيف. هذا ما كانت الأم قد كتبته:

"السيد موظف مصلحة المساحة،

"أعتذر عن الكتابة إليك ثانية. أعرف أن رسائلي تزعجك. كيف لا أعرف ذلك؟ إنني لم أتسلم منك خطابًا منذ شهورٍ كثيرة. لاحظ أنني قد انقطعت عن الكتابة إليك منذ أكثر من شهر. لكنك، بلا شك، لم تلاحظ ذلك. أقول لنفسي أحيانًا إنك لا تقرأ رسائلي وإنك ترميها في سلة المهملات دون أن تفتحها. لقد وضعت ذلك في رأسي حتى إن الأمل الوحيد الذي بقي لي كما ترى، هو أن تنجح، مرة

واحدة فقط، في أن تقرأ واحدة من رسائلي، لا شيء سوى واحدة. مرة واحدة، قد تلفت نظرك واحدة منها، لأنك في ذاك اليوم، مثلا، ليس لديك عمل مستعجل تقوم به. يبدو لي بعد ذلك أنك ستقرأ الأخريات، تلك التي تلي هذه الرسالة. لأن وضعي كما يبدو لي دائمًا، إذا ما عرفته جيدًا، لا يمكن أن يتركك في لا مبالاة تامة. وإن لم يبقَ لك، بعد أن مارست طوال سنين مهنتك الكريهة، إلاّ النزر اليسير من الرحمة، مهما كان قليلاً، فستأخذ وضعي بعين الاعتبار.

"إن ما أطلبه منك، وأنت تعرف ذلك، هو شيء قليل. إنه الموافقة على الامتياز النهائي لخمسة هكتارات من الأراضي المحيطة ببيتي الخشبي. إن تلك الأراضي على هامش بقية ملكيتي، وأنت تعرف تمامًا، أن تلك الأراضي لا يمكن زراعتها. امنحني إذن هذه الميزة الصغيرة وهي أن أملك الهكتارات الخمس ملكية تامة، هذا كل ما أطلبه منك الآن. أستطيع بعد ذلك أن أرهنها وأحاول للمرة الأخيرة أن أشيد جزءًا من سدودي. سأقول لك لماذا، بالتالي، أود أن أحاول بناء سدود جديدة، إن تلك الأشياء ليست بالسهلة. بالرغم من أنك تأنف من الاعتراف بذلك، وإن من دواعي مصلحتك عدم الاعتراف بذلك، إنني أعرف كل اعتراضاتك: إن الهكتارات الخمسة الواقعة في الأعلى لا تشكل إلاّ "وحدة" مع المائة هكتار الواقعة في الأسفل وتصلح تلك الهكتارات الخمسة على وجه الدقة لأن توهم بصلاحية المائة هكتار، فهي توحي للناس أن باقي الأراضي مثل تلك الخمسة من الهكتارات. وبالفعل في فصل الجفاف، حين ينسحب

البحر تمامًا، من يمكن أن يظن العكس؟ لقد استطعتم أن تبيعوا الأرض أربع مرات، بفضل تلك الهكتارات الخمسة، إلى مالكين مختلفين، إلى بؤساء تعيسين لم يكن لديهم المال ليرشوكم. غالبًا ما ذكرتكم بتلك الأمور، في كل رسالة من رسائلي، لكن ما العمل؟ إنني لا أمل من تذكر مصيبتي. لن أتعود مطلقًا عليها، لن أعتاد على سفالتكم، وما دمت على قيد الحياة، حتى النفس الأخير، سأحدثكم دائمًا عن ذلك، سأروي لكم على الدوام في أدق التفاصيل ما فعلتم معي، وما تفعلونه يوميًا مع آخرين غيري بكل هدوء وأنفة. أعرف جيدًا أنه إذا اقتطعت تلك الهكتارات الخمسة من الأعلى، من المائة هكتار الأخرى. فلن يبقى امتياز أرض البتة. لن يبقى مكان لإقامة البؤس، ولبناء بيت خشبي ولا حتى لزراعة الأرز طوال السنة. لأنه يجب عدم الاعتماد على بقية الملكية مرة أخرى. في المد الكبير لشهر تموز، تلعق أمواج الباسيفيك أكواخ آخر قرية حيث تشرع في الانسحاب منها، مخلفة وراءها طينًا يابسًا ويلزمها أمطار تستمر أكثر من عام لتغسل الملح منها وحتى عشرة سنتمترات من العمق فقط، وهي قياس طول جذور الأرز غير المقشور حين ينضج.

قد تقولون لي، أين سيقيم حينذاك ضحاياكم؟ أعرف كل ذلك، كما أعرف أيضًا أنه قد لا يبقى هناك من ضحايا على الإطلاق. لكن بالرغم من المساوئ التي يمثلها في نظركم إعطاء تلك الهكتارات الخمسة نهائيًا، عليكم مع ذلك الموافقة. أنتم تعرفون لماذا أريدها. لقد اشتغلت طوال خمسة عشر عامًا وطوال خمسة عشر عامًا ضحيت

بكل شيء، حتى بأبسط متعي لأشتري من الحكومة تلك القطعة من الأرض. وماذا أعطيتموني مقابل ادخاراتي التي جمعتها كل يوم طوال خمس عشرة سنة من حياتي ومن شبابي؟ صحراء من الملح ومن الماء. وتركتموني أعطيكم مالي. هذا المال الذي أتيت به ذات صباح، منذ سبعة أعوام، في مغلف، حملته لكم بكل ورع. كان كل ما أملك. لقد أعطيتكم كل ما عندي ذاك الصباح، كل شيء، كما لو كنت قد وهبتكم جسدي كله أضحية، كأنه من جسدي المذبوح سيزهر مستقبل من السعادة لأولادي. وهذا المال، أخذتموه. أخذتم المغلف الذي يحوي كل توفيري، كل آمالي، وسبب عيشي، صبري طوال خمسة عشر عامًا، كل صباي، أخذتموه ببساطة، وانصرفت وأنا سعيدة. كما ترون، كانت تلك اللحظة أمجد لحظة في وجودي كله. ماذا أعطيتموني مقابل خمسة عشر عامًا من حياتي؟ لا شيء سوى الريح، والماء. لقد سرقتموني. وإذا نجحت في أن أطلع الحكومة العليا للمستعمرة على تلك الأشياء، لو كنت أملك الوسيلة لإطلاعها، فلن يجدي ذلك نفعًا. حينئذٍ ترتفع جوقة المالكين الضخام ضدي وأجرد من ملكيتي على الفور. من المحتمل أن يوقف شكواي، قبل أن تصل إلى الحاكم العام، رؤساؤك الأعلى منك والذين يتمتعون بامتيازات تفوق امتيازاتك، لأن مكانتهم تقتضي رشوة أغلى بكثير من رشوتك.

"كلا، ليس لدي أية وسيلة، من تلك الجهة، لأطالك، وإنني أعرف ذلك. »

"كم من مرة طلبت منك أن تتخلى لصالحي عن نذالتك؟ ألا تعود لتفتيشي لأن ذلك لا يجدي نفعًا، لأنه لا أحد في العالم يستطيع أن يُنبت أي شيء في البحر، في الملح؟ لأنك لا تعطيني فقط (أستطيع أن أكرر هذه الأشياء دون أن أملّ) عدمًا لكنك تأتي بانتظام لتفتش ذاك العدم . إنك تقول: "لم تفعلي شيئًا هذه السنة أيضًا؟ أنت تعرفين النظام، إلخ.؟ وتغادر بعد أن تكون قد قمت بعملك، هذا العمل الذي تنال عنه مرتبًا كل شهر. وحين شرعت في بناء سدودي انتابك الخوف، الخوف من أن أتوصل إلى إنبات شيء ما في تلك الصحراء المقفرة. ربما كنتَ أقل زهوًا من المعتاد. إنك تتذكر، في ذلك السياق، الطريقة التي هربت بها وقد ارتعدت فرائصك، كما يُقال، حين أطلق ابني طلقة بندقية صيد في الهواء؟ سنتذكر ذلك جميعًا باعتبارها ذكرى جميلة لأن رؤية رجل مثلك يركض مهرولاً، يُعَد بين جميع الأشياء، شيء نحب رؤيته. لكن اطمئن من تلك الجهة، إن إقامة سد على الباسيفيك أسهل تثبيتًا من محاولة كشف نذالتك. إن طلبك مني أن أنبت شيئًا ما في أرضي يعني أنك تطلب مني أن آتي بالقمر، وأنت تعرف ذلك حق المعرفة، لدرجة أن تفتيشك يقتصر على زيارة تستغرق عشر دقائق حتى إنك لا توقف فيها محرك سيارتك. آه! أنت في غاية العجلة. لأن عدد الملكيات محدود وآخرون ينتظرون كما انتظرت بدوري. وأنت، تخاف أن تفقد ربح المصائب التي تزرعها، إنك تخاف، إن لم أرحل بسرعة أو لا أموت

بسرعة كذلك، أن تضطر إلى أن تعطي أرضًا صالحة للزراعة إلى بائسين لا يستطيعون أن يرشوك.

"لكنني أرجوك أن تستسلم لهذا الأمر. لن يأتي بعدي أحد إلى هنا. لذا من الأفضل لك أن تعطيني فورًا ما أطلبه منك. لأنك إذا نجحت في إقصائي، فحين ستأتي لتري الملكية لواصل جديد، أي خمسة الهكتارات العالية التي تغش بها، سيأتي مائة فلاح ليحيطوا بك. سيقولون للمالك الجديد: " قل لموظف المساحة أن يأخذك إلى بقية الملكية. حين تصل إلى هناك اغرز إصبعك في وحل حقول الأرز وذقه. هل تعتقد أن الأرز يمكن أن ينبت في الملح؟ إنك المالك الخامس. أما الآخرون فلقد ماتوا أو أفلسوا. " وأنت، لا يمكنك أن تفعل شيئًا ضد هؤلاء الفلاحين لأنك إذا ما حاولت إسكاتهم يلزمك أن يرافقك جنود مسلحون. هل يمكن زيارة الأراضي في تلك الظروف؟ كلا. إذن بما أنني أنبهك إلى ذلك، فأعطني فورًا الهكتارات الخمسة من الأراضي العالية.

أعرف مدى نفوذك وأنك تمسك السهل بين يديك بفضل سلطة منحتها إياك الحكومة العامة للمستعمرة ذاتها. أعلم كذلك أن كل معرفتي بنذالتك وبنذالة زملائك كافة، وكل من سبقوك، وكل من يلحقون بك، ونذالة الحكومة نفسها، إن كل تلك المعرفة التي لديَّ (والتي هي وحدها قادرة على قتلي، وتستطيع أن تقتل رجلاً بمجرد أن يحمل ثقلها) لا تجديني نفعًا لو كنت أملكها وحدي. لأن معرفة

شخص واحد لخطيئة مائة آخرين لا تجدي نفعًا. هذا شيء استغرق تعلمه مني وقتًا طويلاً لكنني حفظته الآن مدى الحياة. إذن، إنهم مئات في السهل يعرفونك وربما هناك مائتان يعرفونك كما أعرفك، يعرفونك في التفاصيل، وفي المنهج، وفي طريقة تصرفك. أنا التي شرحت لهم مطولاً وبصبر من أنت وأنا التي أغذيهم بحماس ليكرهوا صنفك. حينئذٍ عندما أصادف واحدًا من صنفك، فبدلاً من أن أقول له: نهارك سعيد، وعوضًا عن التحية ولأعبر له عن صداقتي نحوه، أقول له: "إذن، لم نرَ هذا الأسبوع يمر كلاب مصلحة المساحة في كام؟" وأعرف البعض يبتهجون مسبقًا من فكرة أنهم في يوم ما من التفتيش قد يستطيعون أن يقتلوكم، أنتم أيضًا، الموظفين الثلاثة في كام. لكن، اطمئنوا، لا أزال أهدئهم، أقول لهم: "لن يجدي ذلك نفعًا. ماذا ينفع قتل ثلاثة جرذان ما دام هناك جيش من الجرذان خلف هؤلاء الثلاثة؟ ليس هذا ما يجب البدء في عمله..." وإنني أشرح لهم أنك حين ستأتي مع مالك جديد، إلخ.

"ألاحظ أن رسالتي طويلة جدًا لكن أمامي ليلتي كلها لأكتبها. لم أعد أنام منذ مصائبي، السدود منهارة. لقد ترددت كثيرًا قبل أن أكتب إليك هذه الرسالة الأخيرة، وأن أطلعك على كل هذه الاعتبارات لكن يبدو الآن لي أنني قد أخطأت لأنني لم أفعل ذلك من قبل ولأن رسائلي وحدها هي القادرة أن تثير اهتمامك بوضعي. وبتعبير آخر، كي تهتم بي يجب أن أحدثك عن ذاتك. ربما عن خزيك وعارك،

ولكن عن شخصك أنت . وإذا قرأت هذه الرسالة، فإنني على يقين من أنك ستقرأ بقية رسائلي لترى مدى التقدم الذي أحدثته معرفة خزيك في نفسي.

"إذا كان قتلك، بالنسبة إليهم، في يوم من أيام التفتيش، ما زال لا يجدي نفعًا، ربما قد ينفعني ذلك ذات يوم. حين سأصبح وحيدة، حين يرحل ابني، وحين ترحل ابنتي وسأكون وحيدة وفي منتهى اليأس والقنوط حتى لن يعود شيء يهمني، حينذاك، ربما قبل أن أموت، أرغب في أن أرى جثثكم الثلاث تفترسها كلاب السهل الهائمة. أخيرًا ستتلذذ تلك الكلاب، وستكون وليمتها فخمة. حينذاك، في لحظة موتي يمكنني أن أقول للفلاحين: "إذا أراد واحد منكم أن يدخل البهجة إلى قلبي للمرة الأخيرة، قبل أن أموت، فليقتل موظفي مصلحة المساحة الثلاثة في كام." لكنني لن أقول لهم ذلك إلاّ حين تحين ساعة قوله. أما الآن، فعندما يسألونني مثلاً: "لكن من أين يأتي إذن هؤلاء الزارعون الصينيون الذين أخذوا أفضل أراضينا الواقعة على تخوم الغابة لزراعة أشجار البهار؟"، فسأشرح لهم أنكم أنتم الذين قد استغللتم عدم وجود سند تمليك لكل تلك الأراضي التي بعتموها إلى هؤلاء الزارعين الصينيين. فيسألونني "ما هو سند التمليك؟". فأشرح لهم: "لا يمكنكم أن تعرفوا ذلك. إنها ورقة تشهد على ملكيتكم. لكن شأنكم في التملك شأن عصافير فوهة النهر أو شأن القردة التي لا تملك أي سند. من يمكن أن يعطيكم السندات؟ إنها

كلاب مصلحة المساحة في كام الذين ابتكروا ذلك كي يتصرفوا بأراضيكم ويبيعوها."

"هذا ما أكتفي بفعله في تلك الملكية المعطلة. أتحدث إلى العريف. أتحدث إلى آخرين. تحدثت إلى كل الذين جاؤوا ليبنوا السدود وشرحت لهم بدون كلل من أنتم. حين يموت طفل، أقول لهم: "هذا ما يَسُر هؤلاء الكلاب لمصلحة المساحة في كام. ويسألون: ـــــ ولماذا يسرهم ذلك؟". وأقول لهم الحقيقة، وهي كلما مات عدد كبير من الأطفال في السهل، يخلو السهل فتبسطون سلطتكم عليه وتدعمونها. لا أقول لهم، كما ترون، إلاّ الحقيقة وأمام طفل ميت من واجبي أن أقولها لهم.

"لماذا لا يرسلون الكينين؟ لماذا لا يوجد طبيب، ولا مركز صحي؟ ولا حجر الشب لتصفية المياه في فصل الجفاف؟ ولا حملة تطعيم واحدة؟" فأشرح لهم السبب وإن كانت تلك الحقيقة تتجاوز فهمكم، وتتجاوز ادعاءاتكم الشخصية على السهل، فتلك الحقيقة التي أقولها لهم لا تقل صدقًا عما تهيئه استعداداتكم لتولي الأمور.

"ربما لا تعرفون ذلك لكن هنا يموت أطفال صغار بكثرة وفيرة حتى إنهم يدفنون بمستوى الطين في حقول الأرز، تحت الأكواخ، وإن الأب يبسط الأرض بقدميه حيث دفن طفله. وهذا يعني أنه لا شيء يشير إلى أثر طفل ميت وأن الأراضي التي تطمعون فيها والتي تنتزعونها منهم، الأراضي العذبة الوحيدة من السهل، تعج

بجثث الأطفال. من يدري، فلكي ينتفع أخيرًا هؤلاء الموتى بشيء ما، فيما بعد بزمن طويل، فإنني حينئذ ألفظ كلمات تكون بمثابة كفن أو رثاء إذا شئتم، أجل ألفظ تلك الكلمات المقدسة بالنسبة إليَّ: "هذا ما يسر هؤلاء الكلاب في مصلحة أراضي كام." فليعرفوا على الأقل ذلك.

"إنني الآن حقًا في فقر مدقع ـــ وكيف بإمكانكم معرفة ذلك؟ـــ كما أن ابني، وقد اشمأز من كل ذلك البؤس، من الأرجح أنه سيتركني نهائيًا ولم أعد أشعر بالشجاعة ولا بالحق في أن أتمسك به. إنني حزينة جدًا حتى إنني لم أعد أستطيع النوم. لقد انقضى زمن طويل وأنا أمضي ليالي تلو ليالٍ أكرر هذه الأشياء. منذ الزمن الذي أكرر فيه هذه الأشياء والتي لا تجدي نفعًا، بدأت شيئًا فشيئًا آمل أن الوقت سيحين حيث ستنفع تلك الأشياء. وأن ابني سيرحل نهائيًا، وهو على ما عليه من الشباب وعلى علم تام بكل نذالتكم، ربما يكون ذلك بداية. هذا ما أقوله في ذاتي لأعزي نفسي.

"وكما ترون، يجب أن تعطوني هذه الهكتارات الخمسة من الأعلى والتي تحيط بيتي الخشبي. قد تقولون لي، إذا طاب لكم مرة واحدة أن تجيبوني: "ما جدوى ذلك؟ إن تلك الهكتارات الخمسة لا تكفيكِ وإذا رهنتها لتبني سدودًا جديدة، فإن هذه السدود ستكون سيئة شأنها شأن السدود الأولى." آه! إن الناس الذين على شاكلتكم لا يعرفون ما معنى الأمل، على كل حال لا يعرفون ما يفعلون بالأمل، فليس لديهم سوى الطموح ولا يخطئون البتة في تصويبهم. سأجيبكم

فيما يخص سدودي. إذا لم يبق لي الأمل بأن تستطيع سدودي أن تتماسك هذا العام، فمن الأفضل أن أسلم ابنتي فورًا إلى أحد بيوت الدعارة، وأن أحث ابني على الرحيل وأن أدفع إلى قتل موظفي مصلحة المساحة في كام." ضع نفسك في مكاني: إذا فقدت هذا الأمل في العام القادم، مع احتمال إمكانية هزيمة جديدة، فماذا سيبقى لي أفضل من أن أسعى لاغتيالكم؟

"أين كل المال الذي ربحته للأسف، والذي ادخرته قرشًا فوق قرش لأشتري هذه الملكية؟ أين هذا المال الآن؟ إنه في جيوبكم المثقلة بالذهب. أنتم سارقون. وكما أن الموتى من الأطفال لا يمكن استرجاعهم كذلك لن أسترجع مطلقًا مالي، ولا صباي. يجب أن تعطوني تلك الهكتارات الخمسة وإلا فسيجدون ذات يوم جثثكم في الحفر التي تحاذي الطريق الممهد وحيث كان يُدفن أحياءً السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين كانوا يعملون في تعبيد الطريق. لأنني أكرر لك للمرة الأخيرة، أن على الإنسان أن يعيش من شيء ما وإن لم يكن هذا الشيء هو الأمل بتشييد سدود جديدة،على غموضه، فسيكون أمل الجثث، وإن كانت جثثًا بغيضة لموظفي مصلحة المساحة الثلاثة في كام. يتساهل المرء حين لا يجد ما يضعه تحت ضرسه.

"على أمل جواب من قبلكم، بالرغم من ذلك، أرجو أن تتفضل، سيدي موظف مصلحة الأراضي، بقبول، إلخ."

سُمع نفير سيارة على الطريق الممهد من جهة الجسر. كان النفير كهربائيًا طويلاً جدًا. كانت الساعة الثامنة مساءً. لم يسمعها أحد تصل، ولا حتى جوزيف. لا بد أنها قد توقفت من الجهة الأخرى للجسر، ومن المستحيل أن تكون الأمور قد جرت بطريقة مغايرة لأنه كان يُسمع دائمًا تكسر الألواح الخشبية التي انفكت مساميرها من الحرارة حين كانت تمر سيارة فوقها. وبما أن أحدًا لم يكن قد سمعها تصل فيمكن الافتراض أنها كانت هناك، قبل الجسر، منذ فترة طويلة بعض الشيء. ربما لم تكن واثقة في الحال أنه هو، البيت الخشبي الذي حدثها عنه جوزيف. لا شك أنها نظرت طويلاً إليه وهو يرتسم في الظلام، لم يتم إلاّ نصف بنائه، بدون درابزين، وحول مصباح الأسيتيلين الذي كان يسطع في الداخل لا بد أنها بحثت عن خيال جوزيف. بالطبع إنه هو، لاسيما أنه بالقرب من خياله كان هناك خيالان واحد منهما خيال امرأة عجوز. لا شك أنها انتظرت فترة قبل أن تطلق النفير. انتظرت أيضًا، ثم فجأة أطلقته، أحدثت إشارة قد اتفقا عليها. لم تكن نداءً خجولاً، كلا، لقد كان نداءً متكتمًا لكنه آمر. منذ شهر، ومنذ ثماني مائة كيلومتر، كانت تنتظر هذا النفير. وحين صارت أمام البيت الخشبي، أخذت وقتًا كافيًا وانتظرت قبل أن تضغط على الزر، وهي على يقين من أن عليها القيام بذلك.

كانوا يأكلون حين دوى الصوت. قفز جوزيف كما لو أن عبوة من الرصاص قد أفرغت في جسمه. نهض عن المائدة، ودفع كرسيه، وقطع غرفة الاستقبال ونزل درجات البيت الخشبي وهو

يركض. نهضت الأم عن المائدة ببطء، وكما لو كان عليها من الآن فصاعدًا أن تلجأ إلى أقصى الحيطة تجاه ذاتها، فلقد تمددت في كرسيها الطويل، في غرفة الاستقبال، مقابل باب المدخل. تبعتها سوزان وجلست بالقرب منها في مقعد. كانت تلك الليلة تكاد تماثل ليلة موت الحصان التي ابتدأت ثانية.

قالت الأم بصوت منخفض: ـــــ لقد تم الأمر.

كانت تحدق بعينيها شبه المغمضتين في الجهة التي أتى منها النفير. وقد يظن المرء أنها كانت تغفو لولا شحوبها الكبير. لم تكن تنبس ببنت شفة كما لم تكن تبدي أية إشارة ولا حتى من إصبعها. كان الطريق الممهد مطبق السواد. لا بد أنهما كانا كلاهما، متعانقين، في الظلام. بقي جوزيف غائبًا مدة طويلة جدًا بعد ذهابه. لكن السيارة لم تكن قد أقلعت. كانت سوزان على يقين من أن جوزيف سيصعد ثانية ولو عدة دقائق، ليقول بضع كلمات للأم، ربما ليس لها، لكن للأم حتمًا.

وبالفعل رجع جوزيف. توقف أمام الأم ونظر إليها. كان منذ شهر لم يبادرها بكلمة واحدة، وربما لم يكن قد نظر إليها حقًا. حدثها برفق وعذوبة.

ـــــ سأذهب لعدة أيام، لا أستطيع أن أفعل خلاف ذلك.

رفعت عينيها نحو ابنها، ولمرة واحدة، دون أن تتأوه، ودون أن تبكي، قالت:

ـــــ ارحل، يا جوزيف.

كان صوتها واضحًا لكنه أبح كأنها فجأة راحت تتحدث بشكل مزيف. بعد أن انتهت من حديثها، رفعت سوزان عينيها نحو جوزيف. كادت أن لا تتعرف عليه. كان يحدق في الأم ويضحك في الوقت نفسه، دون أن يستطيع أن يتمالك، على ما يظهر، بينما لم يكن ربما يود أن يضحك. كان آتيًا من الليل الدامس كأنه عائد من حريق: كانت عيناه تبرقان، ووجهه يقطر عرقًا ويخرج الضحك منه كأنه يحرقه.

ـــــ يا لله! سأعود، أقسم على ذلك.

لم يكن يتحرك وكان ينتظر إشارة من الأم، إشارة ما لم تكن تستطيع القيام بها. شوهد على الطريق الممهد دفق عظيم من النور، على مد النظر. كانت مصابيح السيارة تقطع ذاك الطريق إلى قسمين ولقد بدا أن النور ينبثق انطلاقًا منهما، أما من الجهة الأخرى فلم يكن هناك شيء، لا شيء سوى الجو الخانق الذي لا يمكن استنشاقه والمنبعث من ظلام كثيف. كان دفق النور ينحرف باهتزازات تدريجية، وهو يمسح البيت الخشبي، وفوهة النهر، والقرى النائمة، والباسيفيك، عن بعد إلى أن يظهر طريق سالك آخر، يعارض الطريق الأول. لم يسمعها أحد تدور. لاشك أنها سيارة مدهشة بثماني أسطوانات من ماركة Delage. سيكونان في المدينة خلال عدة ساعات. سيقود جوزيف السيارة كمجنون حتى أول فندق حيث

سيتوقفان ليتطارحا الغرام. كانت حزمة المصابيح الضوئية تشير إلى اتجاه المدينة. من هناك كان جوزيف على وشك الرحيل. استدار جوزيف، مرت اللفافة الضوئية أمامه، تشنج، مبهورًا. كان ينتظر، منذ ثلاث سنوات، أن تأتي امرأة حازمة بصمت لتخطفه من أمه. كانت تلك المرأة هناك. كان الآخرون يشعرون بالانفصال عنه كما لو كان مريضًا، أو بالأحرى مجنونًا، على الأقل قد حُرم من الحس السليم. وبالفعل، فلقد كان من العسير النظر إلى هذا الشاب جوزيف الذي لم يعد يعنيهما، والذي صار بالنسبة إليهما هذا الميت الحي.

استدار ثانية نحو الأم وبقي أمامها ينتظر بادرة السلام هذه، التي لم تكن تستطيع أن تقوم بها نحوه. وكان مسترسلاً في الضحك. ووجهه يعبر عن سعادة عارمة يصعب التعرف عليه. لم يكن يستطيع أحد من قبل، ولا حتى سوزان، أن يصدق هذا الوجه، المنغلق على ذاته بتصميم، أنه قد أصبح قادرًا على أن ينكشف، وأن يستسلم بتلك الوقاحة.

راح جوزيف يردد: ـــ اللعنة، أقسم لك، سأعود، إنني أترك كل شيء، حتى بندقياتي.

ـــ لم يعد بك حاجة إلى بندقياتك. ارحل، يا جوزيف.

كانت قد أغمضت عينيها ثانية. أخذها جوزيف من كتفيها وراح يهزها.

ـــــ بما أنني أقسم لك على ذلك، حتى ولو أردت أن أتركك، فلن أستطيع.

كانتا على يقين أنه راحل أبدًا. أما هو فما زال يشك في ذلك.

قالت الأم: ـــــ قبلني، وارحل.

استسلمت إلى هزات جوزيف الذي راح يصرخ.

ـــــ خلال ثمانية أيام! حين تنتهي من إزعاجي! سأعود بعد ثمانية أيام! يبدو أنك لا تعرفينني!

استدار نحو سوزان قائلاً: ـــــ قولي لها، بحق السماء، قولي لها!

قالت سوزان: ـــــ لا تقلقي، بعد ثمانية أيام سيكون هنا.

قالت الأم: ـــــ ارحل، يا جوزيف.

حزم جوزيف أمره وذهب إلى غرفته ليعد حوائجه. كانت السيارة لا تزال تنتظر، وقد أطفئت المصابيح الآن. لم تكن قد زمرت مرة ثانية. لقد تركت ما يكفي من الوقت لجوزيف. كانت تعرف أن الأمر شاقّ. كانت مستعدة أن تنتظر الليل كله، وهذا أكيد، دون أن تزمر مرة جديدة.

عاد جوزيف وقد انتعل خفيه المخصصين لكرة المضرب. كان يحمل حزمة من الملابس الداخلية التي قد أعدها مسبقًا حتمًا. انقض على الأم، ورفعها بين ذراعيه وقبلها بكل قواه في شعرها. لم

يذهب نحو سوزان لكنه أرغم نفسه على النظر إليها وكان في عينيه شيء من الفزع وربما من الخجل أيضًا. ثم فجأة، مرَّ بينهما ونزل درجات السلم وهو يركض. أشعلت المصابيح بعد قليل على الطريق السالك، في اتجاه المدينة. ثم انطلقت السيارة بهدوء كبير، دون أن يسمعها أحد: تنقلت أضواء المصابيح، وابتعدت، وابتعدت أيضًا، تاركة خلفها حدًا من الظلام يزداد اتساعًا، ثم اختفى كل شيء تمامًا.

بقيت الأم بعينيها المغمضتين في الوضعية ذاتها على الدوام. والبيت الخشبي في سكون مطبق حتى كانت سوزان تستطيع أن تسمع تنفسها الأجش والمتقطع.

صعد العريف ترافقه زوجته. كانا قد شاهدا كل شيء. أحضرا أرزًا ساخنًا وسمكًا مقليًا. ابتدأ العريف بالتحدث، كما هو الحال دائمًا. قال إن السمك والأرز اللذين على الطاولة قد بردا وإنه أحضر أطباقًا أخرى. أما زوجته التي كانت معتادة على ألاّ تبقى البتة في البيت الخشبي فلقد جلست القرفصاء إلى جانبه في زاوية غرفة الاستقبال. لقد فهما أخيرًا ما كان يُحاك منذ عودتهما من المدينة وقد ارتسم هول الجوع في عينيهما. كانا ينتظران أن تعطيهما أملاً ما في أن الطعام لا يزال مؤمنًا لهما. لا شك أنها قد قبلت أن تتحدث، من أجلهما، بعد ساعة من رحيل جوزيف. نظرت إليهما ووجهت حديثها إلى سوزان.

ــــ هيا انتهي من الأكل.

كان وجهها أحمر وعيناها كابيتين. أحضرت لها سوزان قدحًا من القهوة وحبة. كان العريف وزوجته ينظران إليها، كما كانت قد نظرت هي منذ شهر إلى الحصان. شربت القهوة وتناولت الحبة.

قالت: ـــــ لا يمكن أن تعرفي مدى الألم.

ـــــ إن ذلك أقل فظاعة مما لو مات.

ـــــ إنني لا أشكو. لم يعد لديه ما يفعله هنا، مهما فتشت، لم يعد هناك شيء.

ـــــ سيعود أحيانًا.

ـــــ إن ما هو فظيع...

التوى فمها كأنها توشك أن تتقيأ.

كررت قولها: ـــــ إن الفظيع في الأمر، هو أنه بدون أي تعليم، لذا لا أرى ما يستطيع أن يعمل، لا أرى شيئًا.

ـــــ ستساعده.

ـــــ سيتركها، سيرحل من كل مكان كما رحل من كل المدارس التي وضعته فيها... لقد بقي معي أطول مدة.

ساعدتها سوزان في خلع ملابسها وأومأت مشيرة إلى العريف وزوجته أن عليهما أن ينزلا. ولم تبكِ الأم إلاَّ حين تمددت، كما لم تبكِ البتة حتى الآن، كأنها حقًا قد اكتشفت أخيرًا، الألم .

راحت تصرخ: ـــ سترين، سترين أن ذلك ليس كافيًا بعد. ولم يكن ينقص إلاَّ أن يسدد لي طلقة خرطوش غليظ قبل رحيله، لأنه يحسن صنع ذلك...

ألمت بالأم في الليل أزمة كادت تودي بها. لكن تلك الأزمة لم تكن هي أيضًا كافية.

كانت سوزان تفكر في جوزيف. لقد صار جوزيف رجلاً آخر وليس ذلك بسبب تلك المرأة ولا بسبب رحيله. لقد تذكرت ما جرى منذ سنتين. لقد حدث ذلك على وجه الدقة في الأسبوع الذي تلا انهيار السدود.

في ذاك اليوم توقفت سيارة جديدة، لامعة، أمام البيت الخشبي. خرج جوزيف من غرفة الاستقبال تتبعه سوزان، ومن الشرفة، رأى السيارة تتوقف. كان فيها رجل متوسط القامة، أسمر، وقد احتمى وجهه تحت قبعة تلبس في المستعمرات، كان يبدو هزيلاً، غير ملفت للنظر، وقد نزل منها. كان يحمل حقيبة تحت ذراعه. بخطى ثابتة أخذ الدرب الذي يؤدي إلى البيت الخشبي. كان زمن المد الكبير لتموز، تلك الفترة من السنة حيث يظهر هذا النوع من الرجال. حينذاك كانوا يأخذون سيارتهم ويذهبون للتفتيش في الملكيات الواقعة في أراضي السهل. كانت لهم تعويضات مهمة مقابل ذاك العمل حتى إن الإدارة كانت تؤمن لهذا الغرض سيارة خاصة لتسهيل عملهم. لم يكونوا يركبون سيارة النقل العامة مطلقًا.

قال الرجل: ـــــ أسعدتم صباحًا، هل والدتكما هنا؟ أود التحدث إليها.

سأل جوزيف: ـــــ هل أنت موظف مصلحة المساحة؟

كان عند قدم الشرفة وراح ينظر تارة إلى سوزان وطورًا إلى جوزيف، بمظهر فيه شيء من المفاجأة. كان ينظر إلى سوزان، لأنها كانت المرة الأولى التي يراها فيها وربما لأنه فكر في أن لا بأس بها. وإلى جوزيف، لأن فظاظته كانت في منتهى البداهة حتى إنها كانت دائمًا وحيثما وجد تحير، وتفرض ذاتها، وتقلق. لم تصادف سوزان أحدًا على الإطلاق كان مثل جوزيف في قلة أدبه. لم يكن أحد يعرف بتاتًا بأية نبرة يحدثه حين كان لا يعرفه، ومن أي جانب يؤخذ وكيف يبددون تلك الفظاظة التي كانت تربك أكثر الواثقين بأنفسهم. راح جوزيف، وقد انحنى على الدرابزين، وذقنه بيده، ينظر إلى موظف مصلحة المساحة بعنف مفعم بالصفاء لم ينظر أحد بلا شك إليه بتلك النظرة.

سأله جوزيف: ـــــ لماذا تريد أن ترى أمي؟

حاول الموظف أن يبتسم لجوزيف ابتسامة أقرب إلى اللطف. لقد تعرفت سوزان على تلك الابتسامة. كانت قد رأت مثلها لدى الآخرين أمام جوزيف. منذ ذلك الحين، غالبًا ما وجدتها عند السيد جو. كانت ابتسامة خشية حذرة.

قال الموظف بلطف: ـــــ إنها فترة التفتيش.

ضحك جوزيف ضحكة مباغتة كما لو أن أحدًا قد دغدغه.

سأل جوزيف: ـــــ تفتش؟ أتيت تفتش؟ إذا أردت أن تفتش فلا تنزعج. اللعنة إذن، تستطيع أن تفتش كل ما تريد.

حنى الموظف رأسه فجأة كأنه تلقى ضربة مطرقة.

تابع جوزيف قوله: ـــــ هيا، ماذا تنتظر؟ لست في حاجة إلى أمي كي تقوم هي بعملك أليس كذلك؟

إن ما كان جوزيف يقوله قد بدا جميلاً جدًا لسوزان. كانت قد سمعت كثيرًا عن هؤلاء الموظفين في مصلحة المساحة، عن ثرواتهم الخيالية، وعن قدرتهم غير المحدودة، شبه الإلهية. كان ذاك الذي يقف عند قدمي جوزيف يثير الضحك. كان عليها أن تقاوم رغبتها في دعوة أمها لتراه وتضحك. اشتهت أن تتدخل، أن تتحدث كما يتحدث جوزيف.

قالت سوزان: ـــــ هيا، بما أنه يقول لك ذلك.

ـــــ إذا أردت مركبًا، فإننا نتساهل معك ونعيرك إياه.

رفع الموظف رأسه دون أن يجابه هذه المرة نظرة جوزيف. ثم حاول اللجوء إلى جدية جديدة.

ـــــ ألفت نظركم إلى أنني هنا في مهمة وأنه في هذه السنة تنتهي المهلة ما قبل الأخيرة الممنوحة لوالدتكم لزراعة ثلث الملكية.

في تلك اللحظة ظهرت الأم، وقد نبهها بلا شك ضجيج المحادثة.

ـــــ ما الأمر؟

لكنها ما إن رأت الرجل القصير حتى تعرفت عليه. كان قد جعلها تنتظر عشرات المرات في غرفة انتظار مكتبه في كام كما أنها ربما قد أرسلت إليه خمسين رسالة.

استدار جوزيف نحو أمه، قام بإشارة من يده كأنه يريد أن يوقفها، وبصوت قد تغير قال لها:

ـــــ دعيه يفعل.

كانت تلك المرة الأولى التي يتدخل فيها بأمر يتعلق بالملكية. ولقد قال ذلك بصوت حميمي كأنهما قد قررا معًا، هو وهي، أن يتدخل هو بنفسه. لم تكن قد أحست ببوادر ربيع جوزيف التي بدأت تتشكل، أي أهميته الجديدة.

لم يرفع موظف المساحة قبعته أمام الأم، كان قد اكتفى بحركة قام بها برأسه وبتمتمة بعض كلمات التحية. بدت الأم تعبة. كانت تلبس ثوبًا من ثيابها التي لا يمكن وصفها، والتي لا شكل لها، والتي ابتدأت بارتدائها، وهي نوع من المآزر الفضفاضة جدًا كانت تسبح فيها كأنها حطام سفينة. منذ انهيار السدود، كانت تلك المرة الأولى التي سرّحت فيها شعرها وضفرت خصلة شعرها الفضية

بشكل مرصوص جدًا، وربطتها في نهايتها بحلقة من مطاط السيارة، فكانت تتدلى فوق ظهرها، بسذاجة، وبشكل يثير الضحك.

قالت الأم: ـــــ آه، كنت في انتظارك، لا تستطيع أن تتأخر في المجيء.

أشار إليها جوزيف ثانية، بإشارة من يده أن تسكت. من العبث أن تكلف نفسها مشقة الرد.

قال جوزيف: ـــــ لقد صممت سدودنا. ولدينا محصول رائع، كما لم ترَ مثيلاً له في حياتك على الإطلاق.

نظرت الأم إلى ابنها، فتحت فمها لتتكلم، إلاّ أنها لم تتفوه بكلمة واحدة. ثم فجأة، تغير تعبير وجهها وانقلب تمامًا وفي خلال عدة ثوان صار تعبيرا عن المتعة، عن المتعة الوحيدة، وقد طُرد التعب والإعياء.

نظر موظف المساحة، مذهولاً، إلى الأم. لا شك أنه قد انتظر أن تأتي لنجدته، وألا تستسلم بدورها.

ـــــ لا أفهم شيئًا... لقد قيل لي إن الحظ لم يحالفكم...

قال جوزيف: ـــــ الأمور تجري على هذا النحو. انظر، لقد حالفنا الحظ أكثر مما حالفك. أما أنت، فالأمور واضحة، لم يحالفك الحظ.

قالت سوزان: ـــــ أجل، هذا واضح للعيان على الفور.

كان وجه الموظف أحمر قانيًا، مر بيده على خده ليمسح صفعة.

قال الموظف: ـــ ليس لي ما أشكو منه كثيرًا.

قال جوزيف: ـــ ونحن إذن!...

كان يضحك بصراحة. تذكرت سوزان تمامًا في تلك الدقيقة أنها ربما لن تلتقي البتة برجل يعجبها قدر إعجابها بجوزيف. قد يظن بعضهم أنه أقرب إلى الجنون. حين كان يتحامل على نزع قطع السيارة (B12)، بدون سبب، كان الناس يظنونه مجنونًا فعلاً. كانت الأم تشك أحيانًا في عقله. أما سوزان فلقد كانت تعرف دائمًا أنه لم يكن مجنونًا. وأمام موظف المساحة آه! كما كان من المؤكد أنه ليس مجنونًا! لقد وجد الموقف الملائم! من أعلى الدرابزين، وجذعه عارٍ، وقد انبهر مما وجد وبمتعة أقرب إلى الوقاحة كان يدوس الآخر، المتأنق وقد احمر تمامًا، لقد بعثر شظايًا سلطته الراسخة، وهو الذي كان حتى ذاك الحين، مثيرًا للرعب لدى الجميع.

قال موظف المساحة: ـــ أود أن نتحدث جديًا. إن ذلك في مصلحتكم ذاتها...

قالت الأم وقد التفتت نحوهما، كأنها على خشبة المسرح، لتلفت الاهتمام إلى الإجابة: ـــ في مصلحتنا؟ هل سمعتماه؟ إنه يتحدث عن مصلحتنا.

كانت تضحك هي أيضًا. وكان جوزيف يمسك بها أسيرة كأنها عصفور. لقد أخذ عنها موهبة الضحك هكذا، القدرة فجأة على ابتكار الضحك للأسباب ذاتها، التي كانت تُبكيها، في الأمس.

قال جوزيف: ـــ اللعنة، نحن نتحدث في منتهى الجدية. إنك أنت الذي لست جادًا. لو كنت تقوم بعملك، لذهبت لترى سدودنا. سأطلب من العريف أن يجهز المركب. لا يلزم أكثر من ست ساعات كي ترى كل شيء وسترى كل شيء.

رفع الموظف قبعته وجفف عرق جبينه. كان يقف تحت شمس محرقة، على مرتفع ولم يدعُه أحد للصعود. كان يعرف من قبل، كان يعرف حتى قبل بدء العمل في السدود، أنها لن تصمد، ولقد عرف أنها لم تصمد. لم يكن ذلك ما يشغله، لكن همه قد اقتصر على معرفة كيف يوقف ضحكاتهم. كيف يوقف، مهما كلف الأمر، هذا التقهقر غير المنتظر لسلطته في ضحكاتهم. لن يذهب الأمر بهم على أن يرغموه على النزول إلى السدود. كان يبحث عبثًا على إبعاد الأمر، راح ينظر من كل الجهات، بحثًا عن مخرج، عن حيلة. لم يكن قد اعتاد بالطبع أن توضع سلطته موضع شك. لم يجد شيئًا.

صرخت سوزان: ـــ أيها العريف! جهز المركب، جهز المركب بسرعة للموظف!

رفع الموظف رأسه وابتسم لسوزان ابتسامة متصنعة تعبر عن تفهمه وتبدو أقرب إلى التعاطف.

قال: ـــــ لا حاجة لذلك، أعرف أن الحظ لم يحالفكم. الكل يعرف ذلك في المنطقة. ثم أضاف بنبرة لا تخلو من عتاب لطيف وهو يلتفت نحو الأم، مع ذلك، كنت قد قلته لكم.

قالت الأم: ـــــ إن سدودي رائعة، لقد كان هنالك إله رحيم، فهو الذي جعلها تصمد في سبيل هدف واحد هو أن نرى وجوهكم المستاءة والممتعضة، أنتم، في مصلحة المساحة... وأنت، أنت هنا، جئت لترينا وجهك المستاء.

انفجر كل من سوزان وجوزيف بالضحك. كانت سعادة لا يمكن التعبير عنها من سماع الأم تتحدث على ذاك النحو. لم يكن الموظف يضحك.

قال: ـــــ أنتم تعرفون أن مصيركم بين يديَّ.

حاول إطلاق التهديدات هذه المرة. كف جوزيف عن الضحك ونزل عدة درجات من البيت الخشبي.

ـــــ ومصيرك، أنت، ألا تعتقد أنه بين أيدينا؟ إن لم تنزل فورًا إلى السدود، فسأرميك عنوة في المركب وستموت من ضربة الشمس قبل أن تصل إلى هناك. والآن إذا فضلت، فيمكنك أن تخلي المكان، ولكن هيا، بسرعة.

قام الموظف بعدة خطوات في اتجاه الطريق، بحذر. حين تأكد من أن جوزيف لم يكن يتبعه، استدار نحوه وقال بصوت أبح:

ـــــ كل ذلك سيكون موضوع تقرير، كونوا على يقين من ذلك.

صرخ جوزيف وهو يضرب بقدمه كأنه سينزل راكضًا :

ــتـ تعالَ قل ذلك هنا، تعالَ ، أما الموظف فلقد خطا أربع خطوات أو خمسًا، سريعة قبل أن يدرك أن جوزيف لم يتحرك على الإطلاق.

صرخت الأم: ـــــ أنذال! كلاب! سارقون!

استدارت الأم وهي منشرحة من الغضب، متحررة، متجددة الشباب تقول: ـــــ لقد ارتحت. إنهم أدنى من الكلاب.

ثم استدارت نحو الموظف، لم تستطع أن تتوقف.

ـــــ سارقون! قتلة!

لم يكن الموظف يلتفت. كان يسير، متشنجًا، بخطوة متوازنة نحو سيارته.

قالت الأم: ـــــ صرنا أربعة. إننا رابع من يملك تلك الأرض. الكل أصابهم الخراب أو الإفلاس. أما هم، فلقد سمنوا.

قال جوزيف بحيرة: ـــــ رابع المالكين، اللعنة، الترتيب الرابع، لم أكن أعرف ذلك، لم تقولي ذلك من قبل .

قالت الأم: ـــــ لم يمضِ زمن طويل على معرفتي ذلك، نسيت أن أقوله لك.

بحث جوزيف عما كان يمكن أن يفعله. فها قد وجد ذلك.

قال: ـــــ انتظري قليلاً.

ركض إلى غرفته وظهر من جديد مسلحًا ببندقيته التي هي من طراز (Mauser). كان يضحك ثانية. كانت الأمْ وسوزان تنظران إليه وقد تجمدتا، دون أن تجرؤا على أن تقولا له شيئًا. كان على وشك أن يقتل موظف المساحة. قد يتغير كل شيء. كل شيء سينتهي هنا، في تلك الدقيقة. كل شيء سيبدأ ثانية. أسند جوزيف بندقيته إلى كتفه وصوبها نحو موظف المساحة، أحسن التصويب وفي الثانية الأخيرة، رفع فوهة البندقية نحو السماء وأطلق في الهواء طلقة. حدث صمت ثقيل. راح الموظف يركض بكل قواه نحو سيارته. انفجر جوزيف بضحكة هائلة. ثم تبعته كل من الأم وسوزان. لا شك أن الموظف قد سمعهم يضحكون، لكنه لم يتوقف عن الركض هرولة. ما إن وصل إلى السيارة حتى غاص في داخلها، ودون أن يلقي نظرة نحو البيت الخشبي، انطلق بأسرع ما يمكن في اتجاه رام.

منذ ذاك الحين، اكتفى موظف المساحة بإرسال " إنذارات " خطية. لم يعد بتاتًا ليفتشهم. يمكن الظن أنه قد يعود فور رحيل جوزيف. لكنه كان يجهل بلا شك موعد ذاك الرحيل.

لا أحد إذن، ولا حتى موظف المساحة، كان يتوقف أمام البيت الخشبي. بقيت رصاصات البندقية الغليظة في علبة رصاص جوزيف، لا تجدي نفعًا. وكذلك بندقيته التي من طراز (Mauser) بقيت مسالمة وديعة، بدون صاحب، تتدلى بغباء على جدار غرفته. وكذلك سيارة (B.12) ـــــ كان جوزيف يقول: "إن (B.12)، هي أنا" ـــــ راحت تتغطى بالغبار رويدًا رويدًا ويأكلها الصدأ، وقد صُفّت للأبد بين الأوتاد الرئيسية، تحت البيت الخشبي.

كانت الطريدة تنزل نحو السهل وقد جذبتها المشاتل. وكان يمر في تلك الفترة من السنة عدد لا بأس به من سيارات الصيادين. فمنذ أربع سنوات، راح عدد السيارات التي تمر في تزايد لأن رام أخذت تشتهر بصيدها. كان يُسمع عن بعد محرك سياراتهم الذي ترتفع حرارته على الطريق الممهد، ثم يضخم الضجيج، ويزداد علوّا إلى أن تصل السيارات أمام البيت الخشبي، وهناك تبدو كأنها تملأ السهل كله. كانت تمر، وبعد ذلك لا يصل منها سوى صدى طويل من نفيرها حين كانت تقطع غابة رام. كانت تتأخر أحيانًا، فكانت سوزان تتمدد في ظل الجسر.

عاد الطبيب بعد عدة أيام ليرى الأم بعد نوبتها. لم يكن يبدو كثير القلق. وصف لها ضعف مقدار الحبات وأوصاها بالهدوء كما نصحها بالنهوض وبالقيام يوميًا ببعض التمارين. قال لسوزان إن ما يلزم الأم هو أن تقلل من التفكير في جوزيف، وأن تخفف قلقها وأن " تسترجع بعضًا من حب الحياة ". وافقت الأم أن تأخذ أدويتها بانتظام

لأنها تجعلها تنام، هذا كل ما في الأمر. كانت ترفض النهوض من سريرها رفضًا قاطعًا. راحت سوزان تلح عليها، في الأيام الأولى، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا، فلقد كانت الأم تعاند متمسكة برأيها.

ـــ إذا نهضت، فسأنتظره أكثر من ذلك. لم أعد أريد أن أنتظره.

راحت تنام طوال النهار تقريبًا.

كانت تقول: ـــ منذ عشرين عامًا، وأنا أنتظر أن أنام هكذا.

وكانت تنام حقًا رغبة في النوم، بتلذذ وعناد، كما لم تنم من قبل. وقد يحدث أن تبدي بعض الاهتمام بالأشياء حين تستيقظ. لكن غالبًا ما كان ذلك الاهتمام يتركز على الماسة.

ـــ يجب أن أنهض ذات يوم لتصفية الأمر.

كانت تنظر إلى الماسة، ربما باشمئزاز أقل مما كان في الماضي، وقد بقيت معلقة في عنقها مع مفتاح المستودع.

توصلت سوزان بسرعة إلى أن تدعها تفعل ما تريد إلاّ بالنسبة إلى الحبات التي وافقت على أخذها والتي كانت سوزان تعطيها إياها كل ثلاث ساعات. فمنذ رحيل جوزيف، وللمرة الأولى، لم تعد الأم في نهاية الأمر تهتم بالملكية على الإطلاق. لم تعد تنتظر شيئًا، لا من مصلحة المساحة، ولا من المصرف. هذه المرة، بادر العريف إلى الاهتمام بالمشاتل وبزراعة الهكتارات الخمسة. تركته